نابغة لبنان

جبران خليل جبران

قصة حياته ومأساة موته

تقديم

ميخائيل نُعَيمة

الكتاب: نابغة لبنان جبران خليل جبران .. قصة حياته ومأساة موته

الكاتب: ميخائيل نُعَيمة

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

نُعَيمة ، ميخائيل

نابغة لبنان جبران خليل جبران.. قصة حياته ومأساة موته , تقديم : ميخائيل نُعَيمة

الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٤ – ٨٨ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان قم الإيداع : ١٣٢١٩ / ٢٠٢٠

نابغة لبنان
جبران خليل جبران

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

اعتذار

ترددتُ كثيراً قبل أن أقدم على وضع هذا الكتاب، لأني لست أؤمن بأن في الناس من يستطيع أن يصف من حياته حتى لحظة واحدة بكل ما فيها من معان مشتبكة بمعاني الحياة الكونية. فكيف بمن يحاول أن يحصر بين دفتي كتاب حياة غير حياته، سواء أكانت حياة عبقري أم حياة بربري، وسواء أكان نصيبه من فن الكتابة وفيراً أم يسيراً؟ وعندي أن كل ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس إلا رغوة متطايرة فوق بحر الحياة الإنسانية. أما أعماق الإنسان وآفاقه فأبعد وأوسع من أن يتناولها قلم أو يستوعبها بيان، فنحن حتى اليوم لم نكتب "تاريخ" إنسان ولا "تاريخ" شيء على الإطلاق. ولو أننا كتبنا تاريخ إنسان واحد لقرأنا فيه تاريخ كل الناس. ولو أننا دونَّا تاريخ شيء واحد لطالعنا فيه تاريخ كل شيء.

ثم أن في حياة كل إنسان "أسرار" يكتمها عن الناس، وأنا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتني منها الكثير. فهل يليق بي أن أبوح ولو ببعض البعض الذي أعرفه؟ وإن أنا كتمته فما معنى الذي أكتبه؟ أأخون نفسي والقارئ وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجل الحياة الكبرى – وإن يكن مستوراً عن أعين الناس – فأصور صورة لا وزن بين ظلالها وأنوارها، لأرضي بعض من لا ذوق لهم في الفن ولا رأي لهم في الحياة، وأجور على ذوقي وأدفن رأيي في التراب؟

وإن أنا لم أكتمه فكيف لي أن أبوح به من غير أن أظهر في عين القارئ كما لو كنت أدين أخي بهفوات قد لا أكون بريئاً منها؟

وبعد ذلك فكيف لي أن أكتب عن جبران من غير أن أذكر نفسي، وقد كان بيننا من القرابة ما كان؟ وإن أنا لم أجد بداً من ذكر نفسي فهل يفهم القارئ أني ما فعلت ذلك إلا مضطراً وأني أكره التحدث عن نفسي لاسيما في كتاب أحدث فيه عن سواي؟

تلك بعض الأسباب التي دعتني إلى التردد في وضع هذا الكتاب. لكنني عندما عدت إلى الشرق بعد عام لوفاة جبران وجدت صديقي يكاد يكون أسطورة من الأساطير حتى في بلاده؛ فهو ليس جبران الذي رافقته خمس عشرة سنة وخبرت أحلامه وآلامه، وبلوت قوته وضعفه، ورقبت جهاده العنيف مع نفسه والعالم، وقاسمني أشواقه وأفكاره وشاركته في أفكاري وأشواقي. ولكم سمعت أدباء ومتأدبين يطالبونني بكتابة ما أعرفه عنه. فمن قائل أن ذاك دين في عنقي. ومن قائل أن سكوتي في مثل هذه الحالة ضرب من الإثم.

فكان من ذلك كله أني تغلبت على التردد فألفت هذا الكتاب، على أمل أن يطالع القارئ من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا "تاريخ" حياته الذي لا يعرفه أحد. وأن يقع فيه على دروس في الحياة التي يشترك فيها كل الناس بالسواء. وها أنا أرسله في سبيله عالماً حق العلم أن ما فيه من صراحة سيرضي البعض ويغيظ البعض ويدهش الكثير ممن لم يعرفوا

جبران إلا فيما قرءوه من أدبه وأطلعوا عليه من فنه. لكنها صراحة لست لأتخلى عنها. فلولاها لما كان الكتاب أهلاً للنشر. ولولاها لانطمست أجمل ما في حياة جبران. وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذي لمحه بخياله وبثه بسخاء في رسومه وسطوره. فالفن مهما تسامى في نظر صاحبه ونظر الناس، ليس من الأهمية على شيء ما لم يترجمه صاحبه والناس إلى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة إلى حرية الحياة التي لا تحد – من الإنسان في الله، إلى الله في الإنسان. والأدب، مهما جمل، لا معنى له إلا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذي هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء..

ميخائيل نعيمة

الفصل الأول

الشفق

الاحتضار

حشرجة الموت!

كم سمعت بها قبل أن أسمعها، أما منذ تلك الليلة – ليلة العاشر من أبريل سنة ١٩٣١ – فإني لا أكاد أسمع غيرها. أسمعها في دقات قلبي وفي أنفاسي. أسمعها في صورتي وفي كل صوت. أسمعها في همس النسائم وحفيف الأوراق. أسمعها في سكينة الليل وجلبة النهار.

ألا تباركت حياة تلتقي الآزال والآباد في لحظة منها، فيندمج النقيض بالنقيض، وتستوي الأضداد كالأنداد. تباركت لأنك تهزئين بمقاييس البشر. وفي هزئك قساوة. وفي قساوتك عدل. فلا تخجلي من أن تجمعي بين العرض والجوهر، بين الهزل والجد، بين المتاجر والمقابر، بين حشرجة الموت وقرقعة التليفون!

النهار الجمعة، والساعة نحو الخامسة والنصف. أنا أستعد للانصراف من محل أنحر فيه كل يوم ساعات بكاري من حياتي لعدد محدود من مومسات الريالات، وقلما أسمع حديثاً إلا عن البيع والشراء، عن الربح والخسارة، عن سوق تصعد وسوق تهبط. يقرع جرس التليفون فيطلبوني إليه. أهو أحد الزبائن يرغب في بضاعة أو يشكو بضاعة أو يعتذر عن عدم مقدرته على دفع ما عليه؟

"هو.. نعم. أنا هو. مرحباً. مرحباً.. ماذا تقول؟ جبران في المستشفى؟"

"في مستشفى القديس فنسنت. وهو في غيبوبة. والطبيب لا يقدر أنه يعيش حتى منتصف الليل. وليس حواليه أحد من رفاقه وخلانه. فرأيت من واجبي أن أخبرك لعلمي أنك أقرب الناس إليه".

"تاكسي! مستشفى القديس فنسنت – أسرع أيها السائق، أسرع!"

وكيف لهذا المسكين أن يسرع في شوارع مكتظة بالبشرية السرعة على أقدامها وعلى دواليبها؟ وإلى أين يسرع هؤلاء الناس؟ – كل إلى مستشفاه. ومستشفى الكل واحد.

ومن هو هذا القديس فنسنت وبماذا تقدس حتى يقدس؟ ليس بيني وبين مستشفاه غير ميل وأقل من ميل. لكنه أطول ما قطعته في حياتي من المسافات. جبران على فراش الموت. أأدركه حياً؟ أسرع أيها السائق، أسرع!

"أنا اليوم رجل صحيح يا ميشا"[1] هذه آخر كلمات سمعتها منه وقد خاطبته بالتليفون قبل ذاك بأيام مستفحصاً عن صحته. فتواعدنا أن نلتقي فنتعشى معاً في أحد المطاعم ونقضي السهرة عندي. وها أنا ذاهب لأتناول وإياه العشاء على مائدة الموت في مطعم القديس فنسنت!

"أنا اليوم رجل صحيح يا ميشا – أنا غريب في هذا العالم يا ميشا – أنا أحب هذا العالم يا ميشا". – الصحة والعلة. والموت والحياة. والوطن والغربة – ألا من يريني ما بينها من الفروق؟

أسرع أيها السائق، أسرع!

"في أية غرفة جبران خليل جبران؟"، سؤال أوجهه إلى رجل جالس إلى مكتب قريب من الباب داخل المستشفى؛ فيندفع يفحص تحت حرف "الجيم" في قوائمه المنظمة كأنه يفتش عن كلمة في قاموس غير مبال أن صوت الرجل الذي يخاطبه ويتهدج بصوت الموت.

"ليس عندنا عليل بهذا الاسم يا سيدي" وإذ أؤكد له أن عندهم عليلاً اسمه

---

[1] هو الاسم الذي كنت أعرف به عند أصحابي الأخصاء في نيويورك. وهو صيغة التصغير والتحبب بالروسية من اسم ميخائيل

جبران يحيلني إلى رجل آخر عند مدخل المستشفى من شارع آخر فأخرج من حيث دخلت وأسرع إلى المدخل الذي ردني إليه. وهناك أعرف أن جبران في غرفة كذا في الطبقة الثالثة من تلك البناية المتعددة الطبقات؛ فأصعد سلالم كثيرة، وأدور في منعرجات كثيرة، وأتفحص أبواباً كثيرة قبل أن أهتدي إلى الباب الذي أطلبه. ووراء كل باب أقترب منه جسد يتكوى بالأوجاع. وروح تحارب القدر. رباه. رباه. رباه! هو ذا جانب من خليقتك التي تطلب جابراً لما تكسر من عظامها. وراتقاً لما تفتق من جلودها. وجامعاً لما تفتت من أكبادها. فلا تحصل إلا على عقاقير ثم عقاقير. فأين دواؤك؟ أم هو الألم مصهر المحبة – محبتك التي لا توصف. وسبيل الخلاص – خلاصك الذي لا يثمن؟

راهبات يمررن بي وأمر بهن كأنهن خيالات من عالم لا أعرفه، وفي سواد أثوابهن ما يسود القلب. وممرضات يدخلن من باب ويخرجن من باب، وفي بياض البستهن ما يجرح العين.

"أين الغرفة كذا يا أختاه؟ – إلى اليمين – أشكرك"

أمام باب الغرفة رجل تحيط به نسوة ثلاث. وإذ أقترب تنفرد من الثلاث واحدة طويلة القامة، عظيمة الهيكل، زعفرانية اللون، حادة الأنف، غارقة العينين. فتخطو نحوي مادة يمناها إلي. هي شاعرة أمريكية في النصف الأول من عقدها السادس. عرفت جبران منذ سبع سنوات فتقربت منه وكانت تساعده في نسخ مؤلفاته. وقد التقيت بها مرة عنده.

وإذ أضع يدي في يدها تتنهد وتقول:

– أشكر الله. أشكر الله لأنك هنا

في قلبي وفي عيني وعلى وجهي سؤال واحد يتردد لساني في طرحه فتجيبني عليه هذه السيدة قبل أن تسمعه من فمي:

– لم يبق من أمل. لم يبق من أمل

– أخبريني ماذا جرى

– كنت البارحة عنده فوجدته يعاني آلاماً لم يعان مثلها من قبل. دعونا الطبيب وسألناه إذا كان من ضرورة لنقله إلى المستشفى في الحال. فأجاب أنه لا بأس لو بات ليلته في بيته. ولم أشأ أن أتركه وحده فقضيت الليل عنده. وفي الصباح – صباح اليوم الجمعة – اشتد عليه الوجع فجئنا به إلى هنا بين الساعة العاشرة والحادية عشرة.

– ولماذا لم تخبريني أمس، أو اليوم باكراً؟

– أمس كنا نظن أنه عارض ويزول. واليوم عندما جئنا به إلى هنا كنت أول من خطر ببالي، غير أني أجهل رقم تليفونك؛ فبقيت أفكر بواسطة أتوصل بها إليك إلى أن خطر لي – وكان ذلك إلهاماً ربانياً – أن أتلفن[٢] إلى إدارة مجلة "العالم السوري" لتطلعك على الأمر. وهكذا كان. والآن أشكر الله لأنك أتيت.

– كيف هو الآن؟

– غاب عن الوعي بعد الظهر بقليل ولا يزال في غيبوبة

– هل عرض عليه أحد أن يعترف ويتناول؟

– سألته الراهبة: "هل أنت كاثوليكي؟" فأجابها بنبرة قوية: "كلا!" فتركته وانصرفت. وبعد أن أنتقل إلى حالة الغيبوبة جاءه كاهن سوري – هو رجل قصير لعلك تعرفه – وأخذ يناديه بأعلى صوته: "جبران. جبران. جبران!" وجبران لا يعي. ولقد بلغ استيائي من ذلك الكاهن وخشونته حداً تمنيت معه لو كانت لي القوة الكافية لطرحه من النافذة.

---

[٢] يتحدث بالتليفون

– هل فعل الكاهن شيئاً؟

– هذا كل ما فعله

– وأين الطبيب؟

– ها هو

مشيرة إلى الرجل الواقف أمام الباب

– ما هي علته أيها الطبيب؟ أليس من أمل.. بالطب – بالجراحة؟

– سرطان في الكبد[٣]. لا أظنه يعيش حتى منتصف الليل. هو الآن في غيبوبة ولا أخاله يفيق منها.

كلمات تلفظ بها كأنه يحدث عن الطقس، ولا عجب فليست هذه أولى مقابلاته للموت. ترى أيقابل موته بالبرودة عينها التي يقابل بها موت سواه؟

الطب. الطب. الطب! إله العلم المتوجع ووجعه الأكبر

– أتسمح لي بالدخول على المريض أيها الطبيب؟

– لا مانع على الإطلاق

غر – غر.. غر – غر.. عند – ن..

صوت غريب يفاجئ أذني حالما أفتح الباب وأغلقه بهدوء ورهبة، فأشعر عندما أجتاز عتبته كأني قد اجتزت من عالم لا سر فيه إلى عالم كله أسرار. وأنسى أن هذا العالم في ذاك. وذاك في هذا. وأن لا أبواب بين الاثنين ولا عتبات سوى الأبواب والعتبات التي يقيمها جهلي، وتبصرها عيني الكليلة من خلال أغشية الحواس المحدودة.

---

[٣] لقد أثبت الكشف الطبي بعد الوفاة تحجراً في الكبد مع بداية سل في إحدى الرئتين

أدنو من السرير الأبيض الصغير القائم خلف الباب فلا أبصر لأول وهلة معاون الطبيب الواقف عند رأسه، إذ تتسمر عيناي بوجه عرفناه من زمان فأحبتاه، والآن لا تكادان تعرفانه. فقد كان بلون الرمل يسقيه دم الحياة، فأصبح رملاً يعلوه رماد المنية.

ها هو ذا الأنف المستقيم الأرنبة، الممتلئ المنخرين، قد انتصب نحو السقف الباهت القاسي، وليس فيه من الدم إلا بقية ضئيلة تنهزم لحظة فلحظة من وجه عساكر الانحلال؛ فهو يكاد يتنفس كأن به زكاماً من أنفاس الأرض والسماء. وكأن الطبيب الأكبر – الموت – يداويه بنفخات من سماء غير سمائنا وأرض غير أرضنا.

ها هما ذات العينان اللتان كانتا تبوحان بأسرارهما؛ فكم رأيت فيهما من بريق إلهام ومن حرقة شوق ومن نور بهجة. كم رأيتهما تغتسلان بالدمع، وتلتهبان بالضحك، وتتغلغلان في وجوه الناس والطبيعة لتستجليا معانيها. وأحياناً تذبلان وتذهلان عن كل ما حوليهما كأنهما تتطلعان إلى ما وراء الستار أو تداعبان طيوف أفكار وعواطف لا تجول في أزقة الناس ومساكنهم ومعابدهم. والآن لست أرى فيهما لا رعشة ولا ومضة؛ فهما مطبقتان تحت حاجبيهما المقوسين وقد أسدلتا أهدابهما الطويلة حتى الوجنتين فلا تبوحان بما أغلقنا عليه من أسرار. وقد يكون خلف أجفانهما وميض بروق كثيرة. فمن يدري ما في غيبوبة الموت من ظلمات وأنوار؟

ها هما ذات الشفتان الحساستان وقد كانتا بلون القرمز فأصبحتا بلون الرماد. كم انفرجتا من قبل عن بسمة، وكم تكمشتا بألم. كم قبلتهما أم وأخت وحبيبة، وكم من الشفاه تشتاقهما حتى الساعة! وتلك الشفة العليا كم ارتجفت بغضب شديد أو بفرح قوي أو بحزن عميق. أما الآن فها هي ذي قد التصقت بأختها السفلى في خط كأنه خاتم الحكمة الصامتة أو الحد الفاصل بين ما يمكن وبين ما لا يمكن التلفظ به. ولا تنفصل عن أختها إلا لتفتح الباب لأنه هي أشبه بزفرة مذبوح منها بأنة مريض.

ها هي ذي الجبهة العالية التي تقهقر عنها الشعر فزادها ارتفاعاً، وابيّض عن

جانبيها فزادها جمالاً، وجعدتها السنون تجاعيد لطيفة فأكسبتها جلالاً. هي الجبهة التي كنت إذا نظرت إليها أكاد ألمس وأبصر ما خلفها من الأشباح والرسوم والمقاصد والمتاعب. أما الآن فهي أبعد من مجال بصري ولمسي.

وها هو ذا الشعر الكستنائي، وقد عبث المشط بنصفه، وبيض الشيب نصف ما تبقى منه، يغطي الآن جانباً من الوسادة وكأنه، بعد أن هربت منه الحياة، خصل من صوف لا لمعان فيها ولا تجاذب.

"بلى" – تقول لي عيناي – "بلى. هذا هو رفيق أحلامك. وصديق أفكارك. وشقيق روحك. هذا جبران. وهو الآن يحتضر. فاعلم أنك في حضرة الموت".

"جبران!" – يناديه قلبي وتناديه كل جوارحي. أما لساني فلا يتحرك وشفتاي لا تتفتحان. لأنني عندما أحدق في وجهه، وقد أمسكت بعضلاته أصابع الألم القاسية، وعندما أسمع تلك الغرغرة الهائلة في حلقه، والزفرات المتقطعة الهاربة من صدره، أقول في نفسي: "لعله إن أنا ناديته يسمعني فيتألم إذ لا مقدرة له على الجواب". ثم أقول: "لعله يبصرني". وأسمع في داخلي صوتاً يقول: "بل هو يبصرك"؛ فأرتاح هنيهة إلى هذا الصوت، وأهبط إلى كرسي بجانب السرير فأصغي طويلاً إلى غرغرة تلك النارجيلة الجهنمية في حلق أخي وإلى الزفرات التي تولدها، فأهم أن أصيح به: "ألا اتفلها من فمك... ألا تقيأها". جاهلاً أنه ساعة يتفلها يتفل معها آخر أنحابه. وبعد أن أستسلم إلى القدر النافذ أمام عيني أغرق في بحر من التأمل هو ملجأي في كل شدة. وأشعر كأن جبران يحدثني وكأني أحدثه. وكم تحدثنا قبل ذلك بالصمت! فأطمئن بعض الاطمئنان لاعتقادي أنه شاعر بوجودي معه، عارف أنه ليس وحده وأن قلب صديق يشيعه في عبوره من هذا الشاطئ إلى ذاك.

أدير طرفي في الغرفة فأتناول كل ما فيها. عرضها ثلاث أذرع، وطولها ستة، وعلوها أربعة. في جدارها المقابل للباب نافذة تطل على الشارع. وفي النافذة طاقة من الأزهار الذاوية. إلى جانب النافذة خزانة صغيرة للثياب وبجانبها طاولة صغيرة

بيضاء عليها عقاقير وطلاسم طبية. ووراء الطاولة السرير، وعند رأس السرير معاون الطبيب بسترته البيضاء وقد أخذ بذراع المريض يجس نبضها بين الفينة والفينة ويحقنها بمخدرات أو منبهات هو أدرى بها.

– هل هو يشعر بألم يا حضرة المعاون؟

– ولا بشيء

– كم تدوم هذه المعركة؟

– لقد قاربت النهاية

وينتهي حديثي مع المعاون؛ فأعود إلى حديثي مع جبران، ومع الموت، ومع نفسي؛ فأقول لجبران:

– ما الذي تزودته يا أخي لرحلتك هذه؟

فيجيبني جبران:

– غر – غر.. غر– غر.. عن – ن

وأقول للموت:

– ماذا أنت فاعل بأخي يا موت؟

فيجيبني الموت:

– غر – غر.. غر – غر.. عن – ن

وأقول لنفسي:

– ماذا تبصرين يا نفسي وماذا تسمعين؟

فتجيبني نفسي:

– غر – غر.. غر – غر.. عن – ن

ويصعد قلبي إلى أذني فيقرعهما قرعاً عنيفاً. وإذ أسأله عن قصد يجيبني: "غر – غر.." فتدلهم آفاق فكري وتضيق. ولكنها لا تلبث أن تتسع وتلتهب بوابل من شهب الذكريات وبلعلعة بروق كثيرة من الخيالات الدفينة في أعماق الروح. وكلها لا ينقاد إلى نظام، ولا يتقيد بزمان. فقد تشتعل الذكرى الواحدة وتنطفئ مرات متوالية، حين أن أختاً لها لا تنير إلا مرة واحدة. وقد تلمع ذكرى قديمة قبل ذكرى حديثة. ويبرق خيال هرم بنور أسطع من نور خيال لما يزل فتياً. وعلى أنوار هذه الذكريات والخيالات تبدو لعيني حياة المحتضر أمامي صفحات مبعثرة. لكنها مخطوطة بقلم واحد، ومداد واحد، ويد واحدة. واليد التي خطتها تعرف أن ليس فيها صفحة زائدة أو حرف مهمل. ولأني أعرف ذلك أحاول أن أفهم الصلة بين هذا السطر وذاك، وتلك الكلمة وهذه: بين بشرى ونيويورك. فم الميزان ومستشفى القديس فنسنت. جبران خليل جبران والنسوة الواقفات خارجاً. وبين كل من عرفهم وعرفوه من رجال ونساء وأطفال. والذين قرءوك ويقرءون في هذه اللحظة مؤلفاته، أو تأملوا ويتأملون الآن رسومه. والذين أسعدهم بحياته وأشقاهم، أو أسعدوه وأشقوه. وبينه وبيني – لماذا تلاقينا وتآخينا في لحظة من الزمن لا في سواها، وفي فسحة من المكان لا في غيرها. ولماذا كتب له أن يموت بين يدي، ولي أن أشيعه من هذه الديار؟ فهل تراه يستقبلني في تلك؟ أو تراه يدرك ما هو فيه الآن؟ كم تحدثنا عن الموت فرأيناه ولادة أخرى. وكم دعوناه والحياة توأمين. أتراه يقول الآن ما كان يقوله أمس؟ وإن كان لا يفكر الآن لا بالأرض ولا بالسماء ولا بالموت ولا بالحياة، فبماذا يفكر؟ أم ترى غيبوبة الاحتضار أعمق من الفكر والحلم والخيال. فقد تكون انعتاقاً قصيراً من الحس بالوجود إلى الوجود الذي لا حس فيه. أو تمهيداً إلى الانعتاق الأبدي من الوجود الأدنى للحظوة بالوجود الأسمى – باللاوجود.

لا أكاد أفلت بخيالي من عالم الحس حتى تجذبني حشرجة الموت إليه؛ فتتدفق علي من النافذة أمواج حياة المدينة – أصواتها المبلبلة، شهواتها الملتهبة، مطامعها المناسبة كالأفاعي، أفراحها الطاعنة وأوجاعها المقيمة. وتنسكب كلها في مقطعين

صغيرين: "غر – غر.." ثم تنفرج جدران الغرفة وتتراجع إلى وراء الأفق. ويتقلص سقفها كما لو كان سحابة من دخان، فأدخل بيوت النائمين، ومعابد المصلين، ومخازن المتاجرين. وأطل على مخادع الحاملات، ومضاجع العرائس، وأسرة المحتضرين، وعروش الملوك، وكهوف المتنسكين. وأمشي مع الأسرى والمعتقلين، وأجلس مع القضاة والمجرمين. أطوف الأرض كلها وأصيخ إلى أصواتها، وأجوب الفضاء وما فيه من عوالم محسوسة فأعود منها كلها بنغمة واحدة – "غر – غر.." وتستقر هذه النغمة في أعماق كياني كأنها كانت هناك منذ الأزل. فأستغرب كيف لم أسمعها من قبل. ويخيل إلي أنها نغمة الحياة المثلى ولغتها الوحيدة. وأن كل ما تدور به النجوم، وتتلظى به الشموس، وتتغنى به الأرض، ويتلفظ به الناس معناه "غر – غر.. " وأن الـ "وع وع" التي يقذفها صدر الطفل عندما يطل على عالمنا هذا هي عين الـ "غر – غر.. " التي تنسل من صدر المحتضر عندما يشرف على عالم غير هذا العالم.

خيالات بشرى

"وع! وع"

الصوت خارج من ذات الحنجرة التي تخنقها الآن أمامي غرغرة ولادة أخرى. غير أن القابلة التي تسمع ذاك الصوت لا تسمع فيه هذه الغرغرة فيبرق وجهها عندما تلتفت إلى الوالدة الملقاة على فراش المخاض وتقول لها بصوت متهلل:

– صبي، صبي! الحمد لله على خلاصك بخير يا روحي

وكما تنشب أشعة القمر الناعمة في الغيوم وتنشب ابتسامة هادئة في تجاعيد الوجع الذي يقنع وجه الوالدة؛ فتجيب القابلة بصوت لا يكاد يسمع: "الله يشكر حمدك يا أختي" وبطرفة عين يمتلئ ذلك البيت الصغير بكلمة واحدة ترفرف في كل جوانبه كأنها عصفورة افتلتت من قفص، فهي على ألسنة القريبات والجارات الجالسات حول الموقد بالقرب من فراش الوالدة. وهي في الجدران العمياء من كل بصر إلا القبر وهي في الريح الصرصر خارجاً – ريح ديسمبر – تذر قلبه الأبيض على أعماق وادي قاديشا، وعلى ذوائب بنات أرز سليمان وحفيداتها، وعلى رأس فم الميزاب – "صبي! صبي!" وتهنئ النسوة الوالدة وبعضهن بعضاً كأن المولود مولود كل واحدة منهن:

– مبارك ما جانا، مبارك ما جانا!

بين وعوعة الطفل، وتنهدات الوالدة، وتمتمة القابلة، ولغط الجارات القريبات ينفتح الباب فتندلق من الخارج موجة من أنفاس ديسمبر الباردة، ويبقى الباب مفتوحاً وفيه رجل ربع القامة، أشقر البشرة، أزرق العينين، كستنائي الشاربين، حسن تقاطيع الوجه، قوي العضل، دون الأربعين بقليل، فتصيح به القابلة:

– قبرتك أمك. أغلق الباب. فأنت تكاد تميتنا وتميت الصبي برداً.

عندئذ يغلق الرجل الباب بعنف وبوثبة أو وثبتين يدرك فراش الوالدة فيقف هنيهة بجانبه حابساً أنفاسه. وفجأة تشرق أسرته فيمسد شاربيه ويهتف:

– صبي! صبي!

فتجيبه القابلة بين المزح والجد:

– يا لضياعه فيك!

– لا يا أم حنا. لا! خليل جبران يستاهل أكثر من ذلك. صحيح أني سكران لكن خوف الله بقلبي. كاملة! – مخاطباً زوجته الملقاة على الفراش – كاملة! والله لأغسلن رجليك وأشرب ماءهما. مبارك ما جانا. أتعرفين ماذا سنسميه؟ جبران – جد العائلة – أرخي يا امرأة أرخي. كم. اليوم من الشهر؟ ستة؟ أرخي – ولد جبران خليل جبران ليلة السادس من ديسمبر سنة ١٨٨٣ في قصبة بشرى من أعمال لبنان.

تتململ الوالدة في فراشها وتبتل حدقتاها الواسعتان الوديعتان بدمعتين تجمدان عند أطراف الأهداب. وتطفو على وجهها الأسمر النحيل سحابة من الكآبة تغطي ما لمع فيه من أشعة البهجة قبل ذلك بقليل.

– كاملة. كاملة! يا للعيب! أنت تبكين؟ إذا لم أسكر في مثل هذه الليلة: فمتى؟

فقالت القابلة:

– هنيئاً لمن رآك صاحياً ولو مرة واحدة

– أم حنا، أم حنا، الزمي حدودك. مهنتك سحب الأطفال من بطون الأمهات، لا سحب الرجال من بطون الأدنان. كاملة، كاملة! يا للعيب! مليح. مليح. تركنا الكأس. وحياة جبران وبشرف هذين الشاربين.

ويمسك خليل جبران بشاربه الأيمن وبلمح الطرف يقفز إلى خزانة صغيرة في زاوية البيت فيتناول منها كمية من الزبيب والجوز واللوز ويأخذ يفرقها على النسوة اللواتي في البيت:

– كلوا، كلوا، هذه "حلوينة" جبران

النسوة يأخذن ويأكلن ويدفعن ثمن ما يأكلنه طلبات من أجل الوالدة والمولود:

– إن شاء الله يكون من أولاد السلامة. الحمد لله على خلاصك بخير.

وبعد قليل يشعلن مصابيحهن وينطلقن في دجنة ديسمبر كل واحدة إلى بيتها. ما خلا القابلة التي لا تترك الوالدة ولا الطفل.

ومع النسوة العائدات إلى بيوتهن، وعلى أنوار مصابيحهن تدرج في الأرض حياة لا يعرفن من أسرارها سوى أنها صبي ولا يسمعن من أصواتها إلا "وع. وع"

تنام الوالدة ليلتها وبجانبها كتلة اللحم والدم التي انحدرت عنها والتي تدعوها ابنها ولا تعرف من شأنها أكثر مما يعرف ميزاب العين من شأن المياه المنحدرة عنه – من أين جاءت، وإلى أين تمضي، وما غايتها من الأرض وغاية الأرض منها.

وما كان لكاملة جبران أن تبصر الصلة التي بين فراشها في بشرى وبين السرير الأبيض الصغير في مستشفى القديس فنسنت في نيويورك، لو كان لها أن ترى قطرات الحياة التي انبثقت من رحمها تلك الليلة تغور بعد ثمان وأربعين سنة في رحم الزمان، وفي بلاد قصية، لتحولت بهجتها إلى رعشة ولعادت إلى قلبها ومفاصلها آلام المخاض دون آماله. ولو كان لها أن تلمس أسلاك الروح الخفية التي تربط طفلها برجال ونساء وأطفال كثيرين في العالم، وبأرواح ما برحت خلف الستار تعد لها الأقدار معداتها لتبرزها إلى مسرح هذا الوجود – ومنها روح كانت هذه السطور – لو كان لكاملة جبران أن تلمس تلك الأسلاك لتكهربت من شدة الدهشة ووقفت أنباضها.

غير أن الحياة التي هي أم كل أم تشفق على بناتها وأبنائها، فلا تضع في حدقتي مخلوق من نورها أكثر مما يحتاج إليه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه. ولا تودع ساقية من قوتها أكثر مما يلزمه لقطع المسافة التي تخطها له.

لا يطلع الفجر في بشرى حتى يكون الخير قد تمشى من باب إلى باب بأن كاملة ابنة الخوري اسطفان رحمة وزوجة خليل جبران قد وضعت صبياً. فتعيد جارة بيت جبران على زوجها ما قالته له الليلة السابقة، ولا فاصل بينهما وبين جيرانهما سوى جدار مشترك بين البيتين:

– صدقني، كاملة تستحق. لماذا الجدال، امرأة عندها من الآدمية ما يفيض عنها. ليس أرجح من عقلها، ولا أحسن من طباعها، ولا أدفأ من لسانها. تمشي فلا تحس بها الأرض. لكن ربنا – سبحانه في ملكه – لم يوفقها بالرجال. تزوجت حنا عبد السلام رحمة، وكان رجلاً طيباً، فأخذها إلى البرازيل ومات هناك بعد أن وضعت له بطرس. والآن أخذت هذا السكير – خليل جبران – أتراها تقبره كذلك بعد أن جاءته بهذا الصبي؟ يا لضياعها معه. خنصرها يسواه.

– لماذا لا تقولين يا لضياعه معها؟ أخذها أرملة وعندها صبي.

– وإن تكن أرملة – أليست بعد في مقتبل العمر؟ فهي لا تزيد على الخمس والعشرين

– بل تخجلين أن تقولي الخمس والثلاثين. إن تكن هي صبية فهو ليس عجوزاً

– عجوزاً وزيادة. عنده أربعون فما فوق

– ولا رأى الست والثلاثين. مع ذلك أخبريني بماذا هي أحسن منه؟ بسبحتها؟ أم بوجهها الأسمر الهزيل؟ إن طلبته للرجولة فقليل هم الذين يرفعون أثقالاً كالتي يرفعها. وإن طلبته للكلام فلست أعرف كثيرين يفوقونه بذلاقة اللسان. وإن طلبته

للصورة فكم تعرفين في بشرى من هم أحسن منه صورة؟ وإن طلبته للبسط والعشرة فليس أطيب من عشرته وأقرب من بسطه.

– من حيث البسط – الحق معك. متى حضر القدح فلتخرب الدنيا. ألا دعني منك ومنه ومن كل الرجال الذين على شاكلته.

يفيق بيت خليل جبران على وعوعة المولود الجديد. فينهض في فراشه في الزاوية صبي في السادسة من سنيه. وللحال يتلقفه خليل بين ذراعيه ويقبل وجنتيه المتوردتين وعينيه الواسعتين الناعستين ثم يضعه من يديه ضاحكاً وقائلاً:

– بطرس! أعرفت أن أمك جاءتك بأخ؟ أتحب أن تراه؟ تقدم يا روحي تقدم

فيدنو بطرس من فراش أمه بخطوات مترددة، وقلب خافق، ووجه يحاول أن يخفي الفرح الطافح عليه. ويجثو بقرب الفراش فوق أمه التي تمد يدها إلى شعره الحريري وتحني إليها رأسه الجميل وترسم قبلة حنوناً على جبينه النير وتقول له بصوت هادئ كله محبة:

– ماذا تريد أن تسمي أخاك؟

– عنتر!

فتضحك الوالدة ويقهقه الوالد قهقهة يسمعها الجيران، ويأخذ وجه بطرس بين يديه ويضغط على خديه:

– جبران اسمه، جبران – جد العائلة – جبران أحسن من عنتر.

في تلك الساعة ينتصف الليل في مدينة تدعى كولومبيا من ولاية سوث كارولينا، من أعمال الولايات المتحدة، فتجلس في سريرها فتاة أمريكية اسمها ماري، لها من العمر عشرة سنوات، وتفرك عينيها بشدة كأنها تحاول أن ترى في ظلمة اليقظة، ما رأته في نور المنام.

فقد حلمت أنها ذاهبة إلى المدرسة وأن كلاباً كثيرة انبرت من جانبي الطريق تنبح عليها وتكشر عن أنيابها. فأخذت تستغيث برفيقاتها، ورفيقاتها يقهقهن ساخرات بها وقائلات: "افتحي فمك الجميل يا ماري تهرب الكلاب!" فأجهشت بالبكاء وطفقت تعدو بكل ما في رجليها الصغيرتين من السرعة إلى أن دخلت غابة من الأدغال الشائكة. فوقفت هناك لتستعيد أنفاسها، وإذ بها وحدها ولا كلاب ولا رفيقات ولا طريق. فامتلك عليها الجزع كل حواسها وما درت إلا وهي على ركبتيها تصلي.

وبينما هي تصلي شعرت بقوة تجذبها إلى الأمام حتى كادت تهمى على وجهها. فالتفتت وإذا بخيط من الحرير الأبيض قد شد على وسطها ظنته لأول وهلة خيط عنكبوت. وإذ حاولت أن تقطعه وجدته أمتن من حبل قنب، ورأت أنه يمتد في الغابة كأنه شعاع من نور في ظلمة. فنسيت في الحال كل ما بها من جزع وراحت تلملم الخيط وتتبعه لافة إياه على يدها، وقد أصبح شاغلها الأكبر أن تصل إلى طرفه الآخر لتعرف بماذا شد، ويد من تشدها به. وما فتئت تمشي مع الخيط إلى أن بلغت شاطئ بحر عجاج. فالتفتت وإذا بالخيط يمتد فوق الأمواج إلى ما وراء الأفق. عندئذ جلست على الرمل تفكر في بهلوان رأته يوماً في ملعب يمشي على سلك واحد وتقول في نفسها: "ليتني بهلوانة" وظل هذا الفكر يساورها إلى أن نهضت وبعزمها أن تفعل كالبهلوان، فما وضعت رجلها على الخيط حتى أفاقت من نومها وقلبها الصغير ينبض كقلب خشف يطارده ذئب. فأخذت تتلمس وسطها ويديها علها تجد أثراً للخيط. وإذ لم تقع له على أثر عادت فغرقت في فراشها، وشدت اللحاف إلى فوق رأسها، وانغمست في نوم عميق.

كانت ليلة الخميس من سبة الآلام. وكانت كاملة جبران جالسة على حصير في بيتها، وعلى صدرها طفلتها سلطانة، وعمرها سنة، وإلى جانبها ماريانا، التي سبقت أختها سلطانة إلى هذا العالم بسنتين، وقد ألقت برأسها على فخذ أمها ونامت

نوماً هنيئاً، وأمام الأم بكرها من زوجها الثاني وهو شاخص إليها ومصغ إلى كلامها بكل ما في سنيه الخمس وأشهره الأربعة من الشوق إلى استماع الحكايات.

في تلك الليلة نام جبران وخلف أجفانه تتسابق خيالات غريبة: أكمة عليها صليب، وعلى الصليب رجل بلحية شقراء وشعر أشقر مسترسل وقد سمر بيديه ورجليه. ولا ذنب له إلا أنه نزل من السماء ليجعل الناس كلهم صالحين ومن حواليه جماهير يبدون تارة أقزاماً بلا شعور، وطوراً عمالقة بلحى سوداء تكاد تلمس الأرض. وفي أيديهم حراب يطعنون بها الذي على الصليب باصقين في وجهه ومتهكمين عليه واسمهم اليهود. وفي "السماء" كرسي كبير مرتكز على أربعة نجوم، وعلى الكرسي "الرب" وقد تدلت لحيته العظيمة البيضاء إلى الأرض وهو يقول: "هذا هو ابني الوحيد". ثم ينفخ في نار ليصبها من فوق على رؤوس اليهود. وعند أسفل الصليب امرأة اسمها العذراء تنتحب وتصيح – يا ابني! يا ولدي!

أفاق جبران مع فجر الجمعة "الحزينة" فرأى في الباب أخاه بطرس وزمرة من رفاقه، وكلهم حفاة وعلى أهبة الخروج من البيت. وإذ سأل أخاه إلى أين؟ أجابه بأنهم صاعدون إلى الجبل "ليتعذبوا" مع المسيح ويأتوا بأزهار يضعونها على محمله في حفلة جنازة في الكنيسة. فتوسل إليه أن يأخذه معه. ومال بطرس إلى ذلك لأنه كان يحب أخاه من أمه محبة جمة، لكن رفاقه شدوه من كمه وخرجوا به في الحال قائلين أن لا وقت لهم "لمداداة" الأطفال وتمسيح دموعهم.

بكى جبران وانتحب طويلاً، ولم تستطع أمه أن تغريه لا بالزبيب ولا بالوعود. ولم يزده ضرب أبيه، الذي كان يدخن سيجارته ويمتص قهوته المرة، والخصام الذي أدى إليه الضرب بين والديه، إلا عويلاً ودموعاً. فما كان من أبيه إلا أن دفعه إلى خارج البيت وأغلق الباب قائلاً:

– حرمتني لذة قهوتي وسيجارتي، انقذف من وجهي

مضى الظهر، وحان وقت الجنازة، وجبران لم يرجع؛ فقالت أمه لعله ذهب مع بعض أبناء الجيران إلى الكنيسة. وانطلقت مع زوجها وجاراتها وجيرانها إلى الكنيسة. فرأت هناك بطرس ورفاقه وقد جاءوا بالكثير من الأزهار. أما جبران فلم تر له أثراً. وانتهت الحفلة فسألت بطرس عن أخيه فأجابها أنه لم يره كل ذلك النهار. فقالت لعله عاد إلى البيت. لكنها عندما رجعت إلى البيت لم تجده هناك. فاضطربت أفكارها وانهالت على زوجها توبخه وتلقي المسئولية عليه إذا – لا سمح الله – حل بابنهما سوء. وأخيراً أخذت بطرس وبعض رفاقه وراحت تفتش معهم عن جبران. فوجدوه قبيل الغروب في المقبرة خلف الكنيسة وفي يده طاقة صغيرة من "بخور مريم"، وعندما أقبلت عليه لتؤنبه على فعلته تحول غضبها إلى حنان ومحبة بعد أن سمعت من فمه كيف أنه ذهب إلى البرية وحده "ليتعذب" مع المسيح. وكيف جاء بأزهار ليضعها على محمله في الكنيسة فوجد الكنيسة مقفلة. وعندئذ قصد المقبرة ليفتش ما بين القبور عن قبر المسيح فيضع أزهاره عليه.

ذات يوم عاد جبران من مدرسة القرية دامي الفم، مهشم الأذنين، ممزق القمباز. وعندما استنطقته أمه عن السبب أجابها، والدموع في عينيه، بأن أحد رفاقه دعاه "سهيان وبكاء"، فلم يقبل الإهانة وردها بلكمة. غير أن رفيقه كان أقوى منه، لأنه أكبر منه سناً، فرد له اللكمة لكمات. ولو لم يكن أكبر منه لكان "قبره" ولكنه سيكبر ويقبره بعد. فألقت عليه أمه موعظة في حسن السلوك وتجنب الشر، أما أبوه فدعاه جباناً وزاد في لكماته لكمتين!

وفي يوم آخر عاد بطرس من المدرسة إلى البيت عند الظهر، وخلافاً لعادته، لم يكن معه أخوه جبران. وإذ سألته أمه عن السبب أخبرها بأن الخوري "زرب" أخاه لأمرين: أولاً لأنه لم يحسن قراءة مثالته السريانية، وثانياً لأن الخوري فرض عليه كتابة المقالة عشر مرات.

وعندما جاء يفحص دفتره وجد أنه بدلاً من كتابة المثالة قد صور في الدفتر شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء، وفي إحدى أذنيه قد علق كتاب وفي الأخرى مخلاة.

وكان قبل ذلك بأيام قد دخل أبو جبران البيت فوجد ابنه وفي يده فحمة يرسم بها على الحائط أشكالاً لم يفهم الوالد لها معنى – كأنها بيت وليست بيتاً، وكأن أمام البيت فتاة كئيبة وليست فتاة كئيبة. فضربه وعنفه قائلاً: أن خيراً له أن يدرس مثالته السريانية من أن يسود الحائط. لذلك عندما سمع بما فعله به معلمه الخوري قال من كل قلبه: "بيستاهل".

كان جبران يلعب خلف البيت عندما رأى رجلاً غريباً يسوق بغلاً عليه قربتان وينادي "الزيت الحلو" فأطالت من باب بيتها عجوز في يدها سبحة طويلة وسألت الرجل أن يذيقها زيته ففعل. وبعد جدال عنيف اتفقت وإياه على السعر ثم دخلت البيت وعادت بزجاجة فارغة وقالت لبائع الزيت أن يكيل لها ثلاث أواق فكالها، وقبل أن يفرغها في الزجاجة سألته العجوز عن دينه فأجابها إنه روم؛ فأدارت في الحال ظهرها عنه وعادت بزجاجتها الفارغة إلى بيتها وأقفلت الباب وراءها بعنف وهي ترسم علامة الصليب وتتمتم بكلمات مبهمة..

بعد قليل كان جبران بجانب أمه يسألها:

– ما هو ديننا يا أمي؟

– نحن موارنة يا ابني

– ومن هم الروم؟

– هم نصارى مثلنا

– ولماذا اسمهم روم واسمنا موارنة؟

– عليك أن تسأل الخوري يا ابني فهو ينبئك أحسن مني

– هل يخنقنا الرب إذا اشترينا زيتاً من رجل روم؟

– كلا يا ابني

وما أن أتم الوالد أسئلته حتى دخل أبوه البيت ونادى بزوجته أن تأتيه بزجاجة فارغة ليبتاع زيتاً. فأطل جبران من الباب ورأى بائع الزيت الذي التقاه سابقاً. ورأى أباه يأخذ منه زيتاً وينقده الثمن ويلح عليه يتناول العشاء معهم وتمضية الليلة عندهم. فكاد يرقص فرحاً. ولكنه بكى عندما انصرف الزيات في سبيله شاكراً لأبيه لطفه وكرمه.

– نويت السفر في الغد من غير شر؟

– نويت

– ودبرت فرساً؟

– دبرت اثنين

– ولمن الثاني؟

– لجبران

– لجبران؟ لقد فقدت عقلك إذا كنت لا تمزح

– لا، لست أمزح

– وكيف لولد عمره إحدى عشرة سنة أن يتجول في وعور هذه الجبال على ظهر فرس وأن ينام في خيام البدر وبين الماعز والأغنام ومع القمل والبراغيث؟ أم أنت تريد أن تدربه منذ الآن في الطريق التي سلكتها بالتزام عد الأغنام والماعز، وتظلم أصحابها ورعاتها، ليشبع سنه ويجوع اثنتين، ويقضي حياته فقيراً كما نحن فقراء؟

– بل أريد أن أعلمه منذ الآن أن قرصة البرغوث والقملة لدغدغة لطيفة بالنسبة لقرصان لسان أمه. وأن بعر الماعز والغنم لأطهر من جواهر الناس. وخيمة

البدوي لأشرف من قصورها. وبعد ذلك، إن كنت تعرفين أنه طريقاً أكثر كسباً وسهولة من طريق أبيه فدليه عليها.

وأدى الجدال إلى خصام بين الوالدين اشترك فيه الأولاد. فأخذ بطرس جانب أمه والابنتان الصغيرتان جانب والدهما. وبقي جبران على الحياد لأنه كان يحب أمه حتى العبادة، ولم يشأ أن يغيظ أباه خوفاً من أن يحرم السفر معه في الغد. وانتهى الأمر بأن العشاء الذي كانوا قد جلسوا يتناولونه على صينية مستديرة محوكة من قش الحنطة ظل كما كان. فعاد الخبز إلى "المعجن" والطبخ إلى القدر. وبرزت الفية العرق من مخدعها فنقل أبو جبران بعض ما في جوفها إلى جوفه – ولم يسافر في الغد.

عاد بطرس إلى البيت عصر ذات يوم فوجد أمه وحدها ودموعها تترقرق على خديها، وقبل أن يفوه بكلمة بادرته بقولها:

– لا تخف يا ابني، لا تخف. هو القلب يضيق به الصدر في بعض الأحايين فيهرب من العينين. ومتى كان الصدر صدر أم؛ فيا ويل قلبها، ويا ويل عينيها! أنت مصر على السفر إلى أمريكا منذ سنين، وأنا وقفت في سبيلك حتى الآن. أما اليوم فقد فكرت طويلاً وصليت لربي طويلاً. وعرفت أنك مصيب في عزمك. فلا حياة ولا مستقبل لك هنا. وها أنت ذا بلغت سن الرشد. فأنا أقول لك "بحفظ الله". إنما ستطأ رجلي ظهر الباخرة قبل رجلك. وسيكون أخوك جبران وأختاك ماريانا وسلطانة معنا. أما هو فسيبقى هنا. وسنفعل كل ما في طاقتنا لنجعل حياته هنيئة وسهلة. فهو – كما تعرف – تهمه سيجارته وقهوته وكأسه أكثر من كل شيء.

– إذا وفقني الرب يا أمي فسيجارته لن تنطفئ وقهوته لن تنقطع وقدحه لن يفرغ. فأنا أحبه بالرغم من كل ما سببه لك من ألم. وسينال جبران قسطه من العلم. ومثله ماريانا وسلطانة. وستكونين أنت معززة مكرمة. وسندفن الفقر بإذن الله.

– وفقك الله يا ابني. وفقنا الله جميعنا. إن قلبي يتفتت عليه. فهو سيقى هنا كوند ولا أطناب مشدودة به. ولكن ما العمل؟ ما الحيلة وقد هرب مني الصبر؟ إنني

أخشى هذه السفرة يا بطرس. من يدري متى نعود؟ وقد لا نعود إلى بلادنا. داخل البحر مفقود، والخارج منه مولود. لقد اتكلت على الله يا ابني. فاتكل عليه معي.

– لا تخافي يا أمي؛ ففي بوسطن حيث نحن ذاهبون عدد غير قليل من أبناء بشرى. نحن نعرفهم وهم يعرفوننا. وسيسهلون لنا السبيل في بادئ الأمر.

وجف دمع الوالدة وتوشح وجهها النحيل بسحابة من آلام ما كان ومخاوف ما سيكون. أما بطرس فمشت في عروقه عزيمة سنية الثماني عشرة. وتفشت في وجهه الناعم حمرة الشباب العذر. واتقدت عيناه الواسعتان بنور الأمل المكمم. وراقه أن أصبح في عين أمه رجلاً تلقي عليه مسئولية الرجال. ولم يخطر له ولا لأمه ببال أنهما، حتى ولو شاءا لما تمكنا من أن يحيدا عن الخطة التي رسماها قيد شعرة. وإن ما ندعوه "قضاء" ليس إلا ما نقضيه على أنفسنا، كل حسب أعماله في هذه الحياة وما سبقها. وأنهما فيما اختطاه لنفسيهما كانا يتممان مشيئات عديدة غير مشيئتيهما، وكلها مقنع ومكتوم. ومنها مشيئة الحياة التي لم يبصرا منها حتى ذلك الحين إلا اثنتي عشرة سنة برموزها المبهمة، وأنوارها المتحجبة، وظلالها المتنقلة – وهي حياة جبران.

خيالات بوسطن

لبوسطن "روح" تمتاز بها عن كل مدن الولايات المتحدة. فهي إذا نسبت إلى بعض مدن العالم القديمة، مثل دمشق وأورشليم ورومة، كانت طفلة بنت يوم، بل بنت ساعة. غير أنها بين مدن الولايات المتحدة من أقدمها، وهي تباهي كل المباهاة بقدمها. حتى إذا عيرها أحد بأزقتها الضيقة الملتوية دلته في الحال على ما فيها من آثار تاريخية تعود إلى الثورة وما قبلها وبعدها، وإذا نافستها مدينة جديدة بعدد سكانها أشارت إلى عدد كبير من أبنائها الذين كان لهم أبعد أثر في تحرير البلاد، وتوجيه سياستها وتدريب حياتها الداخلية والخارجية. وهي تفاخر بلقبها "مدينة العلم"؛ ففيها من المعاهد العلمية والفنية ما ليس في سواها. وقد أنجبت نفراً من خيرة الكتاب والشعراء والفلاسفة في أمريكا. وهي ضنينة بسمعتها، شديدة الحرص علي ثقافتها، وقد بلغ بها حرصها هذا حداً أصبحت معه حياتها خليطاً من التقاليد المتحجرة والكبرياء الفارغة.

فمن أكبر مفاخرها أن فيها دما أنجلوسكسونيا أكثر مما في سواها من مدن أمريكا، وأنها لم تمزج هذا الدم بدم أجنبي إلى حد ما فعلته أخواتها. فمدينة كنيويورك أو شيكاغو ليست أمريكا في نظرها، وأن تسكن في أمريكا؛ فالأمريكيون في عرفها أنواع ثلاثة: أصلاء، وشبه أصلاء، ودخلاء. أما الأصلاء فهي سلالة الذين نزحوا أولاً من بلاد الإنجليز، وهولندا، إلى أمريكا الشمالية، وفي مقدمتهم "الحجاج" الذين قطعوا المحيط الأطلنطي على مركب شراعي يدعى "مايفلور" واستعمروا مقاطعة "إنجلترا الجديدة" (نيو إنجلند) في الشمال الشرقي من البلاد التي أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة. حتى أن أعظم شرف تدعيه عائلة أمريكية اليوم هو رد نسبها إلى أحد أولئك الحجاج، وقد تضخم عدد هؤلاء "الأشراف"، وبالأخص في بوسطن وجوارها، إلى حد أن الأسطول الإنجليزي بمجموعه لا يكاد يقل في عام ١٩٣٤ ما أقله ذلك

المركب الشراعي في عام ١٦٩٢من أسلاف "شرفاء" أمريكا اليوم إذا صدق ادعاء كل المدعين!

وشبه الأصلاء هم الذين نزحوا قبيل الثورة وبعدها من أوروبا الشمالية بما فيه ألمانيا والدانمارك وأسوج ونرويج، أما الدخلاء فهي المهاجرون الذين أخذت جيوشهم تتدفق على الولايات منذ منتصف القرن الماضي ما بين يهود وإيتاليان ومجر وسلاف وسوريين وسواهم. وهم محتقرون جداً في نظر الأصلاء وأقل احتقاراً في نظر شبه الأصلاء.

في بوسطن أحياء مختلفة لمختلف الأمريكيين الدخلاء، وكلها حقير وقذر، وأحقرها وأقذرها حي الصينيين. مررت فيه يوما في صيف سنة ١٩٢٥ فكدت أضع منديلاً على أنفي لشدة الروائح المتصاعدة من كوم الأقذار الملقاة في الشوارع وفيها قشور البطيخ والليمون والموز وفضلات المطابخ السابحة في بحيرات صغيرة من السوائل القاتمة وللذباب عليها أعراس ومهرجانات، وللكلاب فيها صيد وفير، وعن جانبيها بيوت كالحة الجدران عابسة المداخل تطل عليك من روض نوافذها قمصان وكلسونات وكلسات تتنشف في الهواء إن عزت الشمس، وأمامها صبية وبنات من صينيين وسوريين وأيرلنديين يلعبون ويتشاتمون ويتشاجرون.

ذاك هو الحي الذي اختاره في بدء هجرتهم أكثر السوريين الذين قصدوا بوسطن للارتزاق، فجاورت فيه نارجيلة التنباك نارجيلة الأفيون، وكان بينهما ما يكون بين الجيران، ولك أن تصور لنفسك هذا الحي كيف كان في عام ١٨٩٥ حين حلت فيه كاملة رحمة جبران مع أولادها الأربعة.

جبران، قم يا ولدي، قم. كفاك درساً

وماذا تطبخين لنا عشاء يا أمي؟

مجدرة، يا روح أمك، أنت تحب المجدرة

كل ما تطبخينه يا أمي لذيذ، وكل ما تصنعينه حسن.. سلَّم الله يديك

ما كان أبوك يقول كذلك، وإخوتك كثيراً ما يتذمرون من طبخي

مالك ولأبي وأخوتي، عندك جبران وكفى

ما بالك تنسى أخاك بطرس؟

وعندك بطرس، وهو سيجمع لنا مالاً كثيراً. كنت في مخزنه بعد انصرافي من المدرسة فباع وأنا هناك قميصاً بدولار وبرنيطة بدولارين. بطرس سيكون غنياً وسنعود إلى بشرى فنبنى بيتاً كبيراً. وسنجعلك سيدة ونأتيك بخدم كثيرين.

أدامكم الله لي يا ابني، فأنا راضية ما زلتم معافين، العافية خير من المال

وسأكتب أنا روايات كالتي أقرأها الآن

وماذا تقرأ الآن؟

كوخ العم طام

بالإنجليزية؟

أبالعربية إذن؟ طبعاً بالإنجليزية

ليكن الصليب سياجك يا ابني، أفي سنتين حفظت الإنجليزية إلى أن أصبحت قادراً على قراءة كتاب كبير كهذا الكتاب؟

معلمتي الانجليزية تحبني كثيراً، وهي التي تسميني "خليل"، لأنها تستهجن أن يكون اسمي الأول كاسمي الأخير.

وقد أعطتني اليوم هذه الرواية: ما أبشع الناس يا أمي وأظلمهم ويا ليت لك أن تقرأي حكاية العم طام وكم ذاق من ظلم الناس: سأقصها عليك عندما أنتهي منها.

لقد غيرت الحديث وأنسيتني ما كان بخاطري أن أقوله لك، وهو أن تترك كتابك وتخرج فتلعب قليلاً، من الكتاب في المدرسة إلى الكتاب في البيت. ستهلك صحتك.

ومع من ألعب؟ مع أولاد الصينيين أم الأيرلنديين أم السوريين؟ ما أكثر السفهاء والأشقياء بينهم يا أمي، حتى بين البنات، وما أجمل اللسان النظيف والقلب النظيف. إني لأحسن حالاً في معتزل عنهم مع كتبي ودفاتري وأقلامي الرصاصية، فهي نقية طاهرة.

مع ذلك لا بأس لو خرجت وتمشيت ولو نصف ساعة.

أو ما أخبرتك بما فعلته معلمة التصوير؟ جاءت اليوم برجل قالت انه مصور – صور بيده يا أمي لا بالآلة – وأرته بعض رسومي. فقال لي: "أنت فرخ مصور"، ودعاني لزيارته في الغد.

وهل أنت ذاهب؟

طبعاً.

أو ما كان الأفضل لك ولنا يا ابني لو ترددت في أوقات فراغك على مخزن أخيك ودرست تجارته لتصبح في المستقبل عوناً له بدلاً من أن تصرف وقتك في التصوير ومطالعة الروايات؟

يا للعيب! أأم جبران تقول هذا القول؟ خنصر مصور يساوي ألف تاجر يا أمي.. ما عدا بطرس وصفحة من الشعر أثمن من كل ما في المخازن من الأنسجة.

لكننا في حاجة إلى المال.

وسآتيك بالمال لا تخافي. إذا قصر بطرس لن يقصر جبران

ليحفظكم لي الرب يا ابني

٢

ما صدق جبران أن انتهت الصفوف بعد ظهر اليوم التالي حتى راح يفتش عن العنوان الذي أخذه أمس من المصور. كان يمشي ولا يبصر الأزقة وما فيها ومن فيها، كأنه محمول على سحابة، وكأن خلف الباب الذي يقصده عالمًا مملوءاً أسراراً، والرجل الذي سيفتحه له سيكشف له الستار عن سر تلو الآخر. أو لم يقرأ ويسمع كيف أن بعض مشاهير الفنانين ابتدأت شهرتهم الفنية على يد إنسان مجهول ساقته إليهم المقادير أو ساقتهم المقادير إليه؟ ولا شك في أن هذا المصور هو الرجل المقدور لجبران خليل جبران، هو ملاكه الحارس الذي سيفتح له أبواب الأرض والسماء.

كان جبران يؤلف في فكرة الحديث الذي سيدور بينه وبين المصور وأبدا ينتهي بأن يترك المصور مشدوها بغزارة مواهبه، وجميل منطقه، وحسن مظهره، وطيب أخلاقه، هاتفاً: "من كان مثلك حرام أن تضيع مواهبه بين أناس لا يعرفون لها قيمة. إني سأهتم بتربيتك الفنية. وستكون مصوراً عظيما" وكان خياله الفتي الخصب يورق ويزهر ويثمر برسوم مستقبل زاهر عندما قرع الباب.

رحب المصور بزائره وأخذ بيده وقاده إلى سيدة جالسة في كرسي على دكة خشبية صغيرة وقال لها: ها هو ذا الشاب السوري الذي أخبرتك عنه. وقد رأيت في رسومه قوة خيال غريبة وذوقاً فنياً دقيقاً.

مدت السيدة يدها إلى جبران فأخذها بيده وأحس بدمه يصعد إلى وجهه ثم يهرب منه. وبرعشة تتمشى في كل عروقه فتربط لسانه وتضغط على حلقومه. ونكس عينيه إلى الأرض لكيلا يرى صدر السيدة المكشوف حتى الثديين وذراعيها العاريتين حتى الكتفين.

– أنت خجول يا مستر جبران. تقدم، تقدم واسمح لي أن أمرر أصابعي في شعرك الكستنائي الناعم. شعرك طويل كشعر الفنانين: إذن أنت فنان منذ الآن:

دعني أقبلك على جبهتك الجميلة – هكذا، هكذا. بظني أن بلادك جميلة وكل أهلها أصحاب فنون: أليس كذلك؟ أنا أحب الفن. لكن شغلي فيه حتى الآن لم يتعد جلوسي في هذا الكرسي لا صور لا لا صور ما قولك في صورتي هذه؟ أنها لم تكتمل بعد: وقد أوشكت أن تكتمل.

وأشارت السيدة إلى خامة على المنصب لا يزال دهانها رطباً عند ذاك رفع جبران عينيه إلى الخامة وقال، وكأنه بما قاله شاء أن ينتقم من محدثته لأنها عاملته كما لو كان صبياً صغيراً لا رجلاً مدركاً.

لا تكتمل الصورة حتى من بعد أن يتركها المصور. نحن لا نصور إلا بدايات أو مقدمات. أما الصورة الكاملة فلا يبدعها إلا الله.

كلامك أكبر من سنيك، فكم عمرك يا مستر جبران؟

أربع عشرة سنة

لا غير؟

وشهران

أنت لم تعطني بعد رأيك في صورتي، قل رأيك بالتمام، وأنا أكفل أن صديقنا المصور لن يغتاظ أبداً

أخذ جبران ينقل عينيه من السيدة إلى الخامة ومن الخامة إلى السيدة وهو لا يكاد يبصر لا تلك ولا هذه، لأنه ظل حانقاً على نفسه كيف انقاد للسيدة فتركها تداعب شعره وتقبله على جبينه. ولو أنه كان الرجل الذي يعتقد لما تجرأت السيدة أن تفعل به ما فعلت. لقد كان من الواجب أن يريها بتصرفه وحديثه أنه ليس صبياً بعد: وما هي تسأله رأيه في صورتها فهل يجيبها أم لا؟ الأفضل إلا يجيبها لتعلم أنه ليس طوع بنانها وأنه كرجل له الحق أن يتمرد. وكفنان أن يحتفظ برأيه لنفسه.

ولكن، أليس من الأنسب أن يعطيها جواباً يدهشها ويدهش المصور فيبرهن لهما أنه ليس الصبي الذي يعتقدان. وأنه علي حداثة سنه، ذو قدم راسخة في الفن؟ غير أنه لم يهتد إلى جواب يرضيه لأنه كان يفكر في السيدة التي أمامه: ترى كم عمرها؟ خمس وعشرون؟ أكثر. ثلاثون؟ هي أقرب إلى الثلاثين منها إلى الخمس والعشرين. لكنها فاتنة وما أجمل الألفة الفنية بين ثوبها المخملي الأرجواني وبشرتها المشربة بالدم والمائلة إلى السورة.

أنا بانتظار جوابك يا مستر جبران.

يسمع جبران في صوتها لهجة الكبير يداعب الصغير أو يتلطف معه، فيزداد حنقاً على نفسه وعلى السيدة. لكن لسانه يتحرك بغير إرادته فيجيبها بجد:

– سأقول رأيي عندما تكتمل الصورة.

– حسن جداً، ستكون الصورة عندي غداً، فهلا تكرمت علي بزيارة؟ تعال من كل بد. سأنتظرك عند الساعة الرابعة بعد الظهر. وإليك عنواني.

٣

خرج جبران من عند المصور وفي جيبه ورقة عليها اسم السيدة وعنوانها، وفي يده رزمة من الأقلام الملونة أهداها إليه المصور "تذكاراً لزيارته". وفي رأسه خيالات غير التي رافقته من المدرسة إلى الباب المجهول. فقد تبين له أن المصور ليس ملاكه الحارس، أفلا يمكن أن تكون السيدة التي لاقاها عنده ذلك الملاك؟ لكنها أظهرت شيئا من "السماجة" في بدء حديثها معه. كيفما كان الأمر، هناك باب جديد يطرقه في الغد، ولعله الباب المؤدي إلى فردوس أحلامه.

في تلك الليلة، وهم يتناولون العشاء، قص جبران على أهل بيته ما كان له عند المصور.

المصور لا بأس به كمصور، وكرجل هو لطيف للغاية. لقد دعاني أن أجلس له.

أن تجلس له؟ وما معنى ذلك يا ابني؟

معنى ذلك يا أمي أن أجلس أمامه مثلما يريدني أن أجلس ليصورني مثلما يريد أن يصورني.

يصورك؟ ما لنا وللصور يا ابني، ومن أين نأتي بالمال لندفع ثمن الصور؟

لا يا أمي، لا. أنت لا تفهمين من التصوير أكثر مما أفهم من التركية المصور يحتاج إلى رجال ونساء من كل الأعمار والأشكال ليستعين بهم على تصوير ما في خاطره. مثلاً: لو أردت أن أصور مريم العذراء – وأنا قط لم أر مريم العذراء – فقد أصورك، لكن بالثياب التي أختارها، وقد أصورك واقفة أو جالسة أو منحنية – باسمة أو باكية وقد أختار أن أصور على ذراعيك طفلاً – حسبما يوحيه خيالي. أفهمت الآن؟

ليتني لا أعيش لأفهم

وهكذا فسأجلس أنا لهذا المصور عندما يدعوني. وقد وعد أن يعطيني أدهاناً زيتية بديلاً من الأجر.

ليته يعطيك نقداً.

فأشتري بالنقد أدهاناً، وهكذا أظل حيث أنا

وسأله بطرس:

أهذا كل ما فعلته في غيبتك الطويلة؟

لم أخبركم عن الأهم بعد. والأهم هو أني التقيت هناك سيدة هي من أشرف أشراف بوسطن ومن الأمريكيين الأصلاء وهي بلا شك من أكبر الأغنياء. وقد أحبت أن تطلع على رسومي. فدعتني لزيارتها في الغد.

هنا انهالت الأسئلة على جبران بغير انتظام ومن كل واحد من أفراد العائلة، فسألته ماريانا:

أصبية هي أم عجوز؟

تقارب الثلاثين

وسألت الأم:

أمتزوجة أم عازبة؟

لا أعرف ولا يهمني أن أعرف

وسألت سلطانة:

أجميلة هي؟

جميلة جداً

وسألت ماريانا:

وما اسمها؟

ذلك سر

وسأله بطرس وأمه معاً:

أو ذاهب أنت لعندها غداً؟

طبعاً

وهبطت على الكل سكينة عميقة أحس معها جبران بمرارة تتفشى في دمه. فنهض عن كرسيه وضرب الطاولة بيده قائلاً:

حتى متى تنظرون إلي نظركم إلى صبي جاهل؟ أنا اليوم رجل ولي الحق أن أفعل ما أشاء وأذهب حيث أشاء. أتظنون أني قاصر عن الدفاع عن نفسي وأني لا أعرف الصلاح من الطلاح؟

فقالت أمه بصوت حنون مخنوق:

وقانا الله يا ابني ساعة التجربة

أنا أكبر من التجربة، وقد أخطأت عندما أخبرتكم ما أخبرتكم عن هذه السيدة.

ولو كان لغريب أن يراه ويسمعه في تلك الحالة العجب لحمل صغير يقلد بشفائه زئير الأسد.

٤

– أهلاً وسهلاً بصديقي اللبناني. لقد جئت، ولا بأس. ولو كنت أعرف رقم تليفونك لتلفنت لك أن ترجئ زيارتك إلى الغد، لأنني نهضت اليوم بصداع أليم في رأسي: فلزمت فراشي طول النهار. لذاك تراني كما أنا في قميص النوم والكيمونا. فاعذرني. واعذرني إذا ما استقبلتك في مخدعي، لأني أكون أكثر ارتياحاً إذا اتكأت في فراشي: وأنت لا شك تريد لي الراحة. ومن ثم فالصورة – صورتي– معلقة على جدار مخدعي فتعال معي وقل لي لماذا لم تعطني رأيك فيها البارحة. ولعلك تفعل اليوم ما لم تفعله أمس.

وقادت صاحبة البيت زائرها إلى مخدعها وأجلسته على كرسي كبير من الحرير، وهو يهم بالاعتذار والانصراف، قائلاً:

قد يكون من الأفضل يا سيدتي لو تركتك الآن وعدت في الغد.

لا، لا. أنت هنا الآن. ولعل صداعي يذهب بوجودك معي، فقد بدأ يخف، وبيننا حديث طويل. فأنت شرقي وأنا أحب الشرق وما فيه من سحر أبدي. فكيف به إذا اتحد ذلك السحر بسحر الفن؟ وها أنا، إكراماً لقدومك سأحرق لك بخورا شرقياً.

وجاءت بمجمرة من الفضة في شكل تنين ورشت فيها مسحوقاً من خشب الصندل وأشعلته بثقاب. فتصاعد دخانه الأبيض العطري وامتزج بما في الغرفة من عطور. ثم وثبت إلى سريرها وانكفأت بمرفقها على وسادتها ساندة رأسها بيدها وقد استرسل شعرها الأسود اللامع، بعضه على صدرها والبعض على زندها العارية. وأشرق في عينيها السوداوين الواسعتين نور لم يره زائرها من قبل.

اعذر ما بدا مني البارحة. فأنا لن ألعب بشعرك، ولن أقبلك على جبهتك. وهات قل رأيك في الصورة قبل كل شيء.

تمنيت لو قام ليوناردو من قبره ليصورك، إذن لما أعطاك عين نعجة قريرة، بل عيني نسر جريح. ولما أطبق شفتيك على بسمة الوردة للشمس، وفي قلبها قطرة من أجفان الفجر، بل على بسمة الوردة وقد طارت من قلبها لؤلؤة الصباح. إني لأرى في وجهك حزناً ليس في الصورة، وقناعاً من الغبطة الكاذبة يبدو في الصورة حقيقة راهنة.

إنك لشاعر وفنان وساحر في وقت واحد. فمن أطلعك على أسرار حياتي؟ ومن أنبأك أن أهلي زوجوني من تاجر جلود طمعاً في ماله فأفلس بعد زواجنا بشهرين. وأنه يزيدني سناً بأكثر من عشرين سنة، وأنه لا يعرف من العالم إلا جلود البقر والماعز والغنم، وأني قضيت في بيته عشر سنوات هي عشرة دهور من الألم والمرارة؟ هنيئاً لمن يقع في هذه الدنيا على قلب يفهم قلبه. أنها لأكبر غلطة يا صديقي. وأراك، بالرغم من سنيك، صاحب قلب فهيم. صدق أن هذا البيت لقبر

لي. اقترب مني قليلاً. اقترب. ودعني أضع يدي في يدك لعلني اكتسب من شعرك وفنك وسحرك ما ينسيني الذي أنا فيه.

أو يجور زوجك عليك كثيراً؟

يعاملني كما لو كنت حظية عنده اشتراها بماله، وأنا في الواقع حظية وقد ابتاعني بماله ولو كان بإمكانه لما سمح لي بالخروج من البيت. ولكن دعنا منه. وهات حدثني عنك وعن شرقك الجميل

وأين زوجك الآن؟

لقد جدد تجارته منذ عامين وهو الآن في مكتبه وعنده الليلة أمور وجلسات مهمة لن يتخلص منها قبل نصف الليل حاولت كثيراً أن ألبسه جلد إنسان بدلاً من جلد ثور، وأن ألين من طباعة الشرسة، فلم ينلني من ذلك سوي الوجع المبرح – وجع الجسم ووجع الروح. وما صداعي اليوم إلا نتيجة معركة جرت بيني وبينه هذا الصباح.

وهل خف صداعك الآن؟

لقد كدت تزيله بما لقيته فيك من جميل الحس وطيب الإدراك. ولعلك لو وضعت يدك على جبهتي لزال ما تبقي في رأسي من وجع: اقترب مني قليلاً: اقترب.

وارتفع صدر السيدة بتنهيدة عميقة، ولمعت في عينيها دمعتان. وللحال أجابتهما عينا جليسها بالمثل. وكان سكوت.

لست أهلاً لدمعة من دموعك يا صديقي. وقد كان الأولى بي أن ألجم لساني وأبقي ألمي دفيناً في قلبي مثلما كان كل هذه الأعوام. فاعذرني

منذ اليوم أصبح ألمك ألمي.

ما أحن قلبك وأجمل روحك – وما أضعف النساء! إني أشعر بثقل على صدري، وضغط على حنجرتي، ودوخة في رأسي – اقترب مني قليلاً .... اقترب ....

٥

ودع جبران "ملاكه الحارس" نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ومعها ودع صباه وعفة الصبا وطهارته. وأحس عند خروجه من ذلك البيت كأنه خارج من أتون. وكأن كل قطرة من دمه قد تحولت إلى جمرة ملتهبة، وهو لا يدري كيف يهرب منها وبماذا يبردها. لكنه ما مشى بضع خطوات في الشارع حتى تحول اللهيب في داخله إلى قشعريرة اشمئزاز وندم. وراح يؤنب نفسه تأنيباً موجعاً. وتذكر كلمات أمه: "وقاك الله ساعة التجربة" وجوابه لها أنه أكبر من التجربة "بلي. أنا أكبر من التجربة. ولن أقترب من امرأة فيما بعد إلا التي أختارها زوجة لي وسأخبرها بزلتي هذه – التجربة الزلة – ما هي التجربة؟ ما هي الزلة؟ الزلة هي أن تسمع استغاثة قلب ولا تغيثه. والتجربة أن يدعوك الحب لتقدم نفسك محرقة على مذبحه فلا تقدمها. أأتركها فريسة لتاجر الجلود؟ الله ما أجملها، ولقد اختارتني من بين كل من في بوسطن – بل في العالم – من رجال. فما أسعدني!" وعادت النار تشب في داخله فلا تلبث أن تنقلب إلى قشعريرة، وهكذا بين اللهيب والقشعريرة بلغ بيته، وبخطوات كأنها خطوات خيال صعد السلم الخشبي اللولبي المظلم إلى الطبقة الرابعة –وهي الأخيرة – حيث كان يسكن مع عائلته، وكان كلما صعد درجة يردد كلمات أمه: "وقانا الله ساعة التجربة"

كان من في البيت قد ناموا إلا أمه؛ فهي كانت تنتظره في ردهة الاستقبال الصغيرة التي كانت غرفة مائدة كذلك. وما أحست بوطأته على الدرج حتى هبت إلى الباب ففتحته. وما وقع نظرها على ابنها حتى شعرت بغربة تقصيها عنه ما شعرت قط بمثلها من قبل.

جبران، أطلت غيبتك عنا هذه المرة أكثر من كل مرة يا ابني. انتظرناك للعشاء حتى الثامنة. وقد طبخت لك طبخة تحبها. شغلت بالنا كثيراً كثيراً. هل تعشيت يا

روحي؟

ما معني شغل البال يا أمي؟ هل أنا طفل؟ أنني رجل وأكره أن أقدم حساباً لأحد – حتى لأمي – عن كل خطوة أخطوها.

هل آتيك بالعشاء يا روح أمك؟

لا، فقد تعشيت.

نعم، عندها.

كنت وإياها لا غير؟

بل كان رهط من علية القوم وأشهر الفنانين في بوسطن.

وزوجها كذلك؟

لم أر زوجها، ولا أعرف إذا كان لها زوج.

أهي جميلة؟

إذا كان لك حديث عن غيرها يا أمي؛ فهاتي نتحدث وإلا فالنوم أفضل.

قم إلى فراشك يا عين أمك، واجتهد أن لا توقظ أخاك بطرس فهو – وا ولداه!– تعبان، وقد نام باكراً ولم يأكل غير لقمة أو لقمتين.

٦

مر عام مزدحم بالزيارات السرية إلى البيت السرى، وباللذة والألم. فقد ظن جبران في بادئ الأمر – عندما قطف الثمرة المحرمة – أن بإمكانه أن يأكل حلالها دون حرامها، وأن يتذوق حلاوتها دون مرارتها. ولعله لم يفكر في حلالها وحرامها على الإطلاق. بل كان يربت لنفسه لتوصله – في سنة – إلى ما يشتهيه الكثير من الرجال ولا يدركونه. غير أنه عندما شعر بالمرارة وأحب أن يطرح الثمرة من يده وجد بذورها في كل نقطة من دمه، ووجد أنه إذا طرحها سيطرح معها قلبه. فازداد تعلقاً بها

واعتقاداً بأن المرارة ليست فيها بل في الذين حرموها. وبكل ما في فكر الفتى من حماسه وفي خياله من لهيب، راح يعالج في نفسه شرائع البشر وقوانينهم، وبالأخص ما تعلق منها بالزواج. فيراها زردات من فولاذ قاس، لا قلب لها ولا خيال، وقد حبك الجهل منها شبكة هائلة لكل من له خيال كخياله وقلب كقلبه.

لكن التكتم أصبح جراباً من الحيات والعقارب يتوسده في نومه فيعكر عليه أحلامه. ولماذا التكتم؟ خوفاً من الفضيحة. وأني المهرب من الفضيحة بالتكتم؟ إنها لدائرة مسحورة ومن الواجب تحطيم حلقاتها كيما يتحرر الناس من سحرها، وهو سيكرس حياته لذلك الواجب حباً بالإنسانية المتألمة. ولكن في التكتم لذة الجهاد. فلا يكتم إلا من في قلبه سر عميق. ولا يحمل في قلبه سراً عميقاً والعالم كله يحاول انتزاعه منه. فهل يقوى عليه العالم؟ معاذ الله! أنه لأقوى من العالم.

على وقع هذه الأفكار وأمثالها كانت خطوات جبران تتسارع في أول الليل إلى البيت السري. وما أن أدرك الباب ورفع يده ليكبس زر الجرس الكهربائي حتى رأى خلفه – على ضوء مصباح الشارع – رجلاً طويل القامة ممتلئ، حليق الوجه، لطيف المعاني، لا يزيد عمره على الخمسة والثلاثين، وقد تأبط محفظة جميلة من الجلد الأسود.

سأريحك يا سيدي من دق الجرس

وأخرج الرجل مفتاحاً من جيبه، وفتح الباب، وقال لجبران بصوت كله لطف وتأدب:

تفضل يا سيدي وادخل

دخل جبران متردداً، مضطرباً، ودخل وراءه الرجل ونادى صاحبة البيت باسمها فكانت أمامه بلحظة. وارتمت علي عنقه تقبله، وقد امتقع لونها وهي تحاول أن تستر رعشتها ودهشتها:

ماذا جرى يا عزيزي – ماذا جرى؟

لا تجزعي، لقد نسيت محفظة الدراهم، فعدت في الحال من المحطة. أسرعي إلي بها قبل أن يفوتني القطار.

فجاءته بها وقالت وهي تناوله إياها:

لقد أصبحت كثير النسيان في هذه الأيام يا عزيزي، وقد تسربت العدوي منك إلي فقد أنسيتني بلهفتك وسرعتك أن أسلم على المستر جبران وأن أعرفك إليه. فهو فنان شرقي التقيت به أمس عند بعض الأصدقاء. وقد تلطف الليلة وجاء يحدثني عن فنه. هذا زوجي يا مستر جبران.

إني لسعيد بمعرفتك يا مستر جبران، وكنت أتمنى لو لم أكن مضطراً إلى السفر لأعرفك أفضل من هذه المعرفة القصيرة. فاعذرني، وإلى اللقاء القريب إن شاء الله.

وقبل الرجل زوجته وانصرف

٧

بعد شهر من تلك الليلة كان دخان الصندل يتصاعد من فم التنين الفضي فيتكاثف لحظة ثم يتخلص، ويلتوي هنا ثم يستقيم هناك، وجبران يراقب رقصته الهادئة وينفخ فيه بين الفترة والفترة من دخان سيجارته فتتكون من مزيج الاثنين ألوان وخيالات غريبة. وكان في الغرفة صمت عميق.

إلام تعذبني يا خليل

لا تسميني فيما بعد "خليل" اسمي المستر جبران.

ما كنت أظنك حقوداً قاسياً إلى هذا الحد، إلا إني قلت في صورتي الزيتية، التي كانت سبب تعارفنا، أنها أجمل من صورتي التي رسمتها أنت بقلم رصاص، تمزق ما رسمت وتفعل بي ما فعلت؟

لم أفعل جزءاً من مائة مما كان من الواجب أن أفعل. أنت لا تفهمين من الفن شيئاً ولا تميزين بين الرأس وذنبه. لقد صورتك شفافة كروح، جميلة كخيال، بعيدة كحلم. صورتك مثلما أراك بعين حبي. فاستغربت الصورة لأنك من تراب ولا تبصرين نفسك إلا بعين من تراب. ومن كان من تراب لا يعرف العذاب، فبأي لسان تقولين أني أعذبك؟ أما صديقك الذي صور هذه الصورة، والذي تفاخرين بصداقته وتعظمين فنه، فهو لا يفهم من الفن أكثر مما تفهمين. فالحقي به ودعيني وشأني

عيب عليك أن تقول ذلك. وللرجل مقامه وشهرته في عالم الفن. ولعلك متى بلغت سنة، وحويت اختباره، تكون أعظم منه. أما الآن فأنت لا تزال في أول عمرك ...

في بنصري من الفن أكثر مما في كل رأسه، ومن ثم فاعلمي أنني أكبر منك ومنه، وأنك أن كنت لا تزالين تحسبينني صبياً فبقدرتي أن أريك كيف تستغني الرجال عن النساء.

أما أنا فأريك كيف لا تستغني النساء عن الرجال.

ومد "الملاك الحارس" جناحيه وغمر بهما "محروسه" وكان سكوت، تلته دموع. وكان عتاب، تلاه انقلاب.

لقد أنسيتني المهم، وهو سفرك إلى لبنان. أفلا مرد لما أقره أهلك؟

قلت لك أن رأي أهلي رأيي، ولولا ذلك لما أقدمت على السفر. فأنا لا أكاد أعرف من لغة أجدادي إلا ألفها وباءها. ولا أعرف من بلادي غير مسقط رأسي. ومن الضروري لي أن أدخل مدرسة في بيروت لأتعلم لغتي على الأقل، وأتعرف إلى بلادي.

قد يكون قصد أهلك من ذلك إقصاءك عني. لقد نجحوا لقد نجحوا. فستنساني يا خليل.. ستنساني.

إن نسيتك فلتنسني يميني.

لقد أعطيتني زهرة شبابك يا خليل – لقد أعطيتني رجولتك – بل لقد أعطيتني رجولتي

هدية الموت

في شمس إبريل سحر ليس تعرفه بقية الشهور، لاسيما في المدن المكتظة بالسكان مثل نيويورك ولندن وباريس، حيث يقضي الناس الشتاء وكأنهم في حصار. أما العدو المحاصر فهو البرد. وأما عساكره فالعواصف والثلوج والأمطار والغيوم العابسة الغضوب. وهو عدو لا يكف عن المهاجمة ولا تصده الجدران الغليظة. بل يدخل على الناس في منازلهم ومعابدهم ومصانعهم والأبواب مقفلة والنوافذ مغلقة. وحيثما لمست أصابعه الخفية أجسادهم تقهقر الدم أو تجمد. لذاك يكافحونه بالنار والبخار والألحفة الدافئة. وإذا ما التقوه خارجا نازلوه وعليهم دروع ثقيلة من الأكسية الكثيفة، وفي أرجلهم أحذية من الجلد والمطاط تكاد تكون أغلالاً. وتراه، مع ذلك، يسد الزكام أنوفهم ويفتك بصدورهم وظهورهم ومفاصلهم. لكنهم عندما تطل عليهم شمس إبريل يشعرون أن بجانبهم حليفة لا تقهر، وأنهم سينالون الفرج عن يدها. فيفتحون لها نوافذهم، ويخرجون لملاقاتها جذلين، ويطربون عندما تغتسل وجوههم بذوب طاهر من أشعتها الدافئة. وإذا ما أحسوا فيها بلدغة برد قالوا هو عدونا يتقهقر عنا، ويعضنا عضته الأخيرة. لكنه قد شاخ ولا قوة رود في أنيابه.

كان الرابع من إبريل عام ١٩٠٢ وكانت الشمس تدغدغ مويجات نهر السين وتسكب على باريس سيولا من النور الدافئ، فتبدو المدينة كلها، ببناياتها الكالحة المخنوقة بأنفاس الشتاء وشوارعها المنكمشة من ملامس البرد، كأنها سجين أطلق سراحه، أو جبار كان في صدره غصة وزالت: فالناس من باريسيين وغرباء، كانوا يسيرون في الشوارع أنهرا وجداول، تتلاقى، فتمتزج، فتفترق. وفي سيرها خفة

وسهولة. كأن أغراضها المتضاربة اندغمت في غرض واحد ومجاريها المتشعبة تحولت إلى مجرى واحد

وعلى مقعد منفرد بالقرب من كاتدرائية "نوتردام" كان شاب غريب كأنه في خضم البشرية الباريسية نقطة من الزيت في بحر من الزئبق. عليه ثياب تكاد تكون ثياب فقير لولا ما فيها من نظافة وهندام. ومن تحت قبعته البنية قد تدلت خصل من شعره الكستنائي الطويل. وعيناه المثقلتان بالأهداب قد أطبقتا حتى نصفيهما كأن بهما نعاساً. وفي وجهه النضر كآبة من يبصر غير ما يشتهي: أو يشتهي غير ما يبصر. وكان يحدث نفسه صامتاً:

زحمتك السنون يا جبران. وهي مصيبة فيما تقول: من كان بطيء الخطي فليتنح من طريقنا، وأنت بطئ الخطي، فماذا فعلت حتى اليوم؟ وراؤك عشرون عاماً، أنها لمقدمة طويلة للا شيء. كفاك تفرجاً مع المتفرجين وآن لك أن تكون بين من يتفرج عليهم المتفرجون: ليوناردو لم يكن متفرجاً. ولا ميكل أنجلو ولا تشيللي ولا تيتيان ولا رمبراندت ولا روبنس ولا فيلاسكس: هو ذا اللوفر يؤمونه بالملايين من المشارق والمغارب ليتفرجوا على من فيه من رجال الفن المعدودين. لكن من فيه لا يهشون ولا ينشون. ولا يخرجون إلى أزقة الناس ليتفرجوا على الناس، لأنهم أعظم من الناس. لله ميكل أنجلو! يا ليتك ولدت في زماننه، إذن لتوسلت إليه أن يسمح لك بالتتلمذ عليه: ما كان أجمل الفن وأسهل التقرب من الفنانين في ذلك الزمان، وما أكثر العقبات في طريق من يرغب فيه اليوم!

"أنت كثير الأحلام يا جبران. من أين تأتي بالمال لتدرس الفن كما تشاء أن تدرسه، وأنت لا تزال عالة على سواك بدلاً من أن تعول سواك؟ أمك تشتغل، وأخوك يشتغل، وأختاك تشتغلان ليقوموا بأودهم وأودك وأود أبيك. وأبوك سلم ذقنه لشريك محتال فأضاع كل ما كان لديه من قليل رزق ومال. وهو، مع ذلك، لا يفارق قهوته وسيجارته وقدحه. مسكين أبوك ما أسلم نيته، وأقل تدبيره، وأطيب معشره.

وما أحسنه رفيقاً في السفر – بعلبك – الهرمل. حماه وسهولها وعاصيهما. وصرود لبنان الشمالي وقراه. لولاه لما عرفت شيئاً من جمالها. وتلك الليلة التي قضيتها وإياه على "ظهر القضيب" في خيمة رعاة الغنم، والبدر والنجوم من فوقك، والأغنام الآمنة، والتلال البيضاء من حواليك – والبحر تحت قدميك – الله كم كان فيها من روعة ومن سحر!

"في الميزاب وبرج إيفل. نهر أبي علي والسين. نوتردام ودير مارسركيس: شوارع باريس ووادي قاديشا. اللوفر ومغادرة قاديشا: الأرز وغابات بولونيا، بيروت وباريس مدرسة الحكمة والسوربون – ما أغرب هذه المقابلات!

"أربع سنوات علي مقاعد مدرسية الحكمة – ماذا نفعتك؟ اشكر ربك فقد نجوت من الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والقوافي. وأنك، وإن فاتتك فوائدها، لم تفتك جوهرها. واشكر ربك فقد نجوت من الصلوات في الصباح والمساء. وقد صليت في أربع سنوات ما يكفيك حتى آخر حياتك. فأنت لن تدخل كنيسة منذ الآن. لأن يسوع الذي تحبه لن تجده في كنيسة قط. ما أكثر المعابد وأقل المتعبدين وما أوفر الصلوات وأقل المصلين!

وهي كانت تعرف معنى الصلاة والعبادة، وهي كانت تعبد "بالحق والروح، لأنها كانت تعبد بقلبها، وأن كان عملها في حوزة الكاهن. آه ما أظلم الموت، وما أقسى تقاليد الناس! يا ليتها بجانبك الآن، فقد كان لك في كل بدية من سماتها النقية بلسم لكل جرح، وفي كل لمسة من أناملها الناعمة الطاهرة جناح لكل فكر. لقد وقاك الله الساعة التجربة معها، فصنت عفتها وعفتك ولم تدني سنواتها الست عشرة بشهوة: ما أجمل الحب إذا كان نظيفاً! وما أعظم الفرق بينها وبين الملاك الحارس"!

وماذا تقول غدا "لملاكك الحارس" إذا لاقيتها في بوسطن وماذا عساها تقول فيك إذا عرفت أنك هجرتها من أجل سواها؟ لتقل ما تشاء، فهي ليست الملاك

الحارس الذي كنت تحلم به، وهي من التراب وفي التراب وللتراب، وليس في استطاعتها أن تفهم حلماً من أحلامك أو تلمس شوقاً من أشواقك.

"ومن ذا تهمه أحلامك وأشواقك يا جبران؟ لا بد من أن يكون لك ملاك حارس يفهمها فيقودك إليها: من هو؟ من هي؟ بلى، ففي قلب أمك الساذج محبة تفهم بالإشارة. وفي صدر أخيك بطرس ورأسه أحلام وأفكار تكاد ترافق أحلامك وأفكارك وغير أنه يسترها عن أعين الناس، حتى عن عينيه وعينيك، كيما يتفرغ لتحصيل الرزق لك ولذويه وذويك. إذا لم يكن لك غير أمك وأخيك يا جبران لكفاك. لكن لك كذلك أختين نبيهتين، ومجتهدتين. فماريانا تحصل مالاً من ثقب إبرتها.. وسلطانة؟ لقد تركتها فتاة في أول صباها وهي اليوم عروس في السادسة عشرة من عمرها. ترى هل تعرفها عندما تقابلها غدا في بوسطن وهل تعرفك؟ بل هل يعرفك الباقون من أهل بيتك وجيرانك؟

لقد تغيرت كثيراً في هذه السنوات الأربع التي قضيتها في لبنان، وقد اشتد بك الشوق إلي أهلك، فأنت لا تصدق متى تضمهم إليك ويضمونك إليهم. وأنت عيب عليك أن تعود إليهم فارغ اليد. في جيبك كمية قليلة من المال إذا أنت اقتصدت في نفقاتك فاض لديك منها نحو أربعة ريالات، فانهض وابتع بها هدايا لأهلك ولتكن أجمل هدية لسلطانة".

وأخرج جبران محفظة صغيرة من جيبه وعد ما فيها من الدراهم، ثم نهض ومشى وهو لا يعرف ماذا يقصد وماذا يبتاع وبجانبه مشى الموت حاملاً على ذراعيه روح أخته سلطانة التي كان قد تقبلها في تلك الساعة، وراء المحيط، هدية من يد الحياة.

غير أن جبران لم يكن يبهر لرفيقه وجهاً ولا يسمع لقدميه وقعاً. بل كان يفكر فيما سيبتاعه هدية لأخته الصغيرة المحبوبة.

٨

دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والظلمة المخيمة في غرفة بطرس رحمه وأخيه جبران لم نسمع للنوم نفساً ولا حفيف جناح وكان كلا الأخوين إذا ما تقلب في سريره من جانب إلى جانب فعل ذلك بهدوء وتحفظ خشية أن يوقظ أخاه النائم على بعد ذراعين منه. وأخيراً سمع بطرس تنهده بليلة خارجة من تحت لحاف أخيه: فخاطبه همساً:

جبران، يا أخي، يا روحي، أتبكي حتى في مثل هذه الساعة من الليل، وأنت منهوك من سفر البحر وفي حاجة إلى النوم؟ نم ولو قليلاً.

الدموع لا تعرف الساعات يا بطرس. لقد ذرفت حصتك منها، فدعني أذرف حصتي. لست أبكي سلطانة وإنما أبكي الله!...

جبران، أنت محموم يا أخي.. أنت سكران من الحزن والتعب. لا تنكر كل ما تجهله السل، السل، جيوش خفية جرارة، جيوش الله الخفي المدير يرسلها لتحتل صدر مخلوق من مخاليقه ولتسترد منه في سنة أو سنتين نفساً نفخه فيه بأقل من طرفة عين. لتهدم في طرفة عين هيكلاً ظل يبنيه سنين. ماذا جنت سلطانة الطاهرة ليشن الله عليها مثل هذه الغارة؟ ولماذا اختارها من بيننا، وهي أنقانا، وهي زنبقة ما يزال أريجها في قلبها؟

قد لا يكون الموت قصاصا يا أخي: وقد تكون في غنوة الموت أحلام أجمل من كل ما في صحوة الحياة – من يدري؟

ولماذا اختار لها هذه الميتة من بين كل أصناف الموت؟ – تعرف طرق الله عندما تصبح إلها.

ولماذا جاء بها من أحضان الأرز النيرة الرحبة ليميتها في غرفة ضيقة مظلمة – من بشرى إلى بوسطن – من بيت علي كتف الوادي المقدس إلى بيت في حي الصينيين في بوسطن؟

لابد من سر في كل ذلك. غير أني لا أعرفه ولا أعرف من يعرفه.

ولماذا جعلها أختاً لي وجعلني أخا لها؟ ولماذا أماتها في هذه السن، وفي هذه السنة، لا في سواهما. وفي الرابع من إبريل لا في الخامس من مايو؟

دعك من "لماذا" يا أخي، فقد حرقت قلوباً كثيرة قبل قلبك.

آه – بطرس، بطرس: في رأسي الآن ألف لماذا ولماذا. وهي تصارعني بألف سيف وسيف: فإما تصرعني فتدفنني مع ربي في لحد واحد، وأما أصرعها فأنهض وينهض ربي معي قوياً، عادلاً، جميلاً، سرمدياً.

خلنا الآن من ذلك يا جبران. وما زال النوم بعيدا عن أجفانك، وأجفاني، فهات أخبرني شيئاً عن بشرى. كم مرة دخلت المغارة، وتسلقت جبل الأرز، وانحدرت إلى الوادي المقدس؟ وهل كنت تنهض مع الفجر وتترقب مواكب النور مباعدة من البحر لتلاقي الشمس عندما تطل من وراء ظهر القضيب؟ وهل قلت للشمس المشرقة – ولو مرة – بطرس يسلم عليك؟ وهل زرت دير مارسركيس وصليت في معبد الحجري المهجور، أو سرقت من كرمته عنباً وأكلت، ولو حبة واحدة، عن أخيك بطرس؟ ما كان أجهلنا يا جبران، وما أسوأ الساعة التي ابتعدنا فيها عن خرير شلال قاديشا وظلال واديه المقدس. إنها لساعة سوداء. ولعلنا، لو رضينا ببلادنا، رضي الله عنا وما أخذ سلطانة منا. والآن – ست سنوات – له سبع سنوات وماذا فعلنا؟ لا علم ولا مال. بلى فأنت قد تعلمت. وأنت ستكفر عن كل قصورنا. لقد كنت أقرأ رسائلك بلذة فائقة، وأشعر كأني أقرأ فصولاً من سفر أيوب أو من مزامير داود أو من نشيد سليمان. فما عدت أعرف – هل أنت في التصوير أقدر منك في الكتابة، أم في الكتابة أقدر منك في التصوير. ولعلك ستكون كاتباً ومصوراً معاً.

لقد نسي الناس فن الكتابة يا بطرس وانشغلوا عنه بصناعة رصيف الكلام. فلا روح ولا جدال فيما يكتبون. ولو عادوا إلى سفر أيوب والمزامير ونشيد الأناشيد لعرفوا أن العواطف إذا ما فارت والأفكار إذا ما ثارت ضاقت دونها القوالب المحدودة

وغصت بها المجاري المألوفة. لكنهم لا عواطف فيهم تفور، وينظمون كما لو كانت لهم عواطف. ولا أفكار لهم تثور، وينثرون كما لو كانوا ذوي أفكار. فهم أموات فيما ينظمون وينشرون.

ترى أنعود إلى لبنان بعد؟ هيهات! أنا أعرف أنني لن أبصر تلك القمم النظيفة، وأصلي من أجلك لكي تراها عني وعنك. هيهات. هيهات ...

وأخذت بطرس نوبة من السعال ارتجت لها الظلمة بما فيها من دموع وحزن وحرقة.

٩

"الحق، الحق أقول لكم أن حبة الحنطة التي تقع في الأرض إن لم تمت فإنها تبقى وحدها، وإن ماتت أتت بثمر كثير".

كانت سماء يناير تنثر من دموعها البيض على بوسطن، وكان جبران يطالع الإنجيل؛ فوقع على هذه الآية في الفصل الثاني عشر من يوحنا، ومع أنه قراها وسمعها مراراً عديدة من قبل، شعر كأنه يقرأها للمرة الأولى، وكأن ستارا أزيح عن عينيه، فرفعهما عن الكتاب وغرق في بحر من التأمل: – كل شيء يموت لكي يحيا. الصخرة تموت لتلد حجارة لبناء الهيكل. والشمعة تموت لتتحول نوراً. والخشبة تموت ليظهر ما فيها من نار. والثمرة تموت لتنبت الشجرة. والشجرة تموت لتعطي الثمرة. كل شيء يموت ليعود إلى مصدره الحياة ذهاب والموت إياب. والحياة كساء والموت عري. والحياة فكرة بارزة والموت فكرة خفية. والله هو الموت والحياة معاً.

وللحال أخذ جبران دفتر الرسم وقلم رصاص وبدأ يرسم في أعلى الورقة خطوطاً ودوائر ونصف دوائر: وما هي إلا دقائق حتى برز من تلك الخطوط المبهمة شكل رأس منحن إلى الإمام: وليد التي تمسك القلم تحس كأن يدا خفية تحركها، والقلم ينتقل بسرعة من جانب في الرأس إلى جانب وحيثما انتقل ترك أثراً بينا لمعنى من معاني الوجه – هنا حاجباً، وهناك شبه فم أو أنف، وهنالك موجة من الشعر.

وكانت السبابة تارة، وطورًا الوسطى تساعدان القلم في بعض وثباته، فتزيدان من ظل أو تخففان من ظل، وكان جبران، كلما انتهى من حركة، يبتعد عن الورقة قليلاً ويزورها بعينيه لحظة ثم يعود إليها عودة العاشق إلى معشوقه أو العابد إلى معبوده. وقد نسي سيجارة كان قد أشعلها فاحترقت من تلقاء ذاتها حتى آخرها. ولم يقف ليشعل ثانية حتى انتهى من العينين وقد احتار هنيهة ما بين أن يجعلهما مفتوحتين أو مطبقتين.

بأقل من ساعتين برز الوجه بجبهته المغسولة أعاليها بنور علوي، والمظللة ما بين الحاجبين وخلفهما بظلال ناعمة، دافئة، خفيفة. وبأجفانه المنفرجة بعضها عن بعض قيد شعرة أو شعر تين، كأنها تخشى، لو تدفق كل ما خلفها من سر وسحر ومحبة دفعة واحدة، أن تغرق الناظر إليها بدلاً من أن ترفعه – وبفمه المفتوح نصف فتحة وكأن فيه كل بركات النعيم وجماله. أما الشعر فقد امتد في مويجات جميلة ذات اليمين وذات اليسار ثم تدلى إلى أسفل في شكل مستدير، وتقارب طرفاه تحت الذقن، دون أن يلتقيا، كأنهما جناحان منعكفان أحدهما نحو الآخر دون أن تتلامس قوادمهما. ومن أسفل الورقة قد ارتفع لهيب من نار في شكل جسم بشري عار، لكنه خفيف كالنسيم، شفاف كالنور، وقد أدار ظهره إلى الناظر. له تقاطيع جسم بشري إنما دون اللحم والعظم والدم. إذا ما نظرت إليه لم تره خطوطاً جامدة على ورقة جامدة، بل تخيلته يرتفع إلى فوق، دون ما أقل تعب أو جهد على الإطلاق، حتى تلامس قمة رأسيه شفة الوجه السفلى، وكتفاه طر في الشعر. فيبدو الشعر كأنه ذراعا أم أطلت على طفلها من فوق فانتشلته إليها لتضمه إلى صدرها وتباركه بقبلة المحبة.

"عادت سلطانة من حيث أتت إلى الله. ينبثق الشعاع من الشمس ويعود إليها. والشجرة من الأرض وتعود إليها. والروح من الروح فتعود إليها. هي عودة لا بد منها"

ونظر جبران إلى صنع يديه فرآه جميلاً. لكنه ما كاد يرفع القلم ليوقع اسمه بأسفل الصورة حتى دخل عليه أخوه بطرس وكأنه محمول على ذراعي الموت:

أسرع وراء الطبيب يا جبران، أسرع ما تمكنت، ولا ترجع إلى هذا البيت. فهو ينهار علينا بسقفه وكل جدرانه وأرضيه تهرب من تحت أرجلنا: فانج أنت على الأقل من بيننا.

أمك في خطر، وأخوك بطرس على أهبة السفر، أسرع؟

١٠

خرج الطبيب من البيت تاركاً في أذن جبران كلمةً سوداء ما لبثت أن تغلغلت في سقف البيت فتدلت منه ثعابينٌ وأفاع. وفي الجدران فأطلت منها عقارب وأنياب محددة. ووقفت في الأبواب والنوافذ تنانين فاغرةٌ أفواهها.

– السل، السل – جيوش خفية جرارة – جيوش الله الخفي القدير وفي الدرجة الثالثة! أين أنت يا ربي، أين أنت؟ كنت دفنتك ودفنت نفسي معك. وأمس ظننتني وجدتك، فأقمتك من الموت وقمت معك. أو أنت تسخر بي أم تراني أسخر بنفسي؟ أمس أخذت أختي الحبيبة سلطانة واليوم ترسل جيوشك الخفية الجرارة لتسلبني أمي وأخي – وهما أعز ما في الكون لدي. فما بالك لا تستردني إذ تستردهما؟ وما بالك تتركني مغلول اليدين والرجلين، مقنع العينين، قصيص الجناح، فارغ القلب والجيب؟ الطبيب يأمر بنقل أخي وأمي إلى المستشفى. فمن أين آتي بالمال؟ إن لم يداو الناس جراحي بعقاقيرهم إلا إذا داويت جيوبهم بالفلوس، فبماذا عساني أداويك لتداويني؟ ربي وإلهي. ربي وإلهي! لا تتركني ولا تقتص من جهلي. لعلّ جيوشك الخفية الجرارة معسكرةٌ الآن في صدري كذلك وفي صدر أختي ماريانا مثلما هي في صدر أمي وأخي بطرس...

عند هذا الفكر انتفض جبران بقشعريرةٍ أشد من قشعريرة البرد. وضاقت عليه أنفاسه إذ خُيّل إليه أن كل نسمةٍ يتنشقها من الهواء حواليه تحمل فيلقًا من "الجيوش

الخفية الجرارة" ورأى نفسه كسمكةٍ في شبكة. غير أنه ما عتم أن عاد يقوي نفسه بنفسه:

– عيبٌ عليك يا جبران. أو تقبل الموت لأختك وأخيك وأمك ولا تقبله لنفسك؟ قل لتكن مشيئة الله. بلى. مشيئة الله. ماذا قادك من بلادك إلى هذه البلاد؟ – مشيئة الله. ماذا سلبك أختك سلطانة؟ مشيئة الله. ماذا نقل مرض أختك إلى أمك وأخيك؟ – مشيئة الله. ولكن لماذا شاء الله ما شاء، ويشاء ما يشاء؟ لماذا، لماذا؟ – لأنك دنست روحك بالفسق، وبالغش، وبالكذب، يا جبران. لأنك استدفأت فراش الشهوات وهو بارد. واستنعمت لحاف الملذات وفيه مناخس. لأنك خاطئٌ يا جبران. وهل يجازي الله الأم بخطيئة ابنها، والأخ والأخت بذنب أخيهما؟ وما هي الخطيئة؟ "أما أنا فأقول لكم إن كل من نظر إلى امرأةٍ لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه" – "الحق الحق أقول لكم إن حبة الحنطة التي تقع في الأرض... إن ماتت أتت بثمرٍ كثير"

ولكن ما العلاقة بين حبة الحنطة والسل في الدرجة الثالثة؟ وبين التنين الفضي الصغير الذي كان يتنفس بروح الصندل وهذا التنين الواقف بالباب والقاذف من جوفه حممًا ونقمًا؟ وما العلاقة بين «الملاك الحارس» – آه لو تعرف بما أنت فيه الآن يا جبران. بل خير لها ألا تعرف. وحسنًا فعلت عندما التقيتها أمس في الشارع فلم ترد تحيتها. هي عابرة طريق في حياتك وأنت عابر طريق في حياتها. أما تلك التي تركتها في بيروت؟.. هي كذلك قد عادت إلى ربها مثلما عادت سلطانة.

حقًا إن ما صورته اليوم لجميل – عودة الروح إلي الله. وأجمل منها ستكون "قصة الأفكار" التي ما برحت تعذب خيالك منذ أيام. أين قلم الرصاص والترمومتر وقصة الأفكار ورقصة الموت. المتحف والمستشفى. نداء آلهة الفن وسعال الأمل المصدور. الجيب الملتهب والثلج المنهمر وإذا ذكر الثلج فرّ جبران من البيت وهو يشعر كأنه مقذوف من فوهة بركان. وما إن أحس بلذعة الهواء خارجًا، وبالثلج يفرش

بساطًا ناعمًا لقدميه ويتسابق لتبريد عينيه ووجنتيه، حتى راح يهيم على وجهه، مرددًا مع كل خطوةٍ أو خطوتين: "أين أنت يا إلهي، أين؟"

– ماريانا، ستهلكين عينيك يا أختي بهذا الخيط وهذه الإبرة، وعلي نور الغاز.

– وماذا نعمل، وهذه الإبرة وخيطها يدفعان أجرة البيت وثمن الغاز ويقيتان جسدينا ويكسوانها. أو نستعطي قوتنا وكساءنا من الناس؟

١١

– ماريانا ماريانا، إن إبرتك تثمل عيني، وخيطك يشد على عنقي.

– ما لك يا جبران؟ لا أكاد أقول كلمةً إلا جرت دموعك. فهل جرحتك يا روح أختك بما قلت؟

– لا تخافي من دموعي يا أختي. فالمحبة إن بلغت أعماق القلب أترعت المدامع. وإبرتك وخيطها محبةٌ صافية. مع ذلك يشق عليّ أن أراك تدفنين أيامك ولياليك في ثقب إبرةٍ لتعوليني بدلًا من أن أعولك. وأن تصرفي نور عينيك ليبقى في عيني نور.

– دعك من عيني فلا خوف عليهما. وما بالك تنسى عينيك؟ فأنت تصور طول النهار وتكتب حتى أواخر الليل. وإن اعترضتك في ذلك زعلت مني.

– هي محنةٌ يا أختي لا مهنة. ولولا محنتي لكنت اليوم مع أمي وبطرس وسلطانه. أتعرفين ما يقول الناس؟ يقولون: "أليس من الغبن أن يموت بطرس ويبقي جبران؟" أتعرفين ما قاله أبي في بشرى؟ قال:"كنت أرثي لو مات وحيدي وبقي بطرس". ولكن ما يتوجب في نظر الناس لا يتوجب في نظر الله. لو كان الموت قصاصًا لكان من الحق أن أمضي ويبقى بطرس وتبقى أمي وسلطانه. وقد تكون الحياة عقابًا، ويكون الموت ثوابًا يا ماريانا. وعقابنا أن نذوق مرارة اليتم – يتم الأم والأخ والأخت. لكن في عقابنا ثوابًا – فقد عرفنا أحنّ الأمهات، وأحب الإخوان، وأطهر

الأخوات. ويظهر أن نسيج حياتك وحياتي لما يكتمل بعد، وأن فيه خيوطًا تربطنا بنسيج حياة أناسٍ آخرين على الأرض نعرف اليوم بعضهم ونجهل الآخر. لكننا سنعرفهم كلهم قبل أن نبرح هذه الديار. إن نسيج حياة أمنا وأخينا وأختنا قد اكتمل. والسر هو في أنه لم يكتمل إلا في بوسطن، وأن الأصابع التي لملمت خيوط سداه ولحمته كانت أصابع السل. هنالك سرٌ كذلك في زمان اكتماله ومكانه: سلطانة في البيت في إبريل سنة ١٩٠٢، بطرس في البيت في ١٢ مارس سنة ١٩٠٣، أمي في المستشفى في ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٣. وها نحن في سنة ١٩٠٤ وقد لا ندرك نهايتها. لقد ذهبت أمي وفي قلبها حسرةٌ كبيرة، وهي أنها كانت في المستشفى فلم تر بطرس في ساعة وفاته. وفي ذلك سرٌ أيضًا يا ماريانا.

– ما القصد من هذا الكلام يا أخي؟ ألتبكي وتبكيني؟ أولا تعرف أن دمعةً في عينك تولد دمعتين في عيني؟

– ويلٌ لمن يصافح الموت بيدٍ ملوثةٍ بالآثام، مغلولة بالشهوات يا ماريانا، ذاك يجد يد الموت أبرد من الجليد، وأقسى من الحديد.

– غدا علينا أن ندفع أجرة البيت عن شهرٍ وثمن الغاز عن شهرين.

– وهنيئًا لمن مات بموت عزيزٍ عليه قبل أن يموت. فأنا قد متُّ ثلاثًا يا ماريانا وما أزال حيًا.

– لقد تركت لك الكمية اللازمة من المال على الطاولة في غرفتك.

– العالم أخرسٌ أصمٌّ يا ماريانا، والويل لمن تحرجه العازة على مخاطبة العالم.

– ولا تنس أن تشتري لك قبعةً في الغد، فقد أصبحت أخجل من أن أراك بين الناس في قبعتك الحالية.

– وللحياة دفتر تقيد فيه لكل إنسانٍ حساباته يا ماريانا. وهي تصفيها في كل ثانيةٍ. وما نحن فيه الآن هو رصيد حسابنا منذ الأزل حتى الآن.

– قم يا أخي إلى فراشك، حلّفتك برحمة أمك وأخيك وأختك.

– بل برحمة أمي وأخي وأختي أعدّي لي ركوةً من القهوة واذهبي إلى فراشك واتركيني أنهي بعض أشياءٍ لا بد من إنهائها الليلة. فقد أخبرتك أنني أنوي عرض صوري عمّا قريب، وانني قد وقفت إلى محلٍ أعرضها فيه وهو في قاعةٍ صغيرةٍ عند مصورٍ فوتوغرافي اسمه "داي". أما الصالونات المعروفة فلا تقبلني لأنني مجهول، وإن قبلتني فبشروطٍ لا طاقة لي عليها. وعليّ أن أبدا بإعداد الصور وتنميرها وتسميتها والاهتمام بإطاراتها منذ الليلة.

– أراك قد ورثت سيجارة أبيك وقهوته قبل مماته. رجوتك بحياتك يا أخي، وإكرامًا لي، أن تقلل من تلك وهذه، فإنني أخشى منهما على صحتك، وأخشى كذلك أن ترث القدح، فقد بدأت تشرب قليلًا.

– الحق عليك، فقهوتك طيبة. وهذا البيت الذي نقلتنا إليه يطيب لي فيه السهر أكثر من البيت الذي كنا فيه سابقًا ولو أنه، مثل سلفه، في حي الصينيين. ومن ثمّ فإن أنت طلقتني من السيجارة والقهوة فاحذري من أن تزوجيني من النارجيلة لا سيما نارجيلة جيراننا وإخواننا الصينيين.

– لا، لا! ألف سيجارةٍ وفنجان قهوةٍ ونارجيلة سورية، ولا مصة واحدة من نارجيلةٍ صينية.

بقي جبران يحسو القهوة ويدخن السيجارة تلو السيجارة حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل. وبينما هو يفتش عن صورة في محفظةٍ من محافظه عثر على مقال كان قد كتبه في العام السابق بعنوان "الموسيقى". وهو باكورة جهوده الأدبية الجدية. فأخذ يقرأه ساكتًا مغيرًا كلمةً هنا وعبارةً هناك، إلى أن وصل حيث يخاطب الموسيقى، فرفع إذ ذاك صوته إلى ما فوق الهمس كأنه يترنّم بما يقرأ ولا يصدق أنه هو الذي كتب ما يقرأه:

– يا ابنة النفس والمحبة. يا إناء مرارة الغرام وحلاوته. يا خيالات القلب البشري. يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح. يا رائحةً متصاعدةً من طاقة زهور الشعائر المضمومة. يا لسان المحبين ومذيعة أسرار العاشقين. يا صائفة الدموع من العواطف المكنونة. يا موحية الشعراء ومنظمة عقود الأوزان. يا موحدة الأفكار مع نتف الكلام ومؤلفة الشواعر من مؤثرات الجمال.

هنا وقف جبران يفتش عن كلمةٍ غير "مؤثرات" يكون بينها وبين "الجمال" من التجانس مثلما بين "نتف الكلام" و"الأفكار". وإذ لم يهتد إليها راح يتابع القراءة:

– يا خمرة القلوب الرافعة شاربيها إلى أعالي عالم الخيالات. يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين.

وظل يصحح بعض العبارات، ويربت نفسه على بعضها، إلى أن أذّن الديك بالفجر. فانطلق جبران إلى فراشه قائلا في نفسه:

– يجب أن أصدر هذا المقال في شكل كراس. فهو جدير بالنشر على حدة. وسيقرؤه الناس معجبين متسائلين: من هو جبران خليل جبران هذا؟

١٢

بين النجاح والفشل، مثلما بين الموت والحياة وكل المتناقضات، خطٌ من الظل المتنقل تنظر إليه في لحظةٍ معلومةٍ من الزمن فلا يصعب عليك أن تقول في هذا الأمر إنه ناجح وفي ذاك إنه فاشل. ثم ينتقل الظل فتنظر وإذا بالنجاح فشل، وبالفشل نجاح.

مضى على معرض جبران بضعة أيام ولم تذكره الصحف إلا تنويهًا، ولا ازدحم فيه المتفرجون كما كان يتوهم صاحبه أنهم سيزدحمون، ولا بيع من رسومه رسمٌ واحد، هو الفشل بعينه، والفشل الذي ما بعده فشل.

كان جبران جالسًا في زاوية من زوايا معرضه الصغير يحدق في مجلةٍ بيده دون أن يرى حرفًا من حروفها. وكان يسلي نفسه بنفسه فيذكر بعض الذين زاروا المعرض وكيف كانوا يمرون بالصور كأنهم يمرون بطلاسم فيقولون:

– هذه جهود ولدٍ صغيرٍ ومن العيب أن تعرض على الجمهور كأثمارٍ فنيةٍ وبالأخص ذكر جبران رجلاً جاء وبرفقته نساءٌ ثلاث ثم أخذ يحدثهن عن الفن كأنه يلقي عليهن محاضرة. وكان كلّما اقترب من صورةٍ على الحائط يبين لرفيقاته ما فيها من ضعفٍ وخللٍ وتنافر. فقال فيه جبران:

– يا له من حمار!

على عكس امرأةٍ جاءت برفقة رجالٍ ثلاثة وكانت تقودهم من صورةٍ إلى صورةٍ فتهتف هتاف إعجابٍ عند معنىً عميق، أو ظلٍ دقيق، وتختم كلامها كل مرة: "ياللخيال. ياللخيال!" وفيها قال جبران:

– إنها تفهم ما تقول.

وبينما جبران يفكر في صوره تفكير الأم ببناتها الحسان اللواتي لم يوفقن إلى أزواج، ويهوّن فشله على نفسه، إذ دخلت القاعة سيدة فحدقها جبران بطرف عينيه ثم عاد إلى المجلة في يده كأنه يلتهم كل حرفٍ من حروفها التهامًا. وقد شاء بذلك أن يري السيدة قلة اكتراثه للزائرين كأنه ملّ ازدحامهم وضوضاءهم، وكأنه أكبر بكثيرٍ من أن يأبه لما يقولون، أو يهتمّ بما يحبون أو يكرهون، ويشترون أو لا يشترون. إلا أنه عاد يسرق لحظاتٍ من الزائرة الغريبة فرآها تدرس الصور درس من يرغب في التوصل إلى أسرارها. وذكر إبرة أخته ماريانا وخيطها فقال في نفسه:

– لعلّ هذه السيدة تبتاع صورة.

فنهض عن كرسيه ومسد بيده شعره الطويل إلى الوراء، وبابتسامةٍ تقطر لطفًا واحتشامًا تقدم من السيدة وخاطبها:

– هل تريد سيدتي أن أفسر لها بعض هذه الصور؟

– إني أكون ممتنةً لك يا سيدي جدًا جدًا. ولا أنكر عليك أنني بحاجةٍ إلى من يفسر لي مثل هذه الصور. فهي ليست من المألوف في الفن. وأنا، وإن كنت من عشاق الفن، (هنا قال جبران في قلبه: ما أكثرهم في هذه البلاد وما أكذبهم! ألعلّك منهم؟) لست من الفنانين. فهل أنت يا سيدي أحدهم؟

– لي الشرف أن أنتمي إليهم.

– وهل تعرف صاحب هذه الصور؟

– أنا هو يا سيدتي.

– إني سعيدةٌ بمعرفتك يا مستر جبران، اسمي ماري هاسكل. وأنا رئيسة مدرسة "مس هاسكل" للبنات في هذه المدينة في شارع مارلبورو ولعلّك سمعت بها. المدرسة أسستها أختي. واشتريتها منها في العام الماضي عندما تركت أختي عائلتها الكبيرة لتؤسس عائلةً صغيرة لتتزوج.

– بلى. سمعت بمدرستك يا سيدتي. وهي من أحسن مدارس البنات في هذه المدينة. صدّقي أني سعيدٌ جدًا بالتعرف إليك يا مس هاسكل.

– اعذرني إذا ما سألتك من أيّ البلاد أنت. فأنت تلوح لي أفرنسيًا أو إيطاليًا.

– بل أنا من لبنان.

– لبنان؟ لبنان الأرز المقدس ونشيد الأناشيد الجميل؟

– نعم. لبنان الأرز ونشيد الأناشيد. وقد ولدتُ عند أقدام أرز الرب علي كتف الوادي المقدس، في بلدةٍ تدعي بشرى.

– لعلّك درست الفن في باريس.

– درسته على نفسي وعلى بعض المصورين في بوسطن.

– حقًا إنك قد أحرزت منه قسطًا كبيرًا وأنت لا تزال في مقتبل عمرك.

– تفضلي واجلسي يا مس هاسكل.

– لا، لا، ما جئت لأجلس بل لأدرس. أفلا تفضلت ويسرت لي هذه الصورة؟

وأشارت إلى صورةٍ على الحائط.

– لقد دعوت هذه الصورة "عودة الروح إلى الله" لعلك تعتقدين اعتقادي أن كل ما في الكون من محسوسٍ ليس إلا رموزًا للحياة غير المحسوسة. وأن القصد من الفن ليس تقليد الرموز بل تفسيرها برموزٍ جديدةٍ. الوجه الذي ترينه في أعلى الصورة هو وجه الله. أنا أعلم، كما تعلمين، أن الله لم يره أحدٌ بعينٍ حسية. أما الخيال فقد رآه كثيرون. ولو كنا كلنا أخيلة لما احتجنا إلى رموز. لكننا في عالم الحس. والخيال يتعذر عليه أن ينقل ذاته إلى الحواس ما لم يتخذ لذاته جسمًا محسوسًا. والآن لك أن تنظري في هذا الوجه وتترجميه من المحسوس إلى غير المحسوس. ولعلك إذ ذاك تبصرين ما حاولت أن أودعه من معاني الألوهة. أو أكثر منه. ولعلك إذ ذاك تنظرين إلى الخيال الناري الصاعد من أسفل الورقة نحو الوجه فترين فيه روحًا انبثقت من الله وبعد الموت عادت إليه. الفن يجب أن يكون خطابًا من خيال الفنان إلى خيال الناظر. لذلك أتحاشى في تصويري أن أشغل حواس الناظر دون خياله. ومن ثم فالقوالب التي يتخذها الفن يجب أن تكون جميلةً وخاضعةً لنواميس الجمال. وللجمال نواميسٌ إذا تعداها الفن لم يكن فنًا.

– كلامك جميلٌ يا مستر جبران ومعقول. وحتى الآن لم يكلمني بمثله فنان. ماذا تقول لي في هذه الصورة وقد استوقفتني طويلًا وأشكلت عليّ معانيها؟

– وماذا استوقفك فيها لأول وهلةٍ؟

– استوقفني هذه الأجسام العارية المتماسكة بعضها ببعض وكأن قوةً تقذفها إلى فوق قذف عمود من الماء ثم تهوي بها إلى تحت وتبعثرها كقطراتٍ فوارةٍ إذ تهبط إلى الحوض.

– أو لم تحسي بشيءٍ وأنت تنظرين إلى هذه الأجسام وتقاطيعها والمعاني التي تبدو لك في وجوهها؟

– هي أجسامٌ متألمةٌ ووجوهٌ متألمة.

– إذن لست بحاجةٍ إلى تفسيري. فقد دعوت الصورة "فوارة الألم" وقد شئت أن أمثل بها القوة التي تعصر من النفس كل زوائدها فلا تبقي إلا على عصارتها الخالصة. والألم أفعل في النفس من اللذة. وما الحياة كلها إلا فوارة من الألم.

– ولماذا تكثر من الأجساد العارية؟

– لأن الحياة عارية. والجسم العاري هو أقرب وأجمل رمزٍ للحياة، فإذا ما صورت جبلًا في شكل كومةٍ من الأجسام العارية، أو شلالًا في هيئة سلسلةٍ من الأجسام العارية الهاوية من فوقٍ إلى تحت، فلأني أرى الجبل كومةً من كوم الحياة، والشلال مجرىً من مجاري الحياة.

– أراك كذلك تكثر من رموز الموت والألم. فهل في ذلك معنىً غير معنى الموت والألم؟

– لأن الموت والألم كانا نصيبي الأكبر من الحياة حتى اليوم. فبين الرابع من إبريل سنة ١٩٠٢ والثامن والعشرين من يونيو سنة ١٩٠٣ فقدت أختي الصغرى ثم أخي الأكبر ثم أمي. وكلهم أعز ما في الكون عندي يا مس هاسكل.

– إنني أفهم حزنك يا مستر جبران. والدمعة التي أراها الآن في عينك تفهمها دمعةٌ في قلبي. فأنا، مثلك، قد فقدت أمي حديثًا. وكانت أعز إنسانٍ لدي. لقد وجدنا بيننا قرابتين: قرابة الفن وقرابة الألم.

– قرابة الألم أبقى من قرابة الفرح وأقوى من قرابة الدم.

– لقد كنت لطيفًا معي لدرجةٍ قصوى يا مستر جبران. ولست أدري بأية كلماتٍ أشكر لك لطفك. أفلا تفضلت وزرتني قريبًا في المدرسة لعل القرابة التي وجدناها بيننا لا تنتهي هنا. ويا ليتك تدري كم أنا ممتنةٌ لصديقٍ لي. فهو الذي أخبرني اليوم عن معرضك وألحّ علي بالمجيء قائلًا إنه من المعارض القليلة التي يجب على كل من يحب الفن أن يزورها. ولولاه لما أتيح لي أن أعرفك وأعرف فنك الجميل. قل لي أناجحٌ معرضك؟

– من حيث كثرة الزائرين نعم، فقد غصت هذه القاعة غير مرة بالجماهير. أما من حيث المبيع لا. كثيرٌ هم الذين أظهروا رغبةً في ابتياع بعض الصور. لكنهم لم يدفعوا الأثمان التي أطلبها. إنما عندي وعودٌ كثيرةٌ أؤمل أن تثمر.

– هي مثمرةٌ بإذن الله. أستودعك الله يا مستر جبران. وأتمنى أن أراك عما قريبٍ في مدرستي. وأشكر لك لطفك مرةً ثانية، فقد سقيتني كأسًا طافحًا بخمر الفن.

– كأس الفن طافحةٌ أبدًا، ولكن الشاربين قليل. إلى اللقاء يا مس هاسكل.

عادت ماري هاسكل إلى مدرستها وهي لا تذكر الخيط الأبيض الحريري الذي حلمت به منذ اثنتين وعشرين سنة في مدينة كولومبيا من ولاية سوث كارولينا. ولا تشعر أنها في ذلك المعرض الصغير قد لمسته بيدها. وبيدها شدّته على خصرها. بل كانت تفكر في الصديق الذي هداها إلى المعرض وفي الكلمات التي ستعبر بها عن امتنانها له وعن بعض ما شهدته من لطف الشاب اللبناني وغزارة مواهبه الفنية. وقد عجبت في سرها كيف أن الله لا يراعي العدل في تفريق هباته على مخلوقاته.

وعاد جبران إلى بيته وهو لا يعرف أنه بلمسه ليد الزائرة الغريبة قد لمس جناح الملاك الحارس الذي كان يفتش عنه منذ سنين. بل كان يقول في نفسه: "يا ليت ربي زاد في قامتي قيراطين حتى إذا وقفت بجانب امرأةٍ كمس هاسكل ما شعرت بنفسي صغيرًا مثلما شعرت اليوم".

ولم يخطر لجبران ولا لماري هاسكل ببالٍ أن الحائك الأكبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطي حياتهما من جديدٍ ليتابع حياكة النسيج الذي بدأ به منذ الأزل على منواله السرمدي.

١٣

كانت ماري هاسكل تسكب الشاي وتناوله لضيوفها موجهةً أكثر كلامها وعنايتها إلى الشاب الجالس عن يمينها:

– حقًا إنك أوليتنا جميلًا كبيرًا يا مستر جبران عندما لبيت دعوتنا ورضيت أن تعرض صورك الجميلة في مدرستنا. والفضل في ذلك راجعٌ إلى الآنسة الجالسة تجاهك فهي من مساعداتي. وبعد أن سمعتني أحدث عما رأيت في معرضك قالت: "يا ليتك تطلبين إليه أن يعرض صوره في المدرسة" وهكذا كان. وها نحن سعداء أن نراك ونرى صورك عندنا. اهتمي بجارك يا ميشلين وقدمي له بعض أقراص الحلوى. جارتك عن يمينك يا مستر جبران من معلماتنا. وهي أفرنسية الأصل. واسمها، كما ذكرته لك سابقًا، مدموازيل إميلي ميشيل. غير أننا ندعوها تحببًا "ميشلين" فهي حبيبة الكل وملاك هذه المدرسة.

– رئيستنا يا مستر جبران تقيس كل الناس بذاتها، لذاك دعتني ملاكًا، أما نحن المعلمات والتلميذات فندعوها "السنديانة".

– جذورها في الأرض ورأسها في السماء. وما نحن إلا عصافيرٌ نعشش في أغصانها ونستظل بظلها ونلجأ من العواصف إليها. نحن نضطرب لأمورٍ كثيرةٍ أما هي فهادئةٌ أبدًا. في كل يوم نأتيها بمشكلٍ بل بمشكلات. أما هي فلا يشكل عليها أمر. نتقاضى إليها في خصوماتٍ كبيرةٍ أو تافهةٍ فلا نرتد من عندها إلا راضيات. وإذا ما طلبنا إليها أن تسنّ لنا قانونًا في أمرٍ من الأمور، قالت: "لتكن المحبة قانونكنّ. فأنتن إن لم تكنّ على وفاقٍ مع أنفسكنّ لن تكن على وفاقٍ مع القانون".

– ميشلين، كفانا يا عزيزتي تحدثًا عن أنفسنا ونحن في حضرة كاهنٍ من كهنة الجمال. ما هو نظرك في الجمال يا مستر جبران؟

– الجمال هو ما نراه فنودّ أن نعطي لا أن نأخذ. هو ما نشعر عند لقياه بأيدٍ ممدودةٍ من أعماقنا لضمه إلى أعماقنا. هو ما تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة. هو ألفة بين الحزن والفرح. هو ما نراه محجوبًا ونعرفه مجهولًا ونسمعه صامتًا. هو قوةٌ تبتدئ في قدس أقداسنا وتنتهي فيما وراء تخيلاتنا. الجمال هو المقرب قلوبنا من عرش المرأة. وعرش المرأة هو عرش الله. ويا ليت الذين جعلوا من الدين لهوًا فألفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل يفقهون معنى الجمال، إذن لجعلوه معبودًا لهم.

– إنني أسمع في كلامك ما أراه في صورك يا مستر جبران. وقد قلت لي إنك تكتب بلغتك العربية. فهل طرازك في الكتابة مثل طرازك في التصوير؟ ولماذا اخترت هذا الطراز؟

– لعله اختارني ولم أختره. لقد وجدتني ماشيًا في هذه الطريق دون علمٍ أو قصدٍ مني. ولكلٍّ طريقةٌ فيما يعمل. إذن هذه هي طريقي. عندما بدأت بالتصوير لم أقل لنفسي: ها هي ذي الطريق الكلاسيكية أو الحديثة أو الرمزية أو كثيرٍ سواها فاختر لك واحدةً منها. بل ما شعرت إلا وقلمي يرسم رموزًا لما يجول في خاطري من خيالاتٍ وأفكارٍ وعواطف. يحسب البعض أن الفن في تقليد الطبيعة. والطبيعة أعظم من أن تقلد. ومهما تسامى الفن لا يأتي بمعجزةٍ من معجزاتها. ومن ثمّ فما الحاجة إلى تقليد الطبيعة وهي محسوسةٌ لكل ذي حس؟ إنما الفن أن نتفهم الطبيعة ونؤدي معانيها للذين لا يفهمونها. الفن أن نؤدي روح الشجرة لا أن نصور جذعًا وفروعًا وأغصانًا وأوراقًا تشبه الشجرة: الفن أن نأتي بضمير البحر لا أن نرسم أمواجًا مزبدةً أو مياهًا زرقاء هادئة. الفن أن نرى في المألوف ما ليس مألوفًا. لذلك أبتعد في التصوير وفي الكتابة عن كل مألوفٍ لأتوصل إلى ما فيه من معانٍ وألوانٍ غير مألوفة. ويلٌ لعينٍ ألفت الشمس إلى حد ألا ترى فيها غير وجاقٍ يدفئها ومشعل يدلها على

الطريق من بيتها إلى مخزنها. إنها لعمياء وإن أبصرت البرغشة على بعد ميل. ويلٌ لأذنٍ ألفت تغريد البلبل إلى حد ألا تسمع فيها غير نوطاتٍ متتابعة. إنها لصماءٌ وإن سمعت دبيب النمل تحت الأرض. نعم. تلك هي طريقي. وهي تعرفني وأنا أعرفها. حتى ليخيل إلي في بعض الأحايين أني سلكتها قبل أن ولدت. فأنا لا أكاد أبلغ عطفةً فيها حتى أشعر بما بعدها. ولا أنحرف عنها قيد باعٍ إلا أعرف أنني انحرفت قيد باع. فأعود إليها.

تمادى الحديث أكثر من ساعتين. ومثل كل حديثٍ يدور حول فنجان الشاي، كان يتنقل من الجليل إلى التافه، من الله إلى الطقس، ومن الفن إلى أسعار البيض، ومن الأدب إلى أخبار آخر ساعة، ومن أرز لبنان إلى حي الصينيين في بوسطن. وكان لجبران القسط الأوفر منه. فكان يفيض في الكلام عن أسعار البيض إفاضته في الكلام عن تمثال الزهرة في متحف اللوفر وعن ذراعيه المقطوعتين، مفخمًا كلامه، متباطئًا بلفظه، كأنه يتلو آياتٍ منزلات. وكان كلما قال كلمةً فتش حافظته حتى إذا ما اهتدى إلى أخرى أبهج منها لونًا، وأعذب رنة، وأثقل وزنًا، وأشد غموضًا، استبدلها بها، وإلا تعداها إلى سواها. وقد آنس من قريحته فيضانًا كان يزداد كلما التفت إلى النسوة جليساته فقرأ في وجوههن علامات الاستحسان والإعجاب. ومع أنه، في الظاهر، كان يوجه حديثه إلى الكل، لم يمكن يخاطب في باطنه إلا اثنتين: رئيسة المدرسة عن يساره والمعلمة الأفرنسية عن يمينه. أما رئيسة المدرسة فكان يخاطب رأسها. وأما ميشلين فقلبها. وكان، وهو يخاطبهما، يقابل بينهما في فكره وفي وجدانه:

الرئيسة: وجهٌ أشقرٌ مستطيل يغلب فيه النحول. جبهةٌ منفرجةٌ عالية. شعرٌ مسرّحٌ إلى الوراء ومعقود في مؤخر الرأس عقدة بسيطة. حاجبان ضن الله عليهما إلا بالقليل من الشعر. أجفان تكاد أهدابها لا ترى، تنطبق ثم تنفرج عن عينين زرقاوين مستديرتين غارقتين في حجابيهما. مغسولتين بسائلٍ ليس من بئر الدموع ولا من مستودع الضحك. أنفٌ مستطيلٌ دقيقٌ قائمٌ فوق شفتين رقيقتين تكاد أطرافهما تصل متوسط الخد الأيمن بمتوسط الخد الأيسر. إذا تلاقتا كونتا خطًا مستقيمًا. أو تباعدتا

انكشف من تحتهما معظم اللثتين وما فيهما من أسنانٍ ليست آيةً في الاتساق والانتظام. صدرٌ ضيقٌ وكتفان عاليتان تمتد منهما ذراعان طويلتان تنتهيان بكفين يكاد طولهما يكون ضعفي عرضهما، وأصابع عظمها أوفر من لحمها، ثخنت عقدها ودقت رؤوسها وتباعدت كثيرًا أوائلها عن أواخرها.

لباسها غايةً في البساطة والنظافة وقلة الاكتراث بالأزياء. ووجهها يقسم يمينًا صادقة أنه لا يعرف مساحيق العطارين. تتكلم فلا تلوك الكلام ولا ترتده، بل تخرج الكلمة من فمها تلو الكلمة دونما تزاحم أو تنافر. إذا أبدت فكرًا جاءت عليه كله، إلا على ربعه أو نصفه، وذاك بعباراتٍ منتقاةٍ صحيحةٍ لا أثر فيها للتأنق والتقعر وتعمد الفصاحة والبلاغة. في منطقها وزن ينم عن توازن عقلها. وفي عقلها صراحة تكره التبطن بالمواربة والكذب. قد تخدع لكنها لا تخدع. تسوق ولا تساق. وإن ساقت فبدون أسواطٍ ومناخسٍ وشفراتٍ حادة. وقد يهزأ بها ولكنها لا تهزأ. صراحةً كأنها سبيلٌ سوي لا يلتوي يمنةً ولا يسرة، ولا يصعد هضبةً أو ينحدر إلى واد. يخيل إلى سامعها وناظرها أن أعنة حياتها في حرزة عقلها. إذا عملت خيرًا فلأن عقلها يقول لها أن فعل الخير حسنٌ أو ارتدت عن شرٍ فلأن عقلها يدلها أن تجنب الشر حسنٌ. وإن لم يكن في نفسها مخابئ غضبٍ، أو مخالب حقدٍ، أو سهام نميمةٍ أو حسدٍ، فلأن عقلها يعظها أن الابتعاد عن الغضب والحقد والحسد والنميمة حسنٌ. إذا مشت فبخطواتٍ واسعةٍ لا رشاقة فيها. وبقدمٍ تحب الأرض وثبات الأرض.

في وجهها ما يشهد شهادة حقٍّ أنها لا تعرف شهوات الرجال. لكنه يشهد كذلك أن ليس فيه ما يوحي قبلةً يسيل معها القلب على الشفتين. أو يثير شهوةً تسوي الروح والجسد معًا. هي سنديانة، كما لقبتها تلميذاتها ومعلماتها يستأنس الضعيف بقوتها، والمسافر بظلها، والعين بطهارتها. أما الجائع فيرتد عنها جائعًا، والعطشان عطشانا. هي تلك السنديانة وليست الشجرة المثقلة بالأثمار الغرارة التي أنبتها الله في وسط الجنة وأنذر آدم أن يأكل من كل شجر الجنة إلا منها قائلًا: "إنك يوم تأكل منها تموت موتًا".

ميشلين: في شعرها الأسود لمعانٌ يأسر العين ويكهرب اليدين إلى حد أن الناظر، لولا قوانين الحشمة واللياقة، لما تمالك من لمسه وتمسيده. وفي عينيها العسليتين الواسعتين كحل من النور الذي يبرز بالنهار من أحشاء الليل ويستل الليل من بين أجفان النهار. في بشرة وجهها الصافية حمرةٌ الشقيق إذا تفشت في صفرة العاج. في ابتسامتها ضعة الطفل وطهارته. وفي ضحكتها كركرة الجدول النقي الطروب. لكنها قلما تبتسم وقلما تضحك. كأن سنيها العشرين علمتها أن في كثرة الهرج تهلكة للجمال. وفي الرزانة أمنع حصنٍ له.

تتكلم أحيانًا فيقول السامع إنها لطفلة. وأحيانًا تفوه بما يحمل السامع على القول إنها لشاعرةٌ وحكيمةٌ معًا. وتمشي فكأن في الأرض رفاسًا تحت قدميها أو كأن في رجليها أجنحة.

خيرها فيضانٌ من قلبها وكذلك شرها، ولا دخل لعقلها في كليهما. إذا عطفت على طفلٍ فبكل ما في كيانها من العطف دون أن تسأل ما إذا كان يتيمًا أو غير يتيم. فقيرًا أو غنيًا. وما إذا كان حقيقًا بالعطف أو غير حقيق. وما إذا كان العطف عليه واجبًا أو غير واجب. الواجب عندها مالا تطيق القعود عنه. والحق ما يستريح إليه قلبها بكليته. والحرام ما أنفت عاطفتها التدنس به. تكره الألم لنفسها ولسواها. وإذا أمكنها أن تخفف من ألم جارها أو جارتها لا تتهاون لحظة، وإن كلفها ذلك ألمًا. ولا تقول في نفسها: لقد عملت ما يرضي الله.. الله في حياتها ضباب. والجنة وجهنم كلمتان على ألسنة الكهنة وفي الكتب المقدسة.

إذا آنست من جليسها لطفًا أطلت كالبراقة من صدفتها. أو خشونةً عادت إلى صدفتها لتحمي نفسها من الخشونة. لكنها أبدًا متحفظة حريصة. لا كبرياء فيها ولا ادعاء، والذي يحسبه الناظر إليها كبرياء ليس إلا برقعًا تصون به عفة جمالها من رجاسة الشنعاء وقحة البلداء.

هي جميلةٌ وتعرف أنها جميلة. ولكن أتراها تعرف، أو تحب أن تعرف ما فعلت بجبران ساعتان بالقرب منها؟ شبهها جبران في فكره بالراديوم تحرق ولا تحترق. إذ أحس كأن في كرسيه أسلاكًا كهربائيةٍ مشحونة، وكان كلما سرت الكهرباء في مجاري دمه ومسارح خياله يستر هزاتها العنيفة بكل ما لديه من الحيل وقوة الإرادة قائلًا في نفسه: لعلّ في كرسيها مثلما في كرسي من الأسلاك المشحونة بالكهرباء. ولعلها تراني، مثلما أراها كالراديوم أحرق ولا أحترق.

في تلك الليلة أهلك جبران كثيرًا من القهوة والسيجارات والغاز، وأتلف أوراقًا كثيرةً حاول أن يرسم عليها بالكلام حرارة الجمرة التي تركتها شفتا ميشلين على شفتيه، واللهيب الذي أضرمته أنفاسها في قلبه وبين تلافيف دماغه. وقبل بزوغ الفجر بقليلٍ عانق وسادته وهو يشعر كأنه يعانق القدر الذي التقاه في شكل فتاةٍ غريبةٍ فنانةٍ ولا يصدق أن ما كان كان. وقلبه ولسانه يباركان الحياة الحبلى بالمفاجآت والأسرار.

١٤

– بماذا جئتني اليوم يا حبيبي ويا خليلي؟ أبدمعةٍ أم بابتسامة؟

– بل بابتسامةٍ تستحق ابتسامة. يا ليتك تعرفين العربية يا ميشلين، إذن لقرأت لك قصائدي كما أقرأها لنفسي، وما اضطررت أن أكون ترجمانًا. أتعرفين أن القطع التي أنشرها في الجريدة العربية في "نيويورك" بعنوان "دمعة وابتسامة" تتناقلها الصحف في كل أطراف العالم؟

– وذاك بالطبع يغيظك جدًا جدًا. إني لأخشى إن أنا شئت في المستقبل أن أرى وجهي في عينيك الناعستين أن أحتاج إلى سلمٍ كسلم يعقوب لأرقى بها إليك. هات اقرأ لي ابتسامتك الجديدة. والمس بشفتيك شفتي فقد كادتا تنسيان الابتسام.

احتضن جبران حبيبته وقبلها، ثم أخرج من جيبه عددًا من جريدة "المهاجر" وأخذ يترجم قطعةً بعنوان "الرفيقة":

"أول نظرة: هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها. هي الشعلة الأولى التي تنير خلايا النفس. هي أول رنةٍ سحريةٍ على أول وترٍ من قيثارة القلب البشري. هي آونةٌ قصيرةٌ تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغابرة، وتكشف لبصرها أعمال الليالي، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان في هذا العالم، وتبيح سر الخلود في العالم الآتي.

"أول قبلة: هي الرشفة الأولى من كأسٍ ملأتها الآلهة من كوثر الحب. هي الحد بين شكٍ يراود القلب فيحزنه ويقينٍ يفعمه فيغبطه. هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الإنسان المعنوي. هي عروةٌ توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها. هي كلمةٌ تقولها الشفاه الأربع معلنةً صيرورة القلب عرشًا، والحب مليكًا، والوفاء تاجًا... هي بدء اهتزازات سحريةٍ تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحي والإلهام...

"القرآن: هنا يبتدئ الحب أن ينظم نثر الحياة شعرًا وينشئ من معاني العمر سورًا ترتلها الأيام وتنغمها الليالي. هنا يزيح الشوق ستائر الأشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نتف اللذات سعادةً لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها. القرآن هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهيةٍ ثالثةٍ على الأرض. هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهرٍ ضعيفٍ ببغضه... وهو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد. هو حلقةٌ ذهبيةٌ من سلسلةٍ أولها نظرةٌ وآخرها اللانهاية...".

– ومن هي رفيقتك هذه المحظوظة يا خليل؟

– ميشلين، يا شريرة. أنت تداعبين حيث المداعبة إثم. عندما يجلس القلب على عرشه فلتخر كل الحواس ساجدةً. ولتسبح بصوتٍ واحد قدوس. قدوس. قدوس.

– قدوس. قدوس. قدوس. ومتى تقترن برفيقتك يا خليل؟

– لقد اقترنت بها أمام الله، لقد جعلت من جسمي وجسمها هيكلًا واحدًا طاهرًا لعبادة الحب الواحد الطاهر. وجعلت من روحها وروحي عرشًا أزليًا أبديًا للإله الأزلي الأبدي. قبل أن يقول الله للنور "كن" كنت وإياها في النور. ومن قبل أن يخلق الله آدم وحواء كنت وإياها آدم وحواء في جنة أحلام الله. أنت لا تعرفين من أنت يا ميشلين. أما أنا فأعرف. لقد عرفتك قبل أن ولدتك أمك. فقد كنت شوقًا هاجعًا في أعماق كياني قبل أن صرت كلمة مرتعشة بين شفتي الحياة. وقد كنت حياة في عروقي قبل أن مشيت دمًا سخينًا في مفاصل الأرض. وكنت دقةً علويةً في قلبي قبل أن تكوني نبضًا راقصًا في ساعد المسكونة. وما فصلتنا الحياة يومًا إلا لتجمعنا، ولا جمعتنا إلا لتبصر نفسها كاملةً بكمالنا، واحدةً بوحدتنا، أزليةً كما نحن أزليان، أبديةً كما نحن أبديان. منذ ولدتُ وأنا أفتش عنك. ومنذ ولدتِ وأنت تفتشين عني. كل صوتٍ خرج من صدرك حتى ساعة التقينا كان معناه: أين أنت يا خليلي، أين أنت؟ وكل خطوةٍ خطوتها حتى اليوم كانت لتدنيك مني. وما أهلك وأهلي: من مات منهم ومن لا يزال في قيد الحياة، وما كل من عرفناهم من أعداءٍ وأصدقاء، وما كل ما انتابنا من ألمٍ ولذة، وما كل ما أكلناه وشربناه، وحلمناه واشتهيناه، غير حروفٍ وكلماتٍ تتألف منها مقدمة السفر السري الذي هو حبنا.

– قدوس. قدوس. قدوس. لقد اقترنت برفيقتك أمام الله يا خليل، فمتى تقترن بها أمام الناس؟

– ما أكثر ترابك وأقل تبرك يا ميشلين. الناس. الناس. الناس! ما همي بالناس وبما يقولون ويفعلون؟ هل جمعوا مرةً بين قلبين متحابين إلا ليفصلوهما؟ أو ربطوا متناقضين إلا ليقتلوهما برباطهم؟

– خليل، حبيبي، نور عيني، حبة قلبي هبني كنت ترابًا قبل أن عرفتك، فقد حولني حبك تبرًا.

– لا ولن يحولك تبرًا ألف حب كحبي. الناس. الناس. الناس. أنا أكره الناس وسبل الناس. وأكره من يحبهم ويسير في سبلهم. هم كالدجاج لهم أجنحةٌ ولا يطيرون. وألسنةٌ ولا يغردون. ومخالب ولا يفتشون بها إلا عن الديدان والأقذار. هم لا يبيضون إلا في أكنان تقاليدهم المظلمة وأنظمتهم النتنة. أعطيني ولو فرخ نسرٍ واحد وخذي كل دجاج الأرض.

– ولمن ترسم رسومك يا خليل: أليس للناس؟ ولمن تنظم قصائدك يا خليل: أليس للناس؟ وبأقلام من تكتب وترسم يا خليل؟ أليس بأقلام الناس؟ وخبز من تأكل يا خليل أليس خبز الناس؟ ومجد من تطلب يا خليل: أليس مجد الناس؟

– أنت منهم. أنت كذلك ابنة الديدان والأكنان. وأنا كالنسر لا أرضى غير الفضاء ميدانًا. ولا أطيق أن أشرف على الحياة إلا من القمم العالية. فسبحان من جمع بين النسر والدجاجة!

– وأنت لا تأنف من أن تغذى جسمك ببيض الدجاج ولحومها يا خليل.

– جسمي لا روحي.

– إذن أنا غذاءٌ لجسمك لا أكثر ولا أقل. أنا مطيةٌ لشهواتك. أنا ألعوبةٌ في يديك. وحبنا ليس إلا فرخ دجاجةٍ؟ يا ويل هذا الحب كم خدشته مخالب أنانيتك النسرية وهو ما يزال فرخًا. والآن أراك عازمًا أن تقضي عليه. أنت لا تعرف إلا نفسك، ولا تهتم إلا بنفسك، ولا تؤمن إلا بنفسك. أقول لك إني أصبحت مضغةً في أفواه بنات المدرسة ومعلماتها، فتجيبني: الناس. الناس. الناس. ثم تأمرني أن أكتم السر عن كل الناس، وبالأخص عن رئيسة المدرسة، وتدير ظهرك وتنصرف عني. تقرأ لي قصائدك ثم تؤنبني إذا لم أهتف هتاف إعجابٍ لكل عبارةٍ أو مقطع. وتقول إنني من ترابٍ فلا أفهم جمال روحك السماوية. ألا اجعلني رفيقةً تحسن المشي في مسالك الأرض قبل أن تجعلني شاعرةً تجوب رحاب الجو. ألا اجعلني دجاجةً سعيدةً قبل أن تجعلني نسرًا قويًا. ألا اجعلني إنسانًا راضيًا قبل أن تجعلني إلهًا كاملًا. لقد أشبعتني

شعرًا حلوًا وخصامًا مرًا. إذا كان حبك قطرة من العسل في كأسٍ من العلقم فإني محطمة كأسي الآن. ولعلّ الله الذي تؤمن به لا يهملني.

– ميشلين، لقد سئمت نفسي الخصام، فارحميني وارحمي نفسك. واصفحي عن مرارةٍ في قلبي لا يزيلها إلا حبك. أنت أنت رفيقتي منذ الأزل وستبقين رفيقتي إلى الأبد. وسأقترن بك أمام الناس حالما يتيسر لنا ما نظهر به بين الناس. ميشلين، قولي لي: هل تدري الرئيسة بشيءٍ من أمرنا؟

– لها عينٌ ثالثةٌ تبصر كل شيء، وأظنها تعرف لكنها تتجاهل.

– يا ليتك تعرفين بعلبك. لكن ستعرفينها إن شاء الله. ستعرفين لبنان.. لبناني. وستعرفين جلال بعلبك، وهيبة تدمر، وجمال البحر المتوسط. أو تدرين ما يجول بخاطري؟ قصةٌ خياليةٌ أجعل بعلبك مسرحها. ومحورها حبٌ قديم بين ابن كاهنٍ من كهنة عشتروت وفتاة كميشلين. وكيف كان هذا الحب يتجدد على ممر الأجيال. يموت الحبيبان ويولدان في أجسامٍ جديدة وظروفٍ جديدة. لكنهما أبدًا يلتقيان ليكملا أنشودة الحب القدسية. خليل وميشلين. وقد اخترت لقصتي عنواناً جميلاً: "رماد الأجيال والنار الخالدة". تحترق الأجيال وتمسي رمادًا أما نار الحب فمستعرة أبدًا. ما قولك؟

١٥

– لا تقولي مصادفات يا ماري. الحياة لا تعرف المصادفات. في الكون خيوطٌ لا تحصى يتألف منها نسيج الكون الواحد. وحياتك وحياتي خيطان في هذا النسيج السرمدي يتباعدان ثم يتقاربان، ثم يتعانقان، ثم يتباعدان ويتقاربان ويتعانقان من جديد. وهكذا إلى أن يتم النسيج. الحائك الجالس وراء المنوال يعرف الغاية من كل خيط. لكن كل خيطٍ لا يعرف غاية الحائك. لقد مات أخي وأختي وأمي لأنه كان من الواجب أن يموتوا في الحين الذي ماتوا فيه وبالميتة التي ماتوها. ولقد احترقت صوري

لأنه كان من الواجب أن تحترق في المكان والساعة المحتومين لحريقها. وقد يكون لي في ذلك خيرٌ كبير.

– إنها، مع ذلك، لخسارةٌ جسيمةٌ يا خليل. وكم أنا سعيدةٌ لأن الله ألهمني فابتعت من صورك اثنتين: رقصة الأفكار وفوارة الألم.

– لكل شيءٍ غايةٌ يتممها ويمضي. ويظهر أن صوري قد أتمت الغاية التي وجدت من أجلها، ويكفيها أنها كانت واسطةً لتجديد العلاقات بيننا.

(وأضاف جبران في قلبه – وبيني وبين ميشلين)

– أراك، من بعد ما اهتديت إلى عقيدة التناسخ، ترد كل شيءٍ إليها حتى احتراق صورك. لله كم تغيرت في السنوات الأربع التي عرفتك في غضونها!

– لقد كنت ضائعًا بين الموت والحياة. وكنت كلما فكرت في العلاقات البشرية أشعر كأني في سراديبٍ من الطلاسم. أما في التناسخ فقد وجدت مفتاح الحياة والموت ومصباحًا ينير لي سراديب العلاقات بين الناس.

"تأملي يا ماري كم خطوةً خطوناها قبل أن نلتقي. وكل خطوةٍ كانت نتيجةً للتي قبلها وسببًا للتي بعدها. وضعتك أمك في الشهر الثامن فكنت، كما تقولين، رأسًا وعينين وفماً.

– لا يزيد وزنك على الخمس أواقٍ، ولا أحد يؤمل لك بالحياة. وبالرغم من ذلك حييت بين خمس أخواتٍ وأربعة إخوانٍ. وتغلبت على نقص الولادة وعراقيل الفاقة.. فأنهيت مدرسةً عاليةً من مدارس البنات في هذه البلاد. وكنت تعصرين الدولارات لدفع الرواتب المدرسية من خرقة غسل الصحون ومن فوهة الفرن حيث كنت تخبزين عددًا معلومًا من الأرغفة في النهار: أو من مفاتيح البيانو عندما كنت تعلمين الموسيقى. وأخيرًا توصلت إلى ابتياع مدرسة أختك في بوسطن. من كولومبيا..سوث كارولينا.. إلى بوسطن. ومن طفلةٍ مشوهةٍ في الولادة يشتهي لها

الناس الموت إلى رئيسة مدرسة تطلب لها تلميذاتها ومعلماتها طول العمر. لو تغيرت خطوة واحدة في حياتك لتغيرت كل حياتك.

"وأنا ولدت بعدك بعشر سنين. ولا علاقة في الظاهر بين أهلي وأهلك ولا بين بشرى وكولومبيا. ولا بين سنة ١٨٧٣ و١٨٨٣. ومع ذلك، لو لم أولد حيث ولدت وحين ولدت. ولو لم يكن أبواي في نفارٍ مستمر. ولو لم يكن لي أخٌ اسمه بطرس لما هجرنا بلادنا. ولو لم يكن لأخي وأمي معارف من أبناء بشرى في بوسطن لما انتقينا بوسطن من كل مدن الولايات المتحدة وقراها، ولو لم أولد وفي ميل إلى التصوير لما صورت. ولو لم أصور لما عرضت صوري. ولو لم أعرض صوري حيث عرضتها وحين عرضتها لما اتفق لصديقك أن يراها، ولو لم يخبرك صديقك عنها وكان لا يقعدك مرضٌ أو شغلٌ عن الذهاب لما ذهبت إلى المعرض، ولو لم يتفق وجودي في تلك الساعة هناك لما رأيتني. ولو كان معك رفاقٌ لما اقتربت منك وسألتك إذا كنت تريدين أن أفسر لك بعض الصور.

"ماري، ماري. أو كل هذه الأمور، وربوات غيرها من الأحلام والأشواق والأفكار الدقيقة التي تولدها، والتي لا يحصيها العقل، أو كلها مصادفات؟"

– لا يا خليل، غير أن الناس يدعون مصادفة كل حادثة يجهلون مركزها من حياتهم وحياة الكون.

– إن دورة الحياة لا تنتهي بعمرٍ واحدٍ ولا بأعمار. نحن نطلب الكمال، نحن نفتش عن الله، فمن ذا يجد الله في عشرين سنةٍ أو في مائةٍ أو في ألف؟ ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ. ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ. ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هكذا قال نبي العرب، وهكذا قال أنبياءٌ في الشرق كثيرون. في الهند والصين واليابان مئاتٌ من الملايين الذين يؤمنون بتجديد الحياة الفردية قرونًا تلو قرون. وفي لبنان طائفةٌ يدعونها الدروز تؤمن الإيمان عينه. ليست الحياة البشرية إلا تصفية حسابات. نموت فنترك خلفنا ديونًا لنا وديونًا علينا – من خيرٍ ومن شر – من حبٍ ومن بغض – من صداقةٍ ومن

عداوة. فنعود لنستوفي ونوفي. وسنظل نستوفي ونوفي إلى ألا يبقى لنا من رصيد حسابٍ إلا الله.

– أرجو ألا يكون الدين الذي لك في ذمتي كبيرًا يا خليل، وأن أكون قادرةً على إيفائه.

– إذا لم يكن لي غير أني لا أشعر معك بالوحشة الروحية التي أشعر بها مع باقي الناس لكفاني. ها أنا أتحدث إليك في كل بارقةٍ ألمحها بعين روحي، وفي كل شبحٍ يمر به خيالي. وكأني أتحدث إلى نفسي. أنا غريبٌ في هذا العالم يا ماري. لكنني لست غريبًا عنك ولا أنت غريبةً عني.

– خليل، لماذا لا تكتب بالإنكليزية؟ تقول لي إنك في العربية من الكتاب البارزين. وها أنت، ولا تزال في ريعان شبابك، قد أصدرت ثلاثة كتبٍ بالعربية: الموسيقى – عرائس المروج – والأرواح المتمردة. غير أنها، كما فهمت منك، لا تدر عليك فلسًا بل تكلفك فلوسًا.

– لست واثقًا من لغتي الإنكليزية بعد، ولا أظن بضاعةً كبضاعتي تلقى رواجًا في هذه البلاد.

– لقد تحسنت إنكليزيتك تحسنًا عظيمًا في السنوات الأربع الأخيرة.

– الفضل في ذلك عائدٌ إليك يا ماري.

– وأنا أعدك بتصحيح لغتك قدر استطاعتي.

– عليّ أن أهتم بالتصوير الآن. فهو أقرب موردٍ للرزق من الكتابة.

– خليل، أتحب أن تذهب إلى باريس لمتابعة دروسك الفنية؟

– من كل قلبي، ولكن...

– لكن لا مال عندك. أنا أدفع أكلاف سفرك يا خليل وأتعهد لك بخمسة وسبعين دولارًا أقدمها لك كل شهرٍ إلى أن تنهي دروسك. أفلا تقبلها مني تقدمة محبة لك وإعجاب بمواهبك الغريزة؟ ويا ليت في طاقتي أن أقدم لك أكثر من ذلك.

– ماري، ماري، ماري، (كاد لسان جبران يزلق فيقول: ميشلين، ميشلين، ميشلين) لقد أترعت قلبي حتى الفيضان. فلتكن دموعي جوابًا لك.

وبكى جبران وكانت دموعه تقول: "يا ليت روح ماري في جسم ميشلين"

يوم مولد ويوم حساب

أطلت شمس السادس من ديسمبر سنة ١٩٠٨ على "الكارتيه لاتين" في باريس وأنفذت شرذمةً من أشعتها إلى غرفة جبران فوجدته في أحضان مورفيوس. فمرت بلوحةٍ من الكرتون على منصب التصوير تحمل شبه جسم فتاةٍ عارية، وبطاولةٍ عليها أوراق وأقلام مبعثرة وزجاجة من الويسكي، وبرزمة من الحطب أمام الموقد بجانبها ركوة لإعداد القهوة العربية وفنجانان، ومثلما دخلت الغرفة كالحلم هكذا انسحبت منها وانصرفت في سبيلها.

وأخيرًا أفاق جبران، فتناول الساعة من تحت الوسادة، وإذا بها بعد العاشرة، فنفض عنه اللحاف ونهض من فراشه متواكلًا كأن ما كان في أجفانه من نعاس، وفي نعاسه من أحلام، ما برح يجذبه إلى الفراش. وأضرم نارًا في الموقد وجاء بالقهوة والركوة ثم مشى نحو النافذة بقدميه العاريتين فأحس كأن أرض الغرفة من جليد وقال: إنه ليوم برده عضاض. لكنه بعد أن رأى الشمس خارجًا استأنس بأشعتها ولو من بعيد وعاد فقال: إنه ليومٌ عضاضٌ لكن أنيابه من ذهب. وعندما فتح النافذة ليجرع بعض ما في الهواء من نور الشمس انكسرت لوحةٌ من الزجاج وسمع شظاياها تتطحن على الرصيف فقال: إنه ليومٌ رجلاه من زجاج. وقانا الله عثرته. وعندما سكب فنجانًا من القهوة وأخذه بيدٍ ثم أشعل من الموقد سيجارةً بالأخرى اندلقت القهوة على رجله فأحرقتها ووقع الفنجان من يده فتحطم على الأرض، فقال جبران: "إنه ليومٌ قلبه من الزفت، وقانا الله ناره السوداء. وسكب قهوةً جديدةً وجلس يشربها ويدخن أمام الموقد، ولغير ما سببٍ يعرفه أخذ يشعر كأن في الغرفة أشباحًا تمشي ذهابًا وإيابًا وتتحدث فيما بينها هكذا".

– ما هو الفن؟

– هو أن تحمل بطيختين في يدٍ واحدةٍ دون أن تلمس إحداهما الأخرى.

– ماهي الحياة؟

– هي أن تركض مع النهار دون أن تدرك الليل. ومع الليل دون أن تدرك النهار. وألا تنكسر في الركض رجلك أو رقبتك.

– ما هو المجد؟

– هو أن تشرب زيت السمك ممزوجًا بحامض الفينيك ولا تتقيأ.

– ما هو الحب؟

– هو أن تجدع أنفك لتضحك عينيك.

– من هو الجالس أمام هذا الموقد؟

– حطبةٌ تتدفأ بحطبة.

بقي جبران يدخن السيجارة تلو السيجارة والأشباح تتهادى حواليه وتقهقه في أذنيه إلى أن سمع أجراس نوتردام تعلن انتصاف النهار. فانتفض كمن أفاق من كابوسٍ وارتدى ثيابه وخرج من البيت. فمشى في بولفار سان ميشيل ثم توجه إلى حديقة اللوكسنبورج وقد تسلط على ذهنه بيتٌ عربيٌ قديم "إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت" فكان يمر بالناس فيراهم عناكب. حتى أنه التفت إلى الشمس فتخيلها عنكبوتًا هائلةً وتخيل كل ما على الأرض وفي السماء نسيجها. ورأى نفسه ذبابةً صغيرةً عالقةً في ذلك النسيج.

وقف جبران طويلًا أمام متحف اللوكسنبورج وصوتٌ يقول له: "ادخل، لعل ما حواليك من أشباحٍ سوداء يحفل من بعض مظاهر الفن الحديث" فيجيبه صوتٌ آخر: "إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت". فيعيد الصوت الأول الكرة ويقول: "إذن فاذهب إلى مدرستك – إلى البوزار – فعندك فروضٌ يجب تتميمها. وبعد الظهر

سيلقي أستاذٌ كبيرٌ محاضرةً عن تمثال "داود" لمايكل أنجلو. وأنت تؤله مايكل أنجلو وفنه". فيجيبه الصوت الثاني "إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت". وأخيرًا ارتد جبران عن باب المتحف وقصد حانوتًا يعرفه فابتاع رغيف خبزٍ وبرتقالتين، وعاد بخطواتٍ مسرعةٍ إلى البيت، فالتقى عند الباب بموزع البريد الذي ناوله رسالةً من بوسطن عرف للحال أنها من ماري.

دخل جبران غرفته وفض الرسالة، فإذا فيها حوالة بخمسةٍ وسبعين دولارًا، وتهنئة بيوم مولده، وعبارات جميلة تبين له عظيم إيمان ماري بمواهبه وبمستقبله في عالم الفن. وأخبارٌ محليةٌ منها أن ميشلين قد تغيرت كثيرًا بعد سفره، فنحل جسمها، وفارقت الابتسامة وجهها، وأخمد النور في عينيها. وإنها لا تكاد تكلم أحدًا إلا عند الضرورة. وقبل أن يأتي جبران على آخر الرسالة طرحها من يده وراح يتمشى في جوانب الغرفة وهو يصيح:

– ميشلين، ميشلين، ميشلين! لقد ملكت عليّ مشاعري ومفاتيح خيالي. إن فرحت فمنك، وإن حزنت فمنك، في حبك قد أصبحت شيخًا، وفي حبك قد عدت صبيًا. ماكنت أذكر يوم مولدي أو أهتم به حتى جعلت منه عيدًا يليق بالملائكة. رُبَّ وردةٍ كنت تبتاعينها بآخر فلسٍ في جيبك وتأتينني بها يوم مولدي فأشتم فيها عطر الألوهة منتشرًا من قلبك العطر. رُبَّ قطعةٍ من الحلوى كنت تضعينها بين شفتيك فأتناولها بشفتي وأتذوق فيها حلاوة الوجود التي ما بعدها حلاوة. واليوم أفيق وشذا الألوهة لا يتضوع في غرفتي من ورود حبك. وعصافير قلبك لا ترفرف فوق رأسي وترقزق في أذني. بل في فمي مرارة الوحشة. ومن حوالي أشباح آلامك وأوجاعي. وفي أذني قصقصة سخريتها وتصريف أسنان انتقامها. لقد جنيت عليك وعلى نفسي يا ميشلين. لقد لذ لي في البدء أن أذلل عنفوانك، فإذا بي رهنت إرادتي وحسي وخيالي لعنفوانك. لقد حسبتك في البدء سلوى فإذا أنت اليوم شاغل. حاولت أن آخذ دون أن أعطي. وكنت تعطينني ولا تفكرين بما تأخذين.

"بلى لقد جنيت عليك وعلى نفسي يا ميشلين عندما أشركت في حياتي امرأةً سواك، فرضيت أن أستدر جيبها وعقلها حين أنا أستدر قلبك ولحمك ودمك. ولقد كذبت عليك عندما سألتني عن المرأة التي مدتني بالمال لأدرس في باريس فأجبتك أن ليس هنالك من امرأة. وأن المال دبرته من بعض أقاربي وأصدقائي. لقد تغلب قلبك على لساني إذ شعر في الحال بوجود امرأةٍ ثانيةٍ في حياتي. فما أصدق قلبك وأكذب لساني: يا ليتني بحت لكي بكل شيء. إذن لما كانت هذه الأشباح السود تساورني اليوم وتضيق على أنفاسي. إلي يا ميشلين. إلي يا روح روحي ويا قلب قلبي. تعالي وقولي إنك صفحت عن كل آثامي. وأنا سأكفر عن كل شيء. تعالي يا ميشلين وإلا فأنا مقتلعك من قلبي حتى لو اقتلعت قلبي معك!"

ارتمى جبران على كرسيٍ بجانب الطاولة، وأخذ يبعثر بيمينه ويساره رسومًا وأوراقا كثيرة تكدست عليها، كأنه يحسبها الأشباح السود التي تناضله ويناضلها. وكان كلما رفع ورقةً تأملها قليلًا ثم طرحها من يده قائلًا: "ما النفع منك؟ ما النفع منك؟" إلى أن وقعت يده على دفترٍ خطت على غلافه هاتان الكلمتان: "دمعة وابتسامة" فأخذ يقلبه بغير تروٍ وغير نظام، وكلما وقعت عينه على عنوانٍ تأمله طويلًا كأنه يستعيد الظروف والتأثرات التي حبلت به والساعات التي ولدته، وكأنه لا يصدق أن قريحته أملته ويده خطته. وكان كلما قرأ عنوان قطعةٍ وبضعة سطور منها يخاطب نفسه معجبًا أو معاتبًا أو مؤنبًا:

– خليلي! لمن هذا الخطاب وما هو؟ آه! لخليلي الفقير وخليلي الحزين، لو علمت يا خليلي الفقير أن الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي هي التي توحي إليك معرفة العدل وتبثك إدراك كنة الحياة، لرضيت بقسمة الله... ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الأرزاء التي أصبحت مغلوبها هى تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء إلى درجات الاعتبار، لقنعت بها إرثًا...

– ما أذلق لسانك، وأرشق قلمك، وأصدق مواعظك يا جبران. وما أقل اتعاظك بمواعظك! أنت تكره الفقر والحزن فعلام تحبب للناس ما تكرهه لنفسك؟

– يا لائمي: دعني ولا تعظني... اعتزل ذكر المحرمات، فلي من ضميري محكمةٌ تقضي بالعدل عليّ وتقيني العقاب إذا كنت ذا برارة، وتحرمني الثواب إن كنت من المجرمين."إذن هو ضميرك الذي يعذبك اليوم يا جبران. وهذه الأشباح السود ليست إلا من كهوفه المظلمة. إن أنت لم تقض عليها اليوم قضت عليك غدًا. فابدأ الآن في هذه الدقيقة، في هذه اللحظة. انزع ميشلين من قلبك وماري من رأسك وعش طليقًا باسم الحب الذي لا يعرف اللحم والدم، والفن الذي لا يتقيد بألوان الأرض وأشباحها، والجمال الواصل كل ما في السماء وعلى الأرض بنور الألوهة الذي لا يدرك.

– رحماك يا نفس رحماك: حتى لما تنوحين يا نفسي وأنت عالمةٌ بضعفي؟ رحماك يا نفس، فقد أريتني السعادة عن بعدٍ شاسع: أنت والسعادة على جبلٍ عالٍ، وأنا والشقاء في أعماق الوادي. وهل يتم لقاء بين علو ووطوءة؟ أنت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمةٍ وعناق. وهذا الجسد يبقى أبدًا قتيل الشوق والتفريق. رحماك يا نفس رحماك!

– ومن هي النفس التي تسترحمها يا جبران؟ وما هو الجسد الذي تطلب من أجله الرحمة؟ أتشتهي جثة الميت عناقًا أو تخاف فراقًا؟ بل هي النفس منبع الشهوات. وهي طامعةٌ إذا طمّعتها. عجبًا ليسوع، عاش بتولًا ومات بتولًا وما كان يتحرق بحرقاتك ويتلوع بلوعاتك. أين سوطك يا جبران، أين سوطك؟ أعمله في هذه النفس حتى تذل. ذللها يذل جسدك. فهي الأميرة وهو العبد. اجلد نفسك بلا شفقة. أين سوطك يا جبران، أين سوطك؟

– اللقاء... حكماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكوا حكمتك ويستفسروا رموزك يا حبيبتي.. عظماء الأرض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق

جمالك وسحر معانيك يا حبيبي. إن راحتيك منبت خيراتٍ غزيرةٍ تملأ الأهراء يا حبيبتي إن ذراعيك منبع المياه العذبة، وأنفاسك نسيمات منعشةٌ يا حبيبي.

– هذا تقليدٌ فاضحٌ لنشيد سليمان يا جبران. وأنت تكره التقليد والمقلدين وتبشر بالإبداع. فكيف تنهى عن أمرٍ وتأتيه؟ ولكن ما هو التقليد؟ ما هو الإبداع؟ إن صاحب نشيد الأناشيد قال إن ليس جديد تحت الشمس. أجل. ليس جديد. كل ما يفعله الإنسان تقليدٌ في تقليد. غير أن بعض التقليد جميل وهو الإبداع المرغوب. وأكثره قبيح وهو التقليد الممقوت. وأنت تقلد الجميل بجمالٍ يا جبران. فأنت مبدع. هذا في منطقك منطق. وإن لم يكن كذلك في منطق الناس، فما همك من منطق الناس؟

– حديث الحب: يا حبيبة نفسي! هل تذكرين يا حبيبتي ذاك الروض حيث وقفنا وكلانا ناظرٌ وجه حبيبه؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لي أن محبتك لي لم تنبثق من الشفقة علي؟ تلك النظرات التي علمتني أن أقول لنفسي وللعالمين أن العطاء الذي يكون مصدره العدل لهو أعظم من الذي يبتدئ من الحسنة؟ وإن المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات؟

"أمامي يا حبيبتي حياةٌ أريدها أن تكون عظيمةً وجميلة. حياةٌ تؤاخي ذكرى الإنسان الآتي، وتستدعى اعتباره ومحبته. حياةٌ قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها، لأني مؤمنٌ بكونك قادرةً على إظهار القوة التي أودعني الله إياها متجسمةً بأقوالٍ وأعمالٍ كبيرةٍ مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العرف الطيب. وكذا تظل محبتي لي وللأجيال، وتبقى منزهةً عن الأنانية لتعميمها، ومتعاليةً عن الابتذال لتخصيصها بك".

" أي ماري، ماري! إن حيرتي فيك وبهجتي بك لا تعرفان نهاية. من كنا وأين كنا في حياةٍ قبل هذه الحياة؟ أكنت لي أمًا وكنت لك ابنًا، أم كنت أختي وكنت أخاك؟ أم كنت كاهنةً وكنت كاهنًا في خدمة عشتروت أو منيرفا نقدم ذبائحنا سويًا

على مذبحٍ واحد؟ عجبًا! تلمسني ميشلين فألتهب بنارٍ لا أبالي أمن الجحيم هي أم من النعيم. وألمسك فتهدأ كل لواعجي الأرضية وتضطرم نيران أشواقي التي لا تستوطن الأرض. لا. لا. أنت ما أحببتني شفقةً علي. ولا أنت تطمعين في استملاكي بما تبذلينه عليّ من المال. لكن المال يستملك يا ماري المال –كالسوس – دابة النخر –. والمال كالملح، إذا وضعت ولو قليلًا منه في كأسٍ من الخمر المعتقة تغير طعم الكأس، وأخشى أن ما تضعينه من مالك في خمرة علاقاتنا الطيبة سيغير من مذاق تلك الخمرة. غير أن الحاجة لا ترحم. وها أنا أموه على نفسي فأدعو عطاءك عدلًا لا حسنة. بلى. هو عدلٌ يا ماري هو عدل، وإن يكن العدل كلمةً غريبةً في قاموس المال. هو العدل ألا يحرم العالم مواهب كمواهبي. وهو العدل أن تكون اليد المساعدة على كشف تلك المواهب نقيةً وطاهرةً كيدك. فأنا أريد أن تكون حياتي عظيمةً وجميلةً وأنا واثقٌ من خلودها. وأنا واثق من أن محبتك الخالصة وعطفك الجميل سيستنبتان من مواهبي أقوالًا وأعمالًا كبيرةً مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العرف الطيب.

"وما هي العظمة التي تنشدها يا جبران؟ أستأتي العالم بفتحٍ جديدٍ، أم ستخلق بشريةً جديدةً؟ أسترسم ما لم يرسمه بعد أكبر الرسامين، أم تكتب ما لم يكتبه بعد أعظم الكتاب؟ ها أنت اليوم شابٌ مجهولٌ في باريس، تمر في شوارعها فلا يرفع لك أحدٌ قبعته. فهل تصبح عظيمًا إذا مشيت غدًا في الشارع فحياك كل من تلتقيهم وحادوا من طريقك وتهامسوا فيما بينهم: هذا هو. هذا هو؟ أم هي العظمة أن يتهافت الناس على رسومك ومؤلفاتك وأن تبقى، كما أنت اليوم، تساورك الأشباح السود، وتسرح في قلبك المرارة، وتقرض الوحشة ساعات وحدتك؟

"والخلود: ما هو؟ أولست خالدًا كإنسان حتى تخلد نفسك بكتابٍ أو بصورة؟ ليبق الكتاب أو الرسم ألف جيلٍ بل مائة ألف جيل. ليبقى ما بقيت البشرية على الأرض. لكن لا البشرية ولا الأرض خالدتان. فكيف تخلد بما ليس خالدًا؟ وماذا أتيت حتى الآن من طلائع الخلود حتى تكون واثقًا من خلود حياتك؟

"ها هي مؤلفاتك وها هي رسومك: "عرائس المروج". ماذا أودعته من الآثار الخالدة – رماد الأجيال والنار الخالدة – صورة جميلة الألوان لجانبٍ صغيرٍ من عقيدةٍ كبيرة – عقيدة التناسخ، وهي أقدم من كل ما تصل إليه معارفك ومعارف الناس التاريخية. مرتا البانية – حكايةٌ مثلها ألوفٌ من الحكايات جرت وتجري وستجري على الأرض. أهذه ستكون مشعلك في طريق الخلود؟ أم حكاية يوحنا المجنون، وهي ندبةٌ في طاحون ونفخةٌ في صحراء؟ لقد جاء الناصري فندد بالكهنة والفريسيين تنديدًا لن تستطيع أن تأتي بمثل بساطته وقوته. والكهنة والفريسيون لا يزالون، مع ذلك، متربعين على صدور الناس وفي قلوبهم وأفكارهم. لأن ليس في صدور الناس ولا في قلوبهم وأفكارهم معرفةٌ تقول للكهنة والفريسيين: انصرفوا عنا!

"وها هو ذا كتابك "الأرواح المتمردة" وأخلد ما فيه هو التقدمة: "إلى الروح التي عانقت روحي. إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي. إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي." فروحك وروح ميشلين خالدتان لأن الحب خالد. أما المتمردون في كتابك فقد مضوا مثلما مضى ويمضي سواهم. والذين تمردوا عليه من شؤون الحياة البشرية باق ببقاء البشرية.

"ورسومك؟ لقد التهمت النار ما التهمته منها في بوسطن. والذي صورته بعد ذلك لم يشعل سراجًا ولم يشق طريقًا في عالم الفن، فما هي العظمة التي تحلم بها والخلود الذي أنت واثقٌ منه؟ ومتى تبدأ أن تكون عظيمًا وخالدًا؟ وراءك –كم وراءك من السنين؟ خمسٌ وعشرون. واسمك لا يزال مجهولًا إلا عند القليل من متكلمي العربية. خمسٌ وعشرون سنةً –ولا عظمة ولا خلود. واليوم يوم مولدك، فبماذا تذكره؟

"في مثل هذا اليوم ولدتني أمي، في مثل هذا اليوم ولدتني أمي، في مثل هذا اليوم ولدتني أمي".

ولّى النهار وجبران يحاسب نفسه ويعاتبها، ويربتها ويمنيها بما يخزنه له الغد من المجد، وينتشل من خبايا ذاكرته أشباح ما كان، ومن زوايا خياله رسوم ما سيكون. وفي دماغه وأمام عينيه ترقص هذه الكلمات: "في مثل هذا اليوم ولدتني أمي" يطردها فتعود، ويحاول أن يلهو عنها بأمرٍ من الأمور فتلهيه عن ملهاته. وما فتئت تقفز في دماغه وتحفر في قلبه حتى نهض وأشعل الغاز وأخذ قلمًا ودفترًا وبدأ يكتب:

"في مثل هذا اليوم ولدتني أمي..

"وفي مثل هذا اليوم، منذ خمسٍ وعشرين سنة، وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك".

"في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة كأنها مرآةٌ ضئيلةٌ أنظر فيها طويلًا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات، وملامح الآمال والأحلام والأماني المتجعدة كملامح الشيوخ. ثم أغمض عيني وأنظر ثانيةً في تلك المرآة فلا أرى غير وجهي. ثم أحدق بوجهي فلا أرى غير الكآبة. ثم استنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوةً من الغبطة.

"واليوم، وقد وقفت متذكرًا وقوف سائرٍ مُتعَبٍ بلغ منتصف العقبة، أنظر إلى كل ناحيةٍ فلا أرى لماضي حياتي أثرًا أستطيع أن أومئ إليه أمام وجه الشمس قائلًا: "هذا لي" ولا أجد لفصول أعوامي غلةً سوى أوراقٍ مخضبةٍ بقطرات الحبر السوداء، ورسومٍ غريبةٍ مبعثرةٍ مملوءةٍ خطوطًا وألوانًا متباينةٍ متناسقةٍ. في هذه الأوراق المنثورة والرسوم المبعثرة قد كفنت ودفنت عواطفي وأفكاري وأحلامي، مثلما يدفن الزرّاع البذور في بطن الأرض. ولكن الزارع الذي يخرج إلى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود إلى بيته في المساء آملًا راجيًا منتظرًا أيام الحصاد والاستغلال. أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أملٍ، ولا رجاءٍ، ولا انتظارٍ"

"بقي جبران يكتب حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل. وكان بين الفينة والفينة ينهض ويتمشى في الغرفة ذهابًا وإيابًا. وكلما أحس بدمعةٍ في عينيه مسحها

بطرف إصبعه، أو بجفاف في فمه من كثرة دخان التبغ بلّه بقليلٍ من عصير البرتقال. وأخيرًا ختم ما ابتدأ به بالعبارات التالية:

"سلامٌ أيها الروح الضابط أعنة الحياة المحجوب عنا بنقاب الشمس. وسلام لك أيها القلب لأنك تستطيع أن تهز بالسلام وأنت مغمورٌ بالدموع. وسلامٌ لك أيتها الشفاه لأنك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة"

ثم تناول معطفه وقبعته وخرج يقصد مطعمًا من المطاعم الليلية ليسكت صراخ معدته الفارغة. وهو يشعر كأن جبلًا تزحزح عن صدره. وكان يقول لنفسه في طريقه إلى المطعم: "غدًا يجب أن أرسل ثلاثين دولارًا لماريانا هدية الميلاد"

فصلٌ يبتدئ وفصلٌ ينتهي

أوغست رودين، جبارٌ من جبابرة الفن وكاهنٌ من كهنة الجمال المعدودين. كأن جبران قد رأى الكثير من آثاره الفنية في باريس. وكان كلما وقف أمام تمثاله لفكتور هيجو أو "المفكر" أو "القبلة" تسحره المقدرة التي جعلت من البرونز البارد والحجر القاسي عضلات تتفجر بقوة الحياة وتشع بالعواطف الشعرية وتتأجج بالأفكار الثائرة. أما أمام صورته الكبيرة "بوابة الجحيم" فقد وقف غير مرة يدرس دقائق معانيها وتفاصيل ألوانها وتركيبها، بادئًا برسم دانتي في أعلاها ومنحدرًا إلى الوجوه والأجسام الكثيرة التي تمثل سكان الجحيم وما يعانونه من أنواع الآلام والأوجاع الأبدية.

اتفق مرة لجبران أن زار رودين في محترفه مع نفرٍ من أساتذة البوزار وتلاميذها. فقضوا في زيارته نحو ساعةٍ خالها جبران دقيقةً. لأنه أخذ بهيبة الرجل وعظمته وبساطته واستقلاله، وبما رآه حواليه من رسومٍ ملونة، وسوداءٍ وبيضاء، وتماثيل من الجص والحجر والخشب، بين كبيرةٍ وصغيرة، ومنها شكل يدٍ بشريةٍ مضخمةٍ قد انفرجت أصابعها الممدودة بعضها عن بعض وانحنت نحو راحة الكف بدرجاتٍ مختلفة. فبانت وكأن في كل عقدةٍ من عقدها قدرة الأرض والسماء، وكأن في تقاطيعها من الحس أدقه، ومن الذوق أصدقه وأرقه. حتى لا يصعب على من يتأمل كل معانيها أن يتخيلها تقبض على الطين فتجبل منه بشرًا ومودةً وكل أشكال الحياة المنظورة. وقد عرف جبران أن رودين صنع تلك اليد وسماها "يد الله". فقال في نفسه: "أهو الله خلق الإنسان أم الإنسان الله؟ ليس من خالقٍ إلا الخيال وأظهر مجالي الخيال الفن – الفن. الفن! هو الحياة والحياة هو. وكل شيءٍ يهون في سبيله. لا مجد إلا منه. ولا جمال إلا فيه. هذه هي العظمة – أن تكون كرودين – ممجدًا ومكرمًا حيثما كان للفن أثر – من بطرسبرج إلى سدني، أو استراليا، ومن طوكيو إلى نيويورك، وأن يذكر

اسمك بإجلالٍ كلما ذكر الفن، وأن يأتيك الناس من المشارق والمغارب ليتبركوا ببعض ما باركتك به الحياة من المواهب".

طرح التلاميذ على رودين أسئلةً كثيرةً لها علاقةٌ بالفن، كان يجيب على كلٍّ منها ببساطةٍ ووضوحٍ مضمنًا بعض أجوبته خلاصة فلسفته في الحياة والفن، وكان بين الآونة والأخرى يتوفق إلى كلمةٍ أو عبارةٍ أو تشبيهٍ تمر بأذهان سامعيه مرور شهابٍ في الظلمة. وجره سؤالٌ من الأسئلة التي طرحت عليه إلى التحدث عن وليم بلايك – الفنان والشاعر الإنجليزي الغريب (١٧٥٧ – ١٨٢٧). فأخبر سامعيه شيئًا عن حياة الرجل وكيف تعانقت في روحه ألاهة التصوير مع آلهة الشعر فكان شاعرًا ممتازًا في فنه وفنانًا ممتازًا في شعره.

وكيف أنه كان يرى ما لا يراه الناس ويشعر بما لا يشعر به الناس. إذ كان يرى رؤيً ويسكن بخياله عوالم غير عالمنا الأرضي. فيترجم رؤاه ومشاهد عوالمه المحجوبة عن أعين الناس تارةً برسومٍ تفتن الناظر بسحر ما فيها من أسرارٍ واتساقٍ ودقة، وطورًا بأناشيدٍ شعريةٍ ونثريةٍ كان يقرأها الناس ولا يفهمون منها شيئًا فيقولون إن في عقل صاحبها مسًا. والحقيقة هي أن بلايك لم يكن مجنونًا، بل عاقلًا بين مجانين. ومصيبته لم تكن إلا في أنه حاول أن يجعل أوضاع اللغة الصلبة مرنةً مثل الفن. وأن يؤدي بالكلام المقيد بالمنطق رسومًا وعوامل نفسية تتعدى المنطق. فكان كلما تقدم في السن وكلما تكاثرت وتنوعت رؤاه ونبوءاته، ازداد فنه جمالًا ووضوحًا، ولغته تعقدًا وغموضًا، ففي الرسوم التي وضعها لسفر أيوب إبداعٌ من الطراز الأول. أما في مؤلفاته الأخيرة فتشويش لغوي لا يلام معه قارؤها إذا دعا كاتبها مجنونًا

انصرف جبران من عند رودين وقد نسى رودين وامتلأ دماغه وخياله وكل وجدانه بشخصٍ واحد – وليم بلايك – وذهب توًا إلى بائع كتبٍ أمريكي كان قد اهتدى إليه من قبل، وأكثر ما يبيعه كتب قديمة مستعملة. وهناك حظي بنسخةٍ من تأليف عن وليم بلايك وفيها تفاصيل حياته ونماذج مختلفة من شعره ونثره وفنه،

فابتاعها في الحال وما صدق أن وصل إلى حديقة اللوكسمبرج حتى جلس على مقعد وأخذ يلتهم الكتاب الذي بيده التهام جائعٍ لرغيفٍ من الخبز.

قضى جبران في الحديقة نحو ساعتين ناسيًا كل ما في الكون إلا نفسه ووليم بلايك، وهاتفًا في أعماق قلبه: "سبحانك ربي الذي قادني اليوم إلى رودين ليقودني رودين إلى بلايك. حقًا إن الأمور مرهونةٌ بأوقاتها، فلا يحدث شيء إلا عندما تقضي الحاجة بحدوثه. كنت أظنني غريبًا في الأرض، واليوم جاءني بلايك ليؤنس غربتي. كنت أظنني تائهًا. وها هوا ذا بلايك يسير أمامي. ترى ما هي القرابة التي تجمعنا؟ ألعل روحه عادت إلى الأرض وارتدت جسدي ثوبًا؟ ما كان أجمل حياته وأهنأها! هو لم يعرف من النساء غير زوجته. وكم كان سعيدًا برفقتها، تفهمه ويفهمها، وأنا... آه لو كان لي مثل زوجته! وما بالي أتأوه وعندي ماري؟ بلى، ماري، ماري. سأتخذها زوجةً لي وإن تكن أسن مني بعشر سنين، وإن لم يكن بيننا تجاذبٌ جسدي كالذي بيني وبين ميشلين. فيكفي أن يكون بيننا تجاذبٌ روحي، وسأحيا معها حياةً زوجيةً بحتة. وسأكون سعيدًا عندما يقول الناس فيما قالوه في بلايك هو مجنون: الجنون في الفن إبداع، وفي الشعر حكمة، والجنون بالله أقصى درجات العبادة".

بدأ الليل يحتل باريس، وبدأت باريس ترشقه بنبالها الكهربائية عندما عاد جبران إلى غرفته وتحت إبطه – وفي رأسه وقلبه – وليم بلايك، وفي يده كيسٌ من الورق تعانق فيه رغيفٌ من الخبز مع أوقيةٍ من نقانق الخنزير. وعندما دخل غرفته وجد على الطاولة رسالةً مختومةً تفحص الخط على غلافها فلم يعرفه. ففضها وإذا بها عربية من فتاة لبنانية ما سبق له قط أن سمع حتى باسمها. وهي تتقدم إليه برسالتها لتبين له بعبارتها البسيطة كبير إعجابها به وعظيم امتنانها له، ولتشكر له باسمها وباسم الفتاة الشرقية إجمالًا جهوده في سبيل المرأة، فقد قرأت "مرتا البانية" و"السيدة وردة" وقرأت كل ما توصلت إليه من كتاباته فغدت تتشوق إلى لمس اليد التي خطتها وإلى التعرف "بالروح السماوية" التي أملتها. وها هي ذي الآن في باريس. فهل يثقل على

صاحب "الأرواح المتمردة" و"عرائس المروج" أن يخصص لها ولو بضع دقائق من وقته الثمين لزيارته؟

وضع جبران الرسالة من يده وهو يشعر أن غبطةً ناعمة تمشت في دمه من سطورها البسيطة، وأن العظمة التي ينشدها قد بدت طلائعها. ثم أخذ يسأل نفسه: "ترى من هي هذه الفتاة؟ أحبٌّ قديمٌ يخاطبني بلهجةٍ جديدة؟ أخيط من خيوط حياتك يلتقطه الآن مكوك القدر من جديد؟ ليتابع النسيج الذي أدعوه "أنا"؟ أجميلةٌ هي؟ أغنية؟

ها قد بدأت أكون مشعلا يستنير به الناس من بعيد، فعلي أن أجعل نوره صافياً. علي أن أكون كما يتمثلني الناس: نقياً، طاهراً، شفاف، شفوقاً، محباً للصلاح، صبوراً على الألم، مترفعاً عن الدنايا. نجني يا رب من نفسي. اغسلني يا رب من أقذاري. أصهرني يا رب في مصهر حقك".

وكلمعة الحباحب في الليل مرت في ذاكرته كلمات أمه: لا وقانا الله ساعة التجربة وبينما هو في ذلك إذ سمع طرقة على الباب، وإذا به الحاجب أتى ليخبره بأن سيدة جاءت تسأل عنه بعد الظهر؛ وأن لم تجده قالت أنها تعود في المساء. ولم تعط اسمها. وبعد أن أنصرف الحاجب ندم جبران لأنه لم يسأله أن يصف له الزائرة المجهولة. وقال لعلها الفتاة التي كتبت الرسالة، ثم أخذ كتاب بلايك والكيس وجاء بزجاجة من النبيذ الأبيض وجلس إلى الطاولة يمضغ بلايك بعينيه وروحه، بينا أسنانه تمضغ الخبز ونقانق الخنزير، ولجاجة النبيذ تساعدها في ذلك. فكان في قلبه عرس وفي معدته وليمة.

ما كاد جبران يأتي على آخر لقيمة من عشائه حتى طرق الباب ثانية. فهب إليه وفتحه وجمد مكانه مشدوها وكأن رجليه قد سمرتا بالأرض. وبعد فترة من السكون والدهشة صاح بأعلى صوته: "ميشلين!" وجلب الوحدة الواقفة بالباب إلى صدره، وضمها إليه، وغيب وجهه في ثنايا ثوبها فوق نهديها. تطوقت عنقه بذراعيها،

وألقت رأسها على كتفه، وبقيا كذلك دقائق وهو لا يسمع إلا دقات قلبها وتمنية شفتيها "خليل، خليل!"

وهي لا تشعر إلا بمرور أنفاسه السريعة الملتهبة، ولا تسمع إلا اسمها محمولاً بخفة على لهيب تلك الأنفاس: "ميشلين ميشلين!"

– لقد أمرتني فأطعت، ناديتني من وراء المحيط فلبيت فأنت، كما ترى، لا تزال صاحب سلطان علي يا خليل.

– هو الحب يا ميشلين، هو الحب يأمر فيطيع وينهي فنذعن. هو السلطان ونحن الرعية. دعيني الآن أدفئ روحي بشعاع عينيك.

وأرى أنفاسي راقصة مع أنفاسك. لقد كنت كلما مرت السعادة ببابي قلت: هذا خيالها، وكلما سمعت وقع قدميها في بيتي قلت: هذه جارية من جواريها. أما اليوم اليوم أسمعها ترفرف وتزقزق في قلبي، اليوم قد هبطت علي مع أشعة الشمس، ودخلت غرفتي مع النسيم, اليوم قد حملتني في موكب من نور. اليوم أحلف يميناً صادقة أنني اسعد الناس. ميشلين به ميشلين! أفي حلم نحن أم في يقظة؟ اليوم اهتديت إلى أخت لروحي ستكون أختاً لروحك أيضاً، روح غريبة عجيبة. روح متفردة بين الأرواح. روح شاعر وفنان انجليزي مات منذ تسعين سنة واسمه وليم بالايك، سأقرأ لك حياته يا ميشلين: وما أجملها من حياة وستبصرين في الحال أن الحياة انتدبتك لتكوني لخليل رفيقة ومعينة مثلما كانت كاترين لبلايك. وسأريك بعض رسومه وأقرأ لك شيئاً من شعره. وستحيينه كما أحببته. ميشلين، ميشلين! ما أكرم الله! ما أجمل الحياة هذا يوم كامل، هذا من أيام القدر. وما أجملك يا ميشلين هراتي خبريني عن كل شيء، متى تركت بوسطن، ومتى وصلت باريس، وكيف عزمت على المجيء دون أن تعلميني يا شريرة؟ سنجعل هذه الغرفة الصغيرة بيتنا، وهي، على ضيقها، ستكون رحبة، فحيثما كان الحب كانت المسكونة بيتا له. أين أمتعتك؟

– في المنزل

– وأي نزل؟ لنذهب في الحال ونأت بها إلى هنا

– لا ضرورة لذلك الآن يا خليل

– وماذا تعنين؟ أتكونين في باريس ويكون لك بيت عمار هذا البيت؟

– ليكن قلبك بيتا لقلبي، ولا يهمني حينئذ أين أنام، وماذا أكل وأشرب.

– حيثما يكون قلبي هناك يكون قلبك أيضاً. ومثلما آكل واشرب تأكلين وتشربين الفراش الذي افترش تفترشين. وباللحاف الذي التحف تلتحفين.

– آه خليل، خليل! أنا قانعة بأن أكون الحصير تحت رجليك، والغبار على حذائك. دعني أخدمك فأغسل ثيابك وأكنس غرفتك، وأعد قهوتك، وأطبخ لك غذاءك وعشاءك.ولكن...لا تسلني أن أكون, أن أكون حظيتك

– هذا تجديف يا ميشلين، تجديف على الحب والحياة. ما جمعه الله حذار أن يفرقه إنسان. والله هو الحب وهو الحب يربط ويحل: هو الحب شد روحينا وجسدينا منذ الأزل برباط واحد. هو الحب قال لنا كونا فكنا. حيثما جمع الحب قلبين لا ولن تفرقهما كل قوى الإنس والجن. وقلبان لم يربطهما الحب لا ولن تربطهما تعاويذ ألف كاهن وألف قسيس وتمتمة ألف قاض.. حظية...حظية! رب حظية كانت الشرف في عين الحياة من ألف زوجة قدست رباطها شرائع الأرض ورذلته شرائع السماء. الحب لا يعرف إلا نفسه، ولا يدين بدين غير دين نفسه، ولا يتقيد بشرع غير شرع نفسه، وشرع الحب هو الحرية، كل ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وأفراحها. أما البشر فمحرومون هذه النعمة، لأنهم وضعوا أرواحهم الإلهية شريعة عالمية محدودة. وسنوا لأجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً. وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً. وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً ملماً، فإذا ما قام واحد من بينهم وانفرد من جامعتهم وشرائعهم قالوا: هذا متمرد شرير خليق بالنفي، وساقط دنس يستحق الموت. وأنا متمرد يا ميشلين، وسأبقى متمرداً كل حياتي. وكيف لا أتمرد على الناس وقد أنزلوا الكاهن منزلة الله؟ أم كيف أرضخ

لشرائعهم الفاسدة وقد أخضعوا ناموس الحب والحياة لناموس البطن واللذة واللياقة؟ أنا شاعر وفنان يا ميشلين. والشعر والفن ما لم يسرحا في فضاء فسيح طليق مانا بداء السل، ومن ثم وأنت تعلمين ذلك يا ميشلين فأنا ادرس هنا على نفقة البعض من أقربائي وأصحابي. فلو رضيت أن أتقيد بشرائع الناس وأن أتخذك زوجة برضى السلطة الدينية والمدنية –كأن رضي الله لا يكفي– تمكنت من ذلك. إذ لو درى أقربائي وأصحابي بالأمر لقطعوا عني معونتهم.

– بل قل، لو درت هي بالأمر – ميشلين، يا شريرة، لا تقاطعيني

– ولو درى لنقل أقرباؤك وأصحابك بأنك تساكن امرأة ليست زوجتك، أفما كانوا يقلعون عنك معونتهم؟

– لا، لا يستحيل أن يدروا، فهم في بلاد ونحن في بلاد

– والحياة التي تؤمن أنت بها يا خليل، وتقول أن لها عينا تبصر كل شيء، وأذنا تعي كل شيء، أهي كذلك في بلاد ونحن في بلاد؟ ويسوعك الذي قال: "ليس خفي إلا بظهر" أهو كذلك في بلاد ونحن في بلاد؟ ورفيق روحك الجديد وليم بلايك. الذي كان شاعراً وفناناً وكان مع ذلك، زوجاً صالحاً وأميناً، أهو في بلاد ونحن في بلاد؟ بل قل أنت في بلاد يا خليل وميشلين في بلاد. أنت خلقت للشعر والفن وأنت تعتقد الشعر والفن من السماء. وأنا –كما قلت لي مرة من التراب وللتراب. وقد كنت أظن في بساطة قلبي أن التراب، الذي ينبت القمح المفدى والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة، يصلح كذلك تربة للشعر والفن فما كان أجهلني! ما كان أغباني! ما كان أشد عماي!

ووثبت ميشلين إلى الباب شاهقة بدموعها وانحدرت عن الدرج بسرعة لم تر معها الدرجات ولا عرفت أين كانت تقع قدمها ولا إلى أين كانت تقودها. أما جبران فظل مكانه؛ وقد امتقع لونه، وجحظت عيناه وهرب قلبه من صدره واختلطت عليه مشاعره وأفكاره. ثم أحس برجفة في أعصابه ويضعف في رجليه وبسيل من الدموع

يحاصر مقلتيه فارتمى على فراشه وأخذ وسادة بين ذراعيه وضمها إلى صدره وراح يرويها بدموعه، وصوت في داخله يقول: هي النهاية، هي النهاية، لقد نحرت حبك على مذبح شهواتك يا جبران: أنت مصاب بداء الكلام يا جبران، ولأنك تخجل من كل ما فيك من ضعف بشري تعكف عليه فتستره بحلة من الكلام الجميل والألوان البهجة والكلام الجميل لا يرفع الشناعة إلى مستوى الجمال والألوان البهجة لا تصبغ الضعف قوة. وقولك أن الحب هو الله لا تجعل الشهرة الجسدية إلهاً ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة: فيجيبه صوت آخر: "سترجع، سترجع، لقد فعلت هذا قبل اليوم ورجعت، سترجع !"

لكن ميشلين لم ترجع

وفي صباح اليوم التالي تلقى جبران رسالة تنعي إليه وفاة أبيه في بشرى. سكرة، ثم صحوة، ثم سكرة

حياة الإنسان على الأرض سكرة دائمة، وليس يصحو منها قبل الموت إلا القليل من ذوي الخيال والإلهام، وصحوة هؤلاء يندر أن تدوم سنوات متوالية، كصحوة بوذا ويسوع، وأكثرها لا يتعدى فترات قصيرة من الزمن يفلت فيها الخيال من أشراك البدايات والنهايات، الحدود والفواصل، والأسباب والنتائج، والخير والشر، وكل أصناف المتناقضات، ويسبح في جو لا خصام فيه بين (أنا) إذ ليس فيه إلا (أنا) واحدة، شاملة، لا متناهية.

من فكر إلى فكر، من لذة إلى ألم، من شبع إلى جوع، من ضعة إلى رفعة، من فوز إلى فشل، من هم إلى هم، سكرة تلو سكرة في مثل هذه الأقداح يبغض الناس أيامهم ولياليهم، وهم يحسبون ما يشربونه سلافة الحياة. وكرمة الحياة براء منه. فما هو إلا من معصرة أوهامهم القائلة أن نصف الحياة شهد ونصفها الأخر حنظل. وأن غايتهم القصوى من الوجود هي أن يسرقوا الحياة شهدها ويتركوا حنظلها. ولمن يتركونه!

كان جبران واقفاً وحده عند مقدمة الباخرة بطريقة من أوروبا إلى أمريكا. وكانت الرياح تلعب بشعره وتبلل وجهه برشاش الأمواج، والشمس الماثلة للغروب قد اتخذت من الغيوم أدهاناً، وجعلت من الأفق البعيد منصباً، ومدت عليه خامة لا حد لها، وراحت ترسم عليها من الأشكال والألوان ما تعجز عنه كل فرشاة إلا فرشاة الشمس السحرية.

فمن مروج ذهب ترعى فيها قطعان من الخلائق التي لا تعرفها الأرض، إلى جبال ثلجية تحمل علي رؤوسهما بحيرات من نار، ومن هياكل مقببة تنسل من بين أعمدتها جبال من البخور والنور، إلى كهوف تتمايل في مداخلها العابسة أشباح جبابرة وأقزام، ومن حور ترقص في غابات من المرجان، إلى عجائز تندب في مقابر، ومن تنانين فاغرة أفواها وحيتان رافعة أذنابها، إلى عروش لا سلاطين عليها، ومركبات جيادها مجنحة ولا أعنة لها. رسوم تدهنها الشمس بلحظة. وبلحظة تغير أشكالها وتبدل ألوانها، وتظل كذوب من السحر تشربه العين فلا ترتوي.

لكن جبران كان ينظر إلى ما تصوره الشمس أما عيناه فلا يبصر إلا أشباحاً يطرحها فانون الذاكرة على لوحة الأفق بسرعة أين منها سرعة الشمس في تنميق الغيوم.

فكان قلبه يعج بما تثيره تلك الأشباح من غبطة راحلة وألم مقيم وفكره يحاول أن يختلس الغد بعض أسراره، ويمحو من الماضي الكثير من آثاره. ومن الآثار التي يود لو يمحوها علاقته مع تلك الفتاة اللبنانية التي كتبت إليه مرة تبدي إعجابها به ورغبتها في التعرف إليه. ومن الأسرار التي كان يود أن ينتشلها من حقيبة الغد سر ما برح يعذبه منذ أدرك أن طريق الفن طريقه. فمشى فيها وترك كل طريق سواها. وهو سر المعيشة: من أين يأتي بالمال ليعيش بشرف ويريح ماريانا من الإبرة والخيط ويستغني عن مساعدة ماري؟ أمن شق قلمه أم من شعور فرشاته؟

كثير هم الذين يعيشون في أمريكا من فنهم، ولكن أكثرهم تجار لا فنانون. والفرشاة في يدهم جارية للدولار في جيب جارهم. أما الذين يكسبون من فنهم دون أن يجعلوه سلعة فلهم شهرة واسعة تساعدهم على الكسب. والشهرة مومس إن استرضيتها كنت دونها، وأن سنحتها مالت عنك إلى الذين يسترضونها. فهل يستطيع أن يستميلها من غير أن يعفر أمامها جبين أنفته وجبين فنه؟ لكنه، ريثما يستميلها، من أين وبماذا يعيش؟

والقلم. كيف له أن يعيش من شقة؟ لقد أستلفتت كتاباته أنظام العالم العربي، ونقلت بعضها بإعجاب مجلة رزينة كمجلة جرجي زيدان وأطلقت عليه اسم (الشعر المنثور). غير أن العالم العربي عالم فقير، وقد لا يكون فقيراً لكنه لا يدفع أجراً إلا للذين يملئون فراغ بطنه، ويسترون عري جسده، أما الذين يعصرون أرواحهم وقلوبهم خمراً ويقدمونها إليه فلا يقبلها منهم إلا إذا قدموها في طاسات من جماجمهم. ولا يدفع عنها أجراً سوى (بخ..بخ) و(نعماً) كأن (بخ) و(نعماً) تكفيان غذاء للحم الكاتب ودمعه وعظمه!

ها هو ذا يعد ثلاث سنوات قضاها في باريس، وزار في خلالها روما وبروكسل ولندن وما فيهن من متاحف وآثار فنية، بشعر كأن قلبه يكاد يتفجر لوفرة ما فيه من العواطف التي بإمكانه أن يبرزها إلى الناس في أكسية بهية. وكأن خياله أرض بكر رواها الغيث فاستفاق كل ما كان هاجعاً في أحشائها من عجائب وغرائب وهو الآن يتحفز لتمزيق ما حواليه من أغشية ليدرج بألوانه المختلفة حباً وجمالاً وحراً تحت أشعة الشمس. فكيف له أن يفرج عن قلبه فيسكب عواطفه في قوالب شعرية، إذا كان فكره تائهاً في صحاري المعيشة يفتش عن الريال ولا يجده؟ وكيف يتاح له أن يستغل ما في تربه خياله الخصبة من قصائد ورسوم، مادام صاحب البيت لا يقبض شعراً منثوراً أجرة بيته، وشركات النقل والتنوير، والخباز واللحام والإسكاف وبائع الأكسية والحلاق لا يرضون بالرسوم الفنية نقداً؟ أو تخنق الحاجة إلى الدولار حاجته إلى الإفصاح عما في كيانه من عوامل زاخرة، وثائرة؟

عنده ماريانا وإبرتها وخيطها، وهي بالكاد تكفي نفسها حاجاتها البسيطة أفيرضى أن يأكل رغيفه، ويلبس برنيطته وحذاءه من ثقب إبرة ماريانا؟ وإلى متى يفعل ذلك؟ ماريانا في السادسة والعشرين وكان من الواجب أن تتزوج لكنها، من فرط حبها له، لن تتزوج ما زال هو في حاجة إلي نتاج إبرتها وخيطها. فهل يرهن مستقبلها وحياتها لمستقبل فنه وحياة أدبه، وذاك وهذه ما زالت في ضباب؟ ألا تباً للناس كيف شوهوا الحياة فقلبوها رأسا لعقب! رب ملاكم يقفلون جيوبه بالذهب، وصدره وأصابعه بالجواهر، ويتركون ذا الهام يغص بإلهام، ويذبح خياله بسكين الجزار، أو يجرفه فرن الخباز، أو يشنقه على مصراع الباب لأن ليس في يده ما يدفعه أجرة عن الباب! ولو عرف الناس قيمة الإلهام لقالوا لذويه: "لا تهتموا بما تأكلون أو تشربون أو تلبسون أو تسكنون أعطونا من إلهامكم وكل ذلك نقدمه لكم مجاناً"

غير أن الناس لا يعرفون قيمة الإلهام والملهمين فأين المهرب؟ ما كان أنعم باله من هذا القبيل في باريس، فالخمسة والسبعون دولاراً التي كان يتناولها من ماري في كل شهر كانت تقوم بحاجاته وتفيض عنها، أما الآن فمدة الدرس في باريس قد انتهت والمعونة المالية من ماري ستنقطع بلا شك وأمامه جهاد عنيف وطويل قبلما يصبح معروفاً في عالم الفن، في بلاد شاسعة كأمريكا، فيتمكن من أن يستدر معاشه من فنه فما العمل؟ وأين الملجأ؟

هناك ماري وهي تحبه، وتقدر مواهبه، وتفهم أشواقه ومطامحه، ولا تحاسبه بضعفه، ولا تدينه بإثمه، هي امرأة وكأنها ليست امرأة، فلا أثر في روحها لغيرة النساء، ولا في قلبها لشهواتهن. كأنها لم تصنع من ضلع رجل، بل جبلت كم شرفه دون قساوته، ومن عفة المرأة دون ضعفها، هو يحبها، لكن بغير الحب الذي أحب به ميشلين، يا ليته لم يعرف ميشلين ولا غيرها من النساء قبل أن يعرف ماري!

إذن لأكتفي بحبها الظاهر، ولبادلها حباً منزهاً عن عواطف اللحم والدم. أو ليس في استطاعته أن يفعل ذلك الآن، فيتفرغ بكليته إلى التصوير والكتابة، تحت

جناح ماري الدافئ وبرعاية فكرها النير وقلبها الحنون؟ علام لا، وهو بحاجة إلى من يؤنس وحدته، ويخفف من وحشته، ويرفع عن صدر خياله كابوس الحاجة. ويعتقه من الاهتمام بصغائر المعيشة؟ وماري حريصة كل الحرص فيما يتعلق بالمعيشة. والفلس في يدها أقوى من الريال في يد غيرها عندها مدرستها، ولها مورد رزق لا بأس به.فليصل حياته بحياتها – ليتخدها رفيقة شرعية – ولتبقى في مدرستها ريثما يصبح قادراً على القيام بحاجاتها وحاجاته ولينصرف هو إلى فنه والأفضل أن يتخذ له مقراً في نيويورك فالمجال فيها أوسع منه في بوسطن.بلى بلى؟ ليكن كذلك.

ما بلغ جبران هذه النقطة من تأملاته حتى أحس بتخدر في دماغه كأنه جرع كمية وافره من المسكر؟ فهز رأسه كمن به دوار، وفرك عينيه كمن يفيق من حلم مزعج؟ فرأى أمامه البحر الهادئ كأنه ملاءة زرقاء وقت شدت أطرافها بشواطئ لا تبصر ولا تحد. وكأن ربوات من أرواح اللجة ترقص تحت هذه الملاءة، فترفعها قليلاً هنا، وتخفضها هناك. ورأى أذيال بالغيوم الندية تشتعل إذ تلامس أذيال الشمس.

وأحس بالريح التي تداعب شعره ووجهه كأنهما أنفاس كل الأزمنة –ما غير منها جرعات وكلما جرع جرعة مكتوماً – ففتح لها صدره وراح يجرع منها جرعات وكلما جرع جرعة قال:

– ادخلي، ادخلي بكل ما فيك من بركات الحياة وويلاتها.

أنت ابنة الريح التي حملت روح الله حين كانت الأرض خاوية خالية وعلى وجه القمر ظلام، وروح الله يرفرف على وجه المياه. وأنت الآن تحملين كل ما تنفست به الأرض والسماء منذ كانت الأرض والسماء حتى الساعة. فادخلي إلى أعماقي، واجعليني شريكاً لكل ما على الأرض وفي السماء.

وجمع به الخيال فصار إذا ما فكر بالنور في عينيه قال هو من الشمس فالشمس في وأنا فيها. أو بالبحر، قال من البحر أرتوي فالبحر في وأنا فيه. أو الأرض، قال من الأرض أغتدي، فأنا الأرض والأرض أنا وكأن ستاراً أزيح عن

بصيرته فرأى ذاته مثل محور يدور عليه كل شيء أو مثل نقطة الدائرة تتفرع منها شعاعات لا تحصى إلى كل أطراف الدائرة؟ ورأى أن قلبه يلامس كل قلب. وفكره يحاور كل فكر. فعجب لنفسه كيف أنه، منذ دقائق قليلة كان يقرض قلبه ويرهق فكره ويكبل خياله بهموم المعيشة.

وها قلبه يرقص الآن مع أرواح اللجة تحت ملاءة البحر الزرقاء. وها هو فكره يدرج عليها ويتسلق حبال النور المدلاة من الغيوم إليها؟ وها هو خياله ينشب من أفق إلى أفق، ومن سماء إلى سماء وأصلاً المنظور بغير المنظور، وما كان بما سيكون، مبصراً أن نهاية كل أمر هي بداية آخر، وبداية كل أمر نهاية سواه. فلا بداية لشيء، ولا نهاية لشيء، ولا بداية ولا نهاية للواقف عند مقدمة الباخرة – جبران خليل جبران – ولا فاصل بينه وبين شيء. ولا عداوة بينه وبين أصغر أو أكبر ما في الكون، بل كل ما في الكون يناديه: (أنت ابني الحبيب).

دق الناقوس يدعو الركاب إلى العشاء، فأجفل جبران كمن كان ماشياً وحده في حديقة سحرية وفجأة سمع رعداً يقصف فوق رأسه

وكان الأفق قد أكمد، والليل قد شد أوتار قيثارة بالنجوم وراح يوقع عليها نشيد الموت والحياة، فمشى جبران بخطوات متباطئة عادت أفكاره إلى خمارة المعيشة وعادت تجرع فيها أكواباً من حلاوة الأمل ومرارة الهم.

نحن بالتفكير

كانت لماري هاسكل، قبل أن تشتبك حياتها بحياة جبران، كرمة واحدة هي مدرستها. وكانت تتعهدها بكل ما في فكرها من المقدرة وقلبها من الحنان. أما بعد أن عرفت جبران وأرسلته على نفقتها إلى باريس، أصبحت لها كرمتان. وكان جبران كرمتها الثانية، وكانت كرمتها الثانية أحب إلى قلبها وأقرب إلى فكرها من الأولى. فالمدرسة، مهما تعددت مشاغلها واتسع نطاقها، تبقى مدرسة تسير على برنامج محدد، وأجيال تأتي وأجيال تروح، صفوف، دروس، امتحانات، شهادات ثم عطلة. والذي يجري في سنة يجري مثله في التي بعدها.حين أن جبران لا نطاق له، ولا برنامج للقوى التي تغلي وتفور في داخله فلما جلست وأيام مرة، وأصغت إلى حديقة، وتفرست في وجهه، وتأملت حركاته، إلا أحست بخمر جديدة تدب في أفكارها، وبأجنحة قوية تطير بخيالها، وبنسمات منعشة تهب على روحها من عالم بعيد غريب. وما فكرت بوحدته وضيق حاله، واندفاعه من مطامحه وآماله، إلا مشى قلبها إليه، ولذ لها أن تنفق من روحها وجيبها عليه، فما عادت تعرف أهي المحبة تربطها به، أم الإعجاب يدنيها منه، أم الشفقة تفتح قلبها له، غير أنها، كيفما تفقدت عواطفها نحوه، وتغلغلت في أفكارها عنه لم تجد للشهوة الجسدية فيها أثراً لأنها، حتى عودة جبران من باريس، ما أحست بجاذب جسدي إلى رجل قط، ولم تكن تدري أتفرح لذلك أم تحزن، أتحسبه نقصاً في نسوتها، أم زيادة في قسمتها.

لم يكن يتعب ماري في علاقتها مع جبران غير أمر واحد وهو أنها وجدته كثير الشكوك، شديد الحرص على شخصيته، يخشى عليها أن تمس بأقل ملاحظة أو إشارة. حتى إنه ليستدعي صديقاً وفياً من أجل كلمة بريئة قد يخيل إليه أن فيها مساً بكرامته. ويستصدق عدواً لدوداً إذا سمع منه أو عن لسانه كلمة إطراء. وبقدر ما يستمر النقد من أي نوع كان، يستعذب المديح مهما كان مصدره، ويفعل المستحيل

للحصول عليه. ثم أنه، لشدة نهمه في المديح وخوفه من النقد، ولأنه تعود التفكير والكلام والكتابة والتصوير بالمجاز، كان يستخلص سواه غير معنى، ويقرأ سطوراً في سطر ويبصر ألواناً عديدة حيث لون واحد لا غير.

أما هي – ماري – فمن طبعها البساطة والصراحة في كل شيء: في الفكر، والكلام، والمعيشة بكل مظاهرها. فهي لا تخجل من أن تقول الحق وإن كان عليها. ولا تلبس منطقها أكسية مزركشة من المجاز. ولا تضمر نيات أو معان غير ما تؤديه بكلامها. لا تداجي، ولا تحابي، ولا تسمي الأشياء بغير أسمائها. ولكنها، بعد أن خبرت جبران وميله إلى التملق والموالسة، وتبرمه من الصراحة إذا اشتم فيها ما قد يحسبه محطاً بكرامته – أصبحت تخشى على علاقتها مع أن تعبث بها كلمة من كلماتها السليمة النية، أو إشارة من إشاراتها الصريحة الودية. ولم تشأ – بل لم يكن في وسعها – أن تغير طباعها فلا تقدم يدها إلى جبران إلا مقمطة بالحرير ليستنعم ملمسها، ولا تخاطبه إلا بكلمات مملوءة بالسكر ليستعذب مذاقها.

على أثر عودته من باريس زار جبران ماري هاسكل، فاستقبلته استقبال فاتح. وقبلته بقبلتها التي دعاها في أحد مقالاته "مريمية" وراح يخبرها عن كل شاردة وواردة فاته أن يخبرها عنها في رسائله. وكان أغلب حديثه عن نفسه – عن كبار الفنانين والأدباء الذين التقاهم في باريس وعن رأيه فيهم وما قالوه فيه، وعن الرسوم التي أنهاها وجاء بها إلى بوسطن والرسوم التي ابتدأ بها ولم ينهها، وعن كتاباته العربية وما أحدثته في العالم العربي من تأثير. وعن المدن والمتاحف والآثار الفنية التي زارها، والمعارض التي اشترك فيها. وكان ينمق الجميل من أفكاره وأعماله فيظهره أجمل مما هو، وينسج للضعيف والباهت منها أكسية من المجاز فيبدو الضعيف قوياً والباهت زاهياً. وإذا ما جمعت به الذاكرة فجرته إلى مشهد من مشاهد حياته الباريسية التي كان يخجل من أن تقع عليها عين ماري، محا ذلك المشهد بأذهان من الصمت إذا تعذرت أذهان الكلام، وتخطاه إلى آخر ويروقه وصفه ويروقه أن يرى ماري معجبة به، مرتاحة إلى معانيه.

منذ ابتدأ جبران بالحديث وفي فكره، وبين شفتيه، كلمة تهم بالوثوب فيردعها قائلاً لها: تصبري . تصبرى لم تأت ساعتك بعد. لعلك أكبر كلمة أفوه بها في كل حياتي، وقد أحيا لأباركك أو لعنك. أما الأذن التي ستقعين فيها فستقتبلك كما اقتبل العبرانيون المن من السماء. بلى. فهي لا شك غرني إليك. وستعلم ماري أن جبران يعرف قيمة الجميل إذا رافقته المحبة. وقدر المحبة إذا تجردت من محبة الذات. أنت كلمة كبيرة. وقد تغيرين مجرى حياتي بأسرها وتصبري، تصبري. ريثما أعد لك مسرحا يليق.

ظل جبران يحادث ماري وترصد الفرص لإطلاق سراح الكلمة التي في فمه إلى أن وقف الحديث عند حد يستدعي الصمت والتفكير. وإذ أحس أن جليسته تمادت في التأمل أخذ فجأة يدها بيده، وشد عليها، ورفعها باحترام كلي إلى شفتيه فقبلها. ثم أغمض عينيه، وبصوت كأنه صوت القدر يعلن سراً عظيماً من أسرار الوجود، قال:

– ماري ! أتمشين معي؟

فأجفلت مارى، واستغربت الانقلاب السريع في صوت جبران وحركاته وأجابته مستفهمة، وهي لا تعلم لماذا سألها مثل هذا السؤال، ولماذا تستفهم معناه:

– إلى أين يا خليل؟

– إلى حيث تدعونا الحياة

– أو تعني الزواج يا خليل؟

– نعم، هل تقطعين معي الطريق حتى النهاية؟

وببساطة الطفل، وصراحة لا سلاح في يديها لكنها، مع ذلك، تنزع السلاح من يد من ينازلها، أجابت ماري والدهشة لا تزال بادية على وجهها وفي صوتها:

– وهل أنت نظيف يا خليل: هل جسمك نظيف؟

فهم جبران في الحال ما عنته ماري بسؤالها, فقد قصدت أن تعرف إذا كان خالياً من الأمراض الخبيثة. لكنه بلمحة طرف انقلب من حمل وديع إلى أسد جريح، ومن ساروفيم يرنم أمام عرش الحب إلى ملاك تكبر على الله فطعنة الله في صميم كبريائه. فأربد وجهه، وارتجفت شفتاه، وتوترت أعصابه وتخدر دماغه، وانعقد لسانه. حتى أنه لشدة انفعاله، تمنى لو كان قطع لسانه قبل أن طرح على ماري سؤاله وسمع سؤالها.

لقد ألقى جبران سؤاله على ماري، وفي أعماق أعماقه أمنية لا يجرؤ أن يبوح بها حتى لنفسه، وهي أن تصدر من ماري كلمة أو تبدو منها حركة يتمكن معهما من الانسحاب "بنظام".

فيبقى طليقاً من زواج يدفعه عليه عقله ويحجم عنه دمه، ويكون، في الوقت ذاته، قد زاد في اعتبار ماري وتعلقها به، وصفى حساباته معها، فتركها مدينة له بدلاً من أن يكون مديناً لها. لأنها، إن تكن أنفقت عليه من مالها، فها هو ذا ينفق عليها من روحه، وبعرض أن يرهن حياته لحياتها وسعادته لسعادتها. غير أنه ما كان قط يتوقع منها مثل ذلك الجواب. فهو وإن اتفق مع الأمنية الصامتة في قلبه، لم يتفق مع تقديره لنفسه وتقديره لمحبة ماري له. فقد كان يظن تلك المحبة أرفع من محبة الذات، لا تخشى النار ولا العار في سبيل محبوبها، وكان ظن أن جبران خليل جبران إذا ما لمح تلميحاً إلى امرأة ما، كائنة من كانت، أنه يرضى بها رفيقة لحياته جعلها أسعد النساء، وها هو ذا يعرض حياته على ماري – حبيبة نفسه فتباغته بسؤال لو باغتته بمثله امرأة سواها لبصق في وجهها، أو أدمى فمها، مع كل ما فيه من تأدب واحتشام. كيف تجسر امرأة – وماري من بين كل النساء – أن تشك في "نظافته" إنها لقحة ما بعدها لقحة. إنها لطعنة نجلاء في كبد كبريائه. إنها لملمة صماء.

انصرف جبران من عند ماري هاسكل وقلبه في ديجور، وفكره في بركان. إذا مرت به أشباح ماضية رآها ذليلة وراهنة. أو تراءت له خيالات مستقبله وجدها قاتمة

عابسة، أو فكر بما كان بينه وبين ماري تلك الليلة شعر كأنه خاض أكبر معركة في حياته وعاد منها مدحوراً، مهشماً. وكلما استعاد لذاكرته ما قال وما سمع أكل قلبه الندم على كلمة قالها وما كان من الحكمة أن يقولها. أو كلمة لم يقلها وكان من الواجب أن يقولها, ما العمل؟ أتستخف به ماري إلى هذا الحد ويبقى صامتاً؟ أتجرحه مثل هذا الجرح البليغ ولا يجرحها؟ أيقطع كل علاقاته معها؟ ولكن كيف يجرحها إلا إذا جرح نفسه جرحاً أبلغ من الذي جرحته؟ أم يقطع علاقاته معها إلا إذا قطع علاقاته مع كل ما هو جميل في ماضيه شفاف في أحلامه باسم في مستقلة؟ لقد كتب لها وفيها أشياء كثيرة أو جاء اليوم ينقضها الكذب نفسه بنفسه وجعل من قلبه سخرية لدماغه. أو لم يخاطبها في مقاله الطفل يسوع والأب الطفل هكذا"

"ففي ليلة واحدة، بل في ساعة واحدة، بل في لمحة واحدة التنحي عن سنى حياتي، لأنها أجمل من سنى حياتي، بل هي الروح من وسط دائرة النور الأعلى، ونظر إلي من وراء عينيك، وتكلم معي بلسانك. ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل في أعشار قلبي.. هذا الحب العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري.. هذا الرضيع المتكئ على صدر النفس قد جعل الأحزان في باطني مسرة، واليأس مجداً، والوحدة نعيماً. هذا الملك المتعالي فوق عرش الذات المنوية قد أعاد بصوته الحياة لأيامي الميتة، وأرجع بملامسة النور إلى أجفاني المقرحة بالدموع، وانتشل بيمينه آمالي من لجة القنوط"

فكيف يمحو اليوم ما كتبه بالأمس؟ أيقضي على حب ماري مثلما قضى على حب ميشلين ويعود إلى وحدته، ويأسه ووحشته؟ بل الأفضل أن يكتب إليها رسالة ضافية فيها ترفع وتفخم. لا بل الأفضل أن يعتصم بالصمت فلا يكتب ولا يتكلم. وبعد نزاع عنيف تغلب الصمت على الكلام.

بعد أيام كان جبران، وقد التأم جرحه، وثاب إليه رشده، يفكر في توافه المعيشة التي تتضخم في بعض الأحوال وتنتفخ إلى حد أن البصر، كيفما دار، لا يرى

إلا هي، والبصيرة أني تقلقلت، لا تلمح سواها. فتصبح وكأنها من الحياة لبها، وكل ما تعداها قشور. من تلك التوافه اختلاق عذري لها حب البيت إذا جاءك في مطلع الشهر اطلب أجرة بيته وليس في جيبك فلس يحتك بفلس. وفيما هو كذلك إذا بموزع البريد يدعوه فيناوله رسالة، وإذا بالرسالة من ماري وفيها حوالة بخمسة وسبعين دولاراً، وإذا بماري تخاطبه بلهجتها المعتادة: وبمحبتها السابقة، كأن لم يحدث بينهما شيء جديد على الإطلاق!

ما أتى جبران على آخر الرسالة حتى فاضت عواطفه من عينيه وانجلت آفاق فكره. فراح يمجد الحياة ويعجب لمجاريها الخفية، وللناس الذين لا يعرفون عن تلك المجاري، ومع ذلك لا يفتئون يحددون ويختطون مجار لحياتهم، ويشقون عندما تعبث الحياة الكبرى بحدودهم وخوالهم وتجرهم في مجراها الأوسم, ألم يرسم هو لنفسه خطة منظمة للزواج؟ لقد كان بإمكان ماري أن تقول "نعم" أو أن تبدي له ما يخامرها من الخوف بطريقة لطيفة لا تجرحه. وإذ ذاك لاتخذت حياته مجرى جديداً. ولكان عما قريب مربوطاً بامرأة واحدة حتى آخر حياته. لكن ماري بسؤال بسيط، حوّلت مجرى حياتها وحياته, وماري لم تكن مخيرة في ذلك بل مسيرة، فقد ألهمت أن تقول ما قالت، وقد ألهم أن يفعل ما فعل، فكان ما كان لخير الاثنين.

بعد عام لعودته من باريس ودع جبران بوسطن قاصداً نيويورك. وكان يحمل في أذنيه انتحاب ماريانا، وفي عينيه دموعها، وفي قلبه محبة ماري وبركاتها، وفي جيبه قسماً من مالها. وفي حقيبته نسخة مخطوطة من روايته "الأجنحة المتكسرة" ونسخة مطبوعة من كتاب نيتشة "هكذا تكلم زرادشت".

الفصل الثاني

الغسق

تمخضت الفارة فولدت جبلا

في سنة ١٩٢٩ لميلاد القائل "مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا" جلس الفلس على عرشه، ونادى بأعوانه، ثم خطب فيهم هكذا:

منذ سلمني الناس مقاليدهم وأنا أدأب النهار والليل في سبيل إسعادهم، وأجترح العجيبة بعد العجيبة لأنقذهم من بأسهم وشقائهم، سمعتهم يشكون تبلبل ألسنتهم. فابتدعت لهم لساناً واحداً. وذاك اللسان أنا. أنا هو الحرف والمقطم والكلمة. وحيثما اجتمع اثنان باسمي تفاهما في الحال وإن يكن الواحد لا يفقه حرفاً من لغة الآخر. تلك هي العجيبة الأولى.

"ورأيتهم تناقشهم أرباب كثيرة. فخلقت لهم رباً واحداً. وذلك الرب أنا. أنا هو الوزن والميزان، والدين والديان. وأنا يعبدني الناس بكل قلوبهم وكل أفكارهم وكل نياتهم. أما أربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاههم لا غير. تلك هي العجيبة الثانية.

"ووجدتهم يسلكون إلى السعادة شتى المسالك، ويطرقون شتى الأبواب، فهديتهم إلى مسلك واحد هو أنا، وإلى باب واحد هو أنا. أنا هو المدخل والمخرج. وأنا الدليل والمحجة. تلك هي العجيبة الثالثة.

"وساكنت الناس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم لا بساكن راعي أغنامهم، وابن أميرتهم لا يؤكل ابن جاريتهم. وقسمهم لا يشارب زانيتهم. وسمعتهم يتبرمون من ذلك ويطلبون المساواة، فوضعت على أعناقي نيرا واحداً. وذلك النير أنا, أنا هو النير والمحراث والحارث. تحت نيري يمشي السلطان بجانب الراعي، وابن الأميرة بجانب ابن الجارية، والقس بجانب الزانية. تلك هي العجيبة الرابعة.

"ودخلت قلوب الناس فألفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف الحب في الرمانة. وألفيت الناس قد قسموا شهواتهم إلى صالحة وطالحة. فأطلقوا الحرية الأولى

وأقاموا على الثانية الحراس والحجاب. وظلت قلوبهم تصرخ إلي باسم الحرية. إذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمناً. وجعلت ثمن الشهوة الطالحة أضعاف ثمن الصالحة، فاختلط حابل الناس بنابلهم. وهكذا حررت قلوبهم من قلوبهم. وتلك هي العجيبة الخامسة.

ومشيت في الأرض فوجدت أن الناس قد تقاسموها بالمتر والقيراط. وأقاموا لقسماتهم حدوداً. وأقاموا السيف حارسا لحدودهم فلا يتعدى جار حدود جاره. ولا تعبر جنود مملكة تخوم أخرى إلا بقصد الغزو. فأقمت للناس عبارة تصل الحدود بالحدود، وتهزأ بالسيوف والجنود, وتلك العبارة أنا. أنا هو العابر والعبارة. أمر حيث السيف لا يجسر إن لمع. وأعبر حيث الجيوش ترتد من وجه المدفع. تلك هي العجيبة السادسة.

"أما العجيبة العجيبة فهي أني قد مزجت الناس في بوتقة واحدة. فجعلتهم جنساً واحداً وكانوا أجناساً. وأمة واحدة وكانوا أمماً. بل قد جعلتهم لحماً واحداً وعظماً واحداً ودماً واحداً. لأني جعلت طعامهم واحداً وشرابهم واحدا وكذلك كساءهم ومأواهم. أنا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى. ومثلما يشرب الناس قطرة من الماء جاهلين أنهم بشربها يشربون كل أصناف التراب والمعادن والنبات والحيوان والأقذار التي مرت بها كذلك يقبضون الفلس ويبتاعون به طعاماً وشراباً وكساءً ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون وإلى أين يأوون. إليكم هذا المثل:

"في الليلة البارحة باعت امرأة أشواق قلبها التائه واهتزازات دمها المحموم بكمية من الفلوس، والمرأة تدعى في قاموس الناس بفيا، وفي شرعهم آفة، وفي ناموس شرفهم قاذورة يتجنبها الشرفاء والأنقياء. وفي هذا الصباح انطلقت المرأة إلى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخورا للكنيسة وقدمت البعض تزكية إلى الكاهن. أما البخور فأحرقه الكاهن تسبيحاً لربه. وأما التزكية فابتاع بها لحم ضأن وأكل منه وأطعم عياله. أو تحسبون ذلك الكاهن، عندما أحرق البخور لربه، أحرق نزيز جرح في قلب شجرة

عطرة؟ الحق أقول لكم أنه لم يحرق لربه سوى نزيز جرح في قلب بغير. أم تظنون انه أكل وعياله لحم ضأن؟ الحق أقول لكم أنه لم يأكل وعياله سوى لحم بغي ولم يشرب سوى دم بغي. وأي الأمرين أصعب: أن يؤاكل الكاهن البغي ويشاربها؟ أم أن يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحماً واحدا ودماً واحداً؟

"إليكم مثلا آخر: أمس دخل لص على أرملة عجوز وكان قد سمع أنها تحمل في عنقها كيساً من الفلوس. فأرداها بطعنة مدية وانتشل الكيس من عنقها مغموساً بدمها. وراح ليلته فقامر بالمال وخسره، والذي ربحه منه ابتاع به ثوباً من عند تاجر. والتاجر دفعه ضربة للخزينة. والخزينة دفعته راتباً للقاضي. والقاضي حكم على اللص بالشنق. أو تحسبون القاضي أكثر براءة من اللص؟ الحق أقول لكم أنه لص مثله. اللص أراق دما بريئاً، أما القاضي فشربه.

"أجل. لقد مزجت الناس في بوتقة واحدة فجعلتهم إنساناً واحداً من حيث لا يدرون. وقد اجترحت في سبيل إسعادهم سبع عجائب كبار ما عدا الصغار. وهم مع ذلك، ما يزالون بؤساء أشقياء وأصواتهم ما تزال تصرخ إلي: "أعطنا السعادة. أعطنا السعادة!" فها أنا عازم أن آتيهم بعجيبة جديدة.. لقد بنيت لهم في سالف الأحقاب مدناً كثيرة. أما الآن فبخاطري أن أبني لهم مدينة تفوق كل ما بنيت. وسأعطي هذه المدينة إذا أن تسمع بها كل لغات الناس، وعيونا تبصر بها كل أشكالهم وأجناسهم. وسأجعل أحشاءها أوسع من أحشاء الجو. تسوق لها اليابسة خير خيراتها فلا تشبع. وتحمل إليها البحار أنفس أنفاسها فلا ترتوي. وسيكون فيها لكل شهوة مأوى، ولكل فكر مجال. ولكل خيال مسرح. فيمشي فيها إله الناس وشيطانهم جنباً إلى جنب. وتنبت أغراس فرد وسهم في مجامر جحيمهم. ويجاور المعبد الخمارة وبيت الدعارة. ويتعانق المتحف والمقصف. وتتكئ المدرسة والسجن على بساط واحد.

"وسأحقن سكان المدينة بمصل جديد. هو مصل الحركة الدائمة. فيصلون النهار بالليل ولا يهدئون. وهكذا يكون لهم في كل ساعة ما يتلهون به عن التفكير في

بواعث الحزن والألم. وسيكونون لي أطوع من بناني وألصق بي من ظلي. يكفرون بأربابهم أما بي فلا يكفرون، ويهربون من أرواحهم أما مني فلا يهربون. بل إلي في كل أمر يفزعون. إذا حملتهم من نفسي فوق طاقتهم لا يقولون: خف من أحمالنا. بل يقولون: زدنا من أحمالك، وسيضيق بهم سطح الأرض فيتخذون في جوفها أنفاقاً. ويشيدون في الجو حصوناً عالية وأبراجاً شامخة. وسأجعل أذنابهم طعاما لرؤوسهم. ورؤوسهم طعاما لأذنابهم. فيأكل بعضهم بعضا من حيث لا يعلمون.

"ها أنا قد بحت لكم بما في خاطري. وعليكم أن تخلقوه. وقد اخترت للمدينة العتيدة جزيرة في العالم الجديد واقعة بين مصب نهرين، واسمها مانهاتان. وهي اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر. فبادروا إليها في الحال وباشروا العمل، وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل أن يبرح هذا المكان وأنا معكم حتى نهاية الأزمان"

ما ختم الفلس خطابه، حتى قام من بين الحضور كائن مجنح في عنقه غل من الذهب، وعلى عينيه برقع من الذهب. ومشي بكبرياء نحو العرش. ومشى خلفه أبناؤه العشرون: توأمين فتوأمين، وفي عنق كل منهم غل من ذهب، وعلى عينيه برقع من ذهب. وإذ مثلوا أمام العرش خروا ساجدين، وعقروا جباههم قائلين:

– نقسم بوجه الفلس وقفاه، أننا سنطيعه في كل ما يأمره وينهاه فقال الجالس على العرش:

أيها الخيال. لقد أحسنت النطق والنية، ليكن في مدينتي العتيدة لكل فن من فنونك أثر.

ثم تقدم شيخ جللته هيبة أجيال كثيرة، ويداه في أصفاد من الفضة، وعلى عينيه قناع من الفضة. وتقدم وراءه أولاده الخمسون – توأمين فتوأمين، ويدا كل منهم في أصفاد من فضة، وعلى عينيه قناع من فضة، ففعلوا وقالوا ما فعله الخيال وأولاده. فقال الجالس على العرش:

– أيها الفكر! لقد أحسنت النطق والنية، ليكن في مدينتي العتيدة لكل فتح من فتوحك خبر.

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان. ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس، وحبا نحو العرش على عكازين. وحبا وراءه على عكازاتهم أولاده الثمانية والتسعون: توأمين فتوأمين. وعلى عيني كل منهم نظاراتان كبيرتان، ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس. ففعلوا وقالوا ما فعله من سبقهم. فقال الجالس على العرش: أيها العقل! لقد أحسنت النطق والنية، ليكن على كل باب من أبواب مدينتي العتيدة نظارتان كالتي على عينيك وعيون أولادك.

وأخيراً تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلات كثيرة فباتت كأنها القنفذ، وقالت ما قاله الذين سبقوها فأجابها الجالس على العرش:

– أيها القلب! لقد أحسنت النطق والنية، قر عينا وانعم بالا، ففي مدينتي العتيدة ستجد منفذًا لكل مسلة من مسلاتك

وعندها التفت الفلس إلى الوزير الجالس عن يمينه واسمه "الطمع" والوزير الجالس عن يساره واسمه "المكر" وقال لهما:

اليوم يومكما، انطلقا إلى العالم الجديد، حيث القبيلة أمراء التي تملك الجزيرة الدعوة مانهاتان، وابتاعاها منها بأبخس ما يمكنكما.

وكاد الفلس يحل مجلسه عندما انتصبت فجأة أمامه فتاة عريانة، تقلب في يديها كرة كبيرة من النور الصافي المتبلور. ففرك الفلس عينيه وقد أدهشته الفتاة وبهره جمال الكرة في يديها. وقال متلعثما من شدة دهشته:

– من أين جئت أيتها الفتاة؟

– كنت هنا من قبل أن تكونوا

– هذا مستحيل، ومن تكونين؟

– أنا الحياة

– وهذا مستحيل والحياة في قبضتي، وماذا تبغين؟

– سمعتكم تطلبون السعادة فجئت أهديكم إليها

– وهذا أبعد من المستحيل، فليس يعرف بيت السعادة والسبيل إليه إلا أنا. أنا هو السبيل والهادي. أنا هو المدخل والمخرج. وما تلك التي في يدك؟

– السعادة

– وهذا مستحيل المستحيل، فالسعادة في مدينتي العتيدة التي أباشر اليوم بناءها: أنت تمزحين؟

– بل أنا في جد

– إن في جسدك لمزحا يستفز ضحكى، لكن الكرة التي تقلبينها في يديك جميلة، فهل تبيعينها؟

– السعادة لا تباع ولا تشترى

– هذا ضرب من الجنون. إذ ليس في مملكتي ما ليس يباع ويُشترى وإذا سلمنا بجنونك وقلنا أن السعادة لا تباع ولا تشترى، فكيف لمن يطلبها أن يحصل عليها؟

– من قبلني كما أنا نال الجوهرة التي في يدي مجاناً آخذ ومجاناً أعطي

– يالك من داهية! أفلا تفضلت إذن وعلمتنا كيف نقبلك لننال السعادة من يدك؟

– انزل عن عرشك، وانزع نيرك عن أعناق الناس، ودعهم يعطون مجاناً ما يأخذونه مجاناً

– يا لك من عاهرة وقحة، لا تخجلين حتى من أن تقفي أمامي ولا كساء عليك غير جلدك. استروا عورة هذه العاهرة واسكبوا في فمها رصاصاً. وشدوا

رجليها بالحديد واطرحوها في الدركة السابعة من دركات الجحيم، وأتوني بالجوهرة من يديها الأثمتين..

فبادر الحراس إلى الفتاة وانتزعوا الجوهرة من يدها وقدموها إلى الجالس على العرش، وما كادوا يسترون الفتاة برداء من أرديتهم حتى التفت الفلس إلى الجوهرة في يده وإذا بها حجر أسود، وإلى الفتاة فإذا بها حية رقطاء، فصاح مقهقهاً: إنها لمشعوذة كبيرة، اسحقوا رأسها ثم دعوني منها، وانصرفوا كل إلى عمله، وإياكم أن تؤجلوا إلى الغد ما يمكنكم فعله اليوم، انطلقوا بسلام.

وكان كما أمر الناس، فابتاع أعوانه جزيرة مانهاتان بثمن يوازي الأربعة والعشرين دولاراً، وراحوا يبنون نيويورك مدينتهم العتيدة. ولا يزالون حتى الساعة يحفرون ويؤسسون، ويهدمون ويشيدون. وبين أنقاض ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون، وهم عن السعادة يفتشون.

حفَّار القبور

قرية جرينويتش Greanwich Village حي قديم من أحياء نيويورك السفلى, استأثر به الفنانون من كل نوع, فجعلوه شبه صورة مصغرة لمونمارتر في باريس.. هناك تجد الشاعر الملهم والشعرور والموسيقي الذي تقطر أصابعه ألحاناً والمتموسق الذي لو عصرته لما نز منه نوطة واحدة جميلة, والراقصة التي روحها وجسمها ألسنة من نار, والخشبة التي تريد أن تقلد الخيزرانة, والمصور الذي يعرف أسرار الظلال والأنوار والخطوط والألوان, والقرد البشري الذي يلد له اللعب بالأدهان.

لكنهم – الموهوبون منهم والمحرومون – تجمعهم خلة واحدة, فهم يرون أنفسهم من طينة أنقى وأرفع من بقية الناس, لأنهم – في اعتقادهم – يخدمون الروح, أما سواهم فيخدم المادة, هم يعبدون الجمال, أما سواهم فيعبد الفلس, حتى أنهم ليبتدعون لهم أزياء من اللباس تختلف ولو قليلاً عن أزياء الناس, ويأتون في الجهر أعمالا لا يأتيها سواهم إلا في السر, وكثيرا ما يباهون بمظاهر الفقر وقلة اكتراثهم للفلس وعباده, غير أنهم لا يبتسم لهم الفلس ولو نصف بسمة حتى تقهقه له قلوبهم وعيونهم وترتقص أكبادهم وأمعاؤهم, وإذا ما أتيح لأحدهم أن يجلس إلى مائدة غني من الأغنياء ظل يحدث رفاقه عن ذلك أيامًا, وعندما يبتاع الفلس شيئًا من نتاج "أرواحهم" تغتبط أرواحهم بالفلس وتسجد له وتمجده.

في ضواحي تلك القرية, وفي بناية قديمة من الآجر الأحمر, تحت رقم ٥١ من الشارع العاشر غربًا, اتخذ جبران له محترفًا صغيرًا جعله كذلك مسكنًا, وفي الفسحة الصغيرة من مدينة الفلس الكبيرة راح يرسم الخطط ويعد العدد لاستثمار ما في كيانه من معادن دفينة, وكان نيتشه دليله الأول, ومساعده الأكبر, ومؤنس وحدته الأعظم, ما رافقه في جولة من جولاته الزرادشتية إلا هتف من أعماق وجدانه:

أي رجل هذا الرجل! نازل العالم وحده باسم مثل الإنسان الأعلى – السوبرمان, ولم يخرج من المعركة حتى أخرجه العالم من عقله, لكنه مات سوبرمانا بين أقزام, ومجنونًا حكيمًا بين عقلاء مجانين, هكذا فلتكن الرجال, وهكذا فليجن المجانين! وأي خيال خياله! بوثبة واحدة ينفذ إلى جوهر الحياة وبوثبة يجردها من كل أغشية الخير والشر التي حاكها لها ضعاف الناس, فيحرق هذه الأغشية ويذري رمادها في أعين الناس, فيحرق هذه الأغشية ويذري رمادها في أعين الذين حاكوها, هكذا فليكن الخيال! وأي قلم قلمه! بشطحه يخلق عالمًا جديدًا وبشطحه يمحو عوالم قديمة.

وهو في كل ما يخلق ويمحو يقطر جمالاً وعزمًا وسحرًا, هكذا فلتكن الأقلام! وأية إرادة إرادته! أصلب من الصوان وأمضى من الفولاذ, هي التي ابتدعت السوبرمان وهي التي اختطت السبيل إليه, وهي تقول: لا إله إلا أنا.. أنا الخالق والخليقة, وأنا القضاء والقدر, أنا المحجة والسبيل إلى المحجة, وأنا سأمضى بالإنسان إلى أبعد من الإنسان, وسأرفعه فوق خيره وشره, وسأحرره من كل دين ودينونة, وفضيلة ورذيلة, وكل ما يعانده في سيره إلى ذاته الكبرى, ولأجل ذلك أحطم مقاييس الناس وموازينهم, فكلها أغلال في عنق إرادته, وأعطيهم ما فوق المقاييس والموازين – أعطيهم السوبرمان, من كانت له مثل هذه الإرادة فليمش في الأرض غير حاسب حسابًا لأمر أو لإنسان إلا لنفسه, ولينتح كل ضعيف من طريقه, أو فليكن له درجة في المرقاة التي يصعد بها إلى ذاته, وإن لم يكن بد من انقراض الإنسانية بأسرها ليولد سوبرمان واحد, ألا فلتنقرض الإنسانية, هكذا فلتكن الإرادة!.

كلما فكر جبران في نيتشه تخيله كالأرض يضيق صدرها بما فيه من نيران فتفرج عنه ببركان, ويا لزرادشت[٤] من بركان هائج يقذف البركات مع اللعنات, والنقم مع النعم! بل يا لخيال نيتشه يتغلغل في تجاعيد الماضي السحيق حيث يعثر

[٤] – من المسلم به عند أكثر المؤرخين أن زرادشت رجل تاريخي وأنه مؤسس الديانة المجوسية, لكن الزمان الذى عاش فيه لا يزال مجهولا, وفى رواية يونانية أنه عاش قبل حرب طروادة بستة آلاف سنة.

على زرادشت, فيفض عنه غبار ثمانين أو تسعين قرنًا, ويتخذ بوقًا له وبشيرا ونذيرا, لأنه يضن بأسراره أن يبوح بها لسان غير لسان الوحي, وبأثماره أن تجعلها إلى الناس يدان غير يدي إنسان اصطفاه الحق وجلله الجمال وجعله ميراثًا لكل زمان ومكان.

ها هو ذا – زرادشت نيتشه – في الثلاثين من عمره, يترك بيته وبحيرته المحبوبة ويصعد إلى الجبال حيث ينقطع عن العالم, وبعد عزلة عشر سنوات ينحدر إلى الناس ليكشف لهم أسرار قلبه المفعّم بالأسرار, ويخاطب الشمس فيقول لها فيما يقوله: "ألا لقد تعبت من حكمتي حتى السآمة, فأنا كالنحلة المثقلة بكثير ما جنته من العسل, وأنا بحاجة إلى أيد ممدودة لتأخذه مني"[٥] .

ثم يلتقي بشيخ ناسك, فيعرفه الشيخ ويسأله عن غايته من الرجوع إلى العالم "عالم النيام", فيجيبه بأنه يحب الناس وأنه يحمل إليهم هدايا ثمينة, فيحاول الشيخ أن يرده عن عزمه قائلا أن الناس لا يقدرون هدايا المتنسكين, لذاك قد انصرف هو عن حبهم إلى حب الله, لكن زرادشت لا ينثني. وعندما يدرك أول مدينة في طريقه يجد في ساحتها جمهورا من الناس قد تجمعوا ليتفرجوا على بهلوان سيرقص على حبل, فيخطب فيهم هكذا:

- إني أعلمكم السوبرمان, الإنسان يجب أن يفوق الإنسان, ماذا فعلتم لتفوقوا الإنسان؟ "ما هو القرد في عين الإنسان؟ إنه لمخزاة ومسخرة, كذلك سيكون الإنسان في عين السوبرمان.. مخزاة ومسخرة". "لقد تدرجتم من الدودة إلى الإنسان, غير أن الكثير فيكم لا يزال دودة, لقد كنتم قرودا, وحتى الآن ما يزال الإنسان قردًا أكثر من أي قرد كان"[٦] "حلفتكم يا إخوتي أن تبقوا مخلصين للأرض, وأن لا

---

[٥] – بعد سنين كتب جبران مقالًا عربيًا فى هذا المعنى تحت عنوان "نفسي مثقلة بأثمارها" ومطلعه: "نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع"

[٦] – لجبران خليل جبران مقال بعنوان "أبناء الآلهة وأحفاد القرود" يقول فى آخره: "ما هي إرادتكم يا أبناء القرود؟ هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقتم من شقوق الأرض؟.. منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات فى زوايا الكهوف، ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بللور نافذتي فوجدتكم

تصدقوا الذين يكلمونكم عن آمال فوق الأرض, إنهم ينفثون فيكم سما, عرفوا ذلك أم لم يعرفوا"

"أولئك يحتقرون الحياة, وهم أنفسهم جيف مسممة تعبت منها الأرض, فانبذوهم!".

غير أن الجماهير كانت تشتاق رؤية لبهلوان أكثر من سماع زرادشت, فقابلت عظته بالضحك, وما بدأ البهلوان رقصته حتى تعلقت به أعين الحاضرين ناسية زرادشت وسوبرمانه.

وعندما سقط البهلوان عن الحبل فتحطم تفرقوا كل في سبيله وتركوه في حالة النزع, فتقدم زرادشت وحمله على ظهره وسار به في الليل إلى أن بلغ غابة, وهناك دفنه في جوف شجرة ونام بجانبه "ليحرسه من الذئاب", هكذا دفن زرادشت العالم – عالم الترهات والسفاسف, وعندما أفاق في الصبح أحس كأن نورا جديدًا أشرق في قلبه, وذاك النور هو أنه لن يخاطب فيما بعد الجماهير والأموات بل يتخذ له صحابة من المختارين, الحصاد قد نضج, وهو بحاجة إلى حصادين:

"رفاقا أطلب – رفاقا أحياء لا أمواتا ولا جثثا أحملها حيث أشاء"

"زرادشت المبدع يفتش عن رفاق يعرفون كيف يشحذون مناجلهم هؤلاء سيدعون هدامين وسيسخرون بالخير والشر, لكنهم هم الحصادون والمتهللون"

"المبدعون والحصادون والمتهللين هم وحدهم أعاشر, ولهم اكتشف قوس الغمام, وإياهم أقود إلى السلالم المؤدية إلى السوبرمان"

تسيرون في الأزقة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم, وقيود العبودية تتمسك بأقدامكم, وأجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم فأنتم اليوم كما كنتم بالأمس, وستظلون غدا وبعده مثلما رأيتكم فى البدء كنا بالأمس فأصبحنا اليوم وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة فما هى سنة القرود بكم يا أبناء القرود؟" .

"للمتوحدين أنشد نشيدي، والذي لا تزال له أذنان لسمع ما لم يسمع سأثقل قلبه بسعادتي"

هكذا راح زرادشت يكرز بالسوبرمان، وفي كل نبرة من نبراته منجنيق يهدم ويد تشيد, إذا تكلم حتى في أبسط الأمور جعلها ذات قيمة وخالف الناس فيما يقولون ويعتقدون.. مثال ذلك موعظة في "القراءة والكتابة": "من كل ما يكتب لست أحب إلا ما يكتبه إنسان بدمه, اكتب بالدم تجد أن الدم هو الروح" "ليس من السهل أن نفهم دما غريبا، وأنا أكره البطالين الذين يقرؤون بقصد التسلية"

"سماح الناس لكل من شاء منهم أن يتعلم القراءة سيقتل على التمادي ليس فن الكتابة فحسب, بل وفن التفكير"

"إن من يكتب بالدم والأمثال لا يريد أن يقرأ.. بل أن يحفظ على ظهر القلب"

"أقرب الطرق في الجبال هي من القمة إلى القمة, لكن من شاء أن يسلك تلك الطريق عليه أن يكون ذا ساقين طويلتين.. الأمثال يجب أن تكون قمما، والذين تقال لهم يجب أن يكونوا من العمالقة[٧]"

وفي موعظته عن "الفضيلة التي تمسخ الناس أقزاما"

يتهكم زرادشت تهكمًا لاذعا على كل أوضاع الناس ومقاييسهم ودياناتهم؛ فقد عاد إليهم بعد غيبة في "الجزائر السعيدة" فوجدهم أصغر مما كانوا لشدة تعلقهم "بعقيدة السعادة والفضيلة".

---

[٧] – لجبران مقال عربي بعنوان "الجبابرة" كتبه نحو سنة ١٩١٧ ومستهله "ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب" أما ميله إلى الأمثال فظاهر فى كتابيه "المجنون" و"السابق" وفي كتاب "التائه" الذي ظهر بعد موته .

"أمر في وسط هذا الشعب فأنثر الكثير من الكلام، لكنهم لا يعرفون كيف يأخذون ولا كيف يحتفظون بما يأخذون. وعندما أصبح فيهم: "ألا العنوا كل ما فيكم من الأبالسة الجبناء الذين يستطيبون الهمهمة ويضمون أيديهم على صدورهم للعبادة" يصرخون: "زرادشت لا إله له"

"وأشدهم صراخًا أولئك الذين يعلمونهم الاستسلام، من أجل ذلك يطيب لي أن أصرخ في آذان هؤلاء: "أجل! أنا هو زرادشت الذي لا إله له"

"يا للذين يعلمون الناس الاستسلام! حيثما عثروا على شيء هزيل سقيم, جرب, هناك زحفوا كالقمل وليس يردني عن سحقهم إلا تقززي منهم"

"ها هي ذي الموعظة التي أعدتها لآذانهم: أنا هو زرادشت الذي لا إله له, وأنا هو القائل: "من ذا أكثر كفرا مني لأنعم بتعاليمه؟" .

"أنا زرادشت الذي لا إله له؛ فأين قريني؟ وليس يقارنني إلا الذين استردوا إرادتهم فتجردوا من الاستسلام"

"أنا زرادشت لا إله له! وأنا أطبخ في قدري كل قدر، ولا أقبله طعاما لي إلا من بعد أن ينضج كل النضوج"

"أنا سابق نفسي[٨] بين هذا الشعب، لكن ساعتهم ستأتي.."

ما عرف جبران نيتشه حتى كاد ينسى كل من عرفهم قبله من كبار الكتاب والشعراء, وعلى قدر ما كان يطيب له أن يختلي به كان يلذ له في البدء أن يحدث غيره عنه وأن يهدي أصحابه ومعارفه إليه, فما أن تعرف على أثر نزوله نيويورك إلى فتاة أمريكية اسمها آديل واطسن, آنس فيها ميلا إلى التصوير وشغفا بالفن, حتى كتب يلح عليها أن تقرأ "هكذا تكلم زرادشت":

"عزيزتي مس واطسن"

---

[٨] – هذه العبارة يفتتح بها جبران كتابه "السابق" مع استبدال ضمير المخاطب بضمير المتكلم .

"بلى.. نيتشه جبار وأي جبار، وكلما طالعته زاد حبك له، عله بين أرواح العصر الحديث أكثرها نشاطا وأوفرها حرية، وستبقى كتاباته بعد أن يمضي الكثير مما نحسبه اليوم عظيما.. أرجوك, أ – ر – ج – و – ك أن تقرئي "هكذا تكلم زرادشت" حالما يتيسر لك ذلك، لأن هذا الكتاب في نظري من أعظم ما عرفته كل العصور.. تعالي لعندي قريبا ودعينا نتحدث عن نيتشه" "خليل جبران"

وما استأنس جبران بزرادشت نيتشه حتى أحس بوحدة أقسى من ذي قبل تكتنفه أينما سار, وبغربة تقصيه عن ماضيه إلى حد صار يخجل أمام نفسه من كل ما كتبه وصوره حتى ذلك الحين، وعندما أقبل على روايته الجديدة "الأجنحة المتكسرة" لينقحها ويقدمها للطبع كاد يعدل عن نشرها إذ خيل إليه أنه لو عرضها على نيتشه لضحك ذلك الجبار منه ومنها ولضربه على كتفه مثلما يضرب الكبير الصغير وقال له: "يا بني! دع الذين قلوبهم من عجين وأدمغتهم من مخاط يتلهون بمثل هذه الترهات, أما أنت فعار عليك أن يشقيك حب امرأة, وأكثر عارًا أن يسلبك قلبك مطران دون أقل مقاومة منك, وأشد عارًا من ذاك وهذا أن تندب حظك على مسمع من الناس وأن تكثر من سكب الدموع أمامهم والتبرم من قساوتهم, وما قساوتهم إلا ضعفك, وما دموعك إلا إرادتك المائعة, الدموع تليق بما في النساء, أما أنت فدعك منها"

لكن جبران كان يشعر أن روايته كاشفة عن قلبه لأنه يحدث فيها عن حبه, ولأنه أودع سطورها أقصى ما توصل إليه خياله من قوة التصوير بالكلام والتنغيم بالمقاطع, فضنَّ بتلك الصور وهذه الأنغام أن تدفن في مهدها, ومن ثم ففتوحاته العربية لما تبلغ بعد أقصى مداها, وروايته الجديدة ستكون فتحًا جديدًا, إذ لم ينسج بعد في العربية على منوالها وإن تكن صدفة في نظر نيتشه ستكون جوهرة في نظر العالم العربي, لكنها ستكون خاتمة عهد التفجع والشكوى, ومن بعدها سيسترد إرادته وسيحبس دموعه, وسيكون قلمه معولا للهدم وزاوية للبناء – هدم القديم المسترخي وبناء الجديد القوي, وستمشي ريشته جنبًا إلى جنب مع قلمه.

ظهرت "الأجنحة المتكسرة" فاستقبلها العالم العربي, الذي لا يبصر اللابس ويبصر اللباس, استقبال حدث خطير. وقد بهرته منها حلة فضفاضة, وشكوى دامعة, وملامس ناعمة, وألحان.. اغتبط عجب جبران بهذا الاستقبال, أما قلبه فكان يقول: "ويحي بين شعب يصفق لقشوري, أما لبي فليس يدركه, من لي بروح واحدة تفهم أشواق روحي, وتعرف عقباها, وترود العوالم التي ترودها؟ من لي بواحد من شعبي أحدثه عن نيتشه, وعن الفن, فيفهم ما أنا قائل وما أنا فاعل؟ أواه!.. ليس ولا واحد, غريبا كنت بينهم وغريبًا سأبقى، وسأموت غريبًا حتى عن نفسي"

بعد ظهور "الأجنحة المتكسرة" بقليل طلب نسيب عريضة إلى جبران جمع مقالات "دمعة وابتسامة" في كتاب فأجابه جبران ببيت من إحدى موشحاته:

ذاك عهد من حياتي قد مضى بين تشبيب وشكوى ونواح

ثم أردف البيت بقوله: "إن الشاب الذي كتب "دمعة وابتسامة" قد مات ودفن في وادي الأحلام, فلماذا تريدون نبش قبره؟ افعلوا ما شئتم, ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت في جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال, ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء, فهو صديق الناس وعدوهم في وقت واحد".

وهذا الرجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال, ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء أصبح بعد أن عرف نيتشه لا يلد له إلا التهكم على الناس, والعبث بأوضاعهم, والتشفي بأوجاعهم, والتنكيل بآلهتهم, وحفر القبور لهم, والذي كان يخاطب البؤساء هكذا:

"لا تقنطوا, فمن مظالم هذا العالم, من وراء المادة, من وراء الغيوم, من وراء الأثير, من وراء كل شيء: قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة". أصبح لا يعرف لنفسه ربا غير نفسه, ولا يبصر في الشفقة غير الضعف, وفي الضعف غير الموت ولا يحسب أحدا من الناس أهلا للحياة إلا من كان على شاكلته افتتح جبران "عهده الجديد" بمقال "حفار القبور", ولو أنه وضع في آخر ذلك المقال قرار نيتشه

الشهير "هكذا تكلم زرادشت" لما كان نيتشه يخجل من أن يجعله فصلا من فصول كتابه وثورة من ثورات بركانه, فهو في كل صورة الزرادشتية قلمًا جاء بصورة أشد هولاً, وأمر لنا, وأصدق لهجة في تأدية أفكاره من التي جاء بها جبران في ذلك الشبح الهائل الذي التقاه "في وادي ظل الحياة المرصوف بالعظام والجماجم", وما الشبح ذلك إلا جبران "المتقمص في جسد يحب العزم والقوة" يهزأ بجبران التشبيب والشكوى والنواح وينصح له أن يترك مهنة نظم الشعر ونثره لأنها لا تنفع الناس ولا تضرهم, وأن يتخذ حفر القبور مهنة فيريح الأحياء "من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم" لأن الناس أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا متطوحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم"

"يعرف الشبح من محدثه أن اسمه عبد الله, وأنه يحب اسمه لأن والده أعطاه إياه, فيقول له: "أن بلية الأبناء في هبات الآباء, ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات".

ثم يعرف الشبح أن لمحدثه امرأة وثلاثة أولاد فينصح له أن يطلق زوجته لأن الزواج "عبودية الإنسان لقوة الاستمرار" وأن يعلم أولاده حفر القبور فيعطى كل واحد منهم رفشًا ثم يتركهم وشأنهم, وإن لم يكن له بد من الزواج فليقترن بصبية من بنات الجن, فمن مثل هذا الزواج يأتي نفع بطئ ينتج عنه انقراض المخاليق الأموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها.

وعندما يعرف الشبح أن محدثه يؤمن بالله ويكرم أنبياءه ويحب الفضيلة وله رجاء بالآخرة يقول له ساخرًا:

"هذه ألفاظ رتبها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك, منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف ميوله وأمانيه؛ فتارة يدعوها البعل, وطورا المشترى, وأخرى الله "

أما في ذاته فيقول الشبح أنّه رب نفسه وأنه في كل زمان ومكان, واسمه الإله المجنون, وأنه ليس حكيما لأن الحكمة "صفة من صفات البشر الضعفاء", ثم يودع محدثه بقوله : "إلى اللقاء.. فأنا ذاهب إلى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة"

ويختم جبران مقاله هكذا: "وفي اليوم التالي طلقت امرأتي وتزوجت صبية من بنات الجن، ثم أعطيت كل واحد من أولادي رفشا ومحفرا وقلت لهم: "اذهبوا.. وكلما رأيتم ميتا واروه في التراب، ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات، غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني!".

وكيف لا يكون وحده من يرى أكثر الناس, بل كلهم أمواتًا ولا يرى حيًا إلا نفسه؟ أم كيف لا يكون وحده من يلحد الناس لينصب لذاته تمثالًا فوق قبورهم؟

لقد سكر جبران بزرادشت، وسكر أكثر من ذلك بما ناله من شهرة في العالم العربي, ورأى نفسه كالواقف على منبر ورأي الصحافة العربية كالأبواق تؤدي صوته إلى كل قطر ومهجر عربي, وراح يكلم قومه "كمن له سلطان" فلا يستنكف من أن يدعوهم "أضراسا مسوسة" ولا من أن يخاطبهم هكذا: "كنت أشفق على ضعفكم يا بني أمي, والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئًا, واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازا وتنقبض ازدراءً.. ماذا تطلبون مني يا بني أمي: بل ماذا تطلبون من الحياة، والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها؟.. أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة.. أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم.. أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون"

بل أنه صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة كبشرى في بلد صغير كلبنان, ويحسب أن من كان مثله يجب أن تكون ولادته ملتحفة بلحاف من السر والسحر. وأي البلاد أكثر سحرًا وسرًا من بلاد الهند؟ لذلك عندما طلب إليه مرة نسيب عريضة بعض معلومات عن حياته لينشرها في مجلة "الفنون" قال له أنه ولد في بومباي الهند – إنما لا يهمه أن يشيع "السر" بين الناس, ولا بأس لو وضعه

نسيب عريضة بين هلالين (وهي أكفل طريقة لشيوعه). وهكذا كان فقد ظهرت تلك المعلومات في "الفنون" وهي تقول أن جبران "ولد في سنة ١٨٨٣ في بشرى من أعمال لبنان (ويقال بل في بومباي الهند)" الخ.. وقد نقل هذه المعلومات بحذافيرها ناشر "البدائع والطرائف" في مطلع الكتاب وجاء فيها, علاوة على ذلك: "أن جبران حاز شهادة الامتياز في كلية الفنون الفرنسية، وسمي عضوا في جمعية الفنون الفرنسية, ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الإنكليزية" والمرجح أن جبران لم ينل شيئًا من كل ذلك بل كان يشتهي لو يناله, لأن هذا الناقم على الناس, والمتقزز من صغارتهم واستبعادهم لتقاليدهم, كان أشدهم تعلقًا بتلك التقاليد, اللهم إذا ناله منها مجد وفخر وعظمة, وما نقم على الناس إلا لأنهم لم يمجدوه على قدر ما كان يحسب نفسه أهلا لتمجيدهم, وما فاضت مرارته على ترهاتهم إلا لأنهم لم يترعوا قلبه بحلاوة ترهاتهم, فما أبعد الفرق بين مرارته ومرارة نيتشه!

وقد يجمع اللّه الشتيتين

من الرفاق الذين جمعتني بهم دار المعلمين الروسية في الناصرة نسيب عريضة وعبد المسيح حداد, وكلاهما من حمص, رافقت الأول ثلاث سنوات متوالية والثاني سنة واحدة ثم سافرت إلى روسيا في سنة ١٩٠٦ ولم أعد أعرف عنهما شيئًا سوى أنهما هاجرا إلى الولايات المتحدة واستوطنا نيويورك.

وفي أواخر سنة ١٩١١ كانت نيويورك مدخلي إلى العالم الجديد مكثت فيها يومين بطريقي إلى ولاية واشنطن على الشاطئ الباسيفيكي, وقد يكون أني مررت بعريضة والحداد فلم أعرفهما ولم يعرفاني, وقد يكون أن كتفي لامست كتف جبران خليل جبران بين الجماهير في الشوارع فلا أبه لي ولا أبهت له, إذ أنني لم أكن قد سمعت حتى باسمه ولا كان هو يعرف أن على سطح الأرض بشريًا يدعى ميخائيل نعيمة.

وفي خريف سنة ١٩١٢ دخلت جامعة واشنطن وانصرفت إلى دروسي وبين آدابه وأدبائه سدود أقامها نفوري من جمود أبناء العربية في ذلك الزمان, وتعلقهم بقشور الأدب دون لبابه, وتهافتهم على الأصداف اللغوية, وتسابقهم في تقليد القدماء, وتعاميهم عن العوالم الشاسعة المنطوية فيهم.

وذات يوم من أيام تلك السنة وقع في يدي "مصادفة" عدد من أعداد جريدة عربية نيويوركية وفيه مقال طويل عن "الأجنحة المكسورة", والمقال مثل كل نقدنا في تلك الأيام لا يقول شيئًا عن الكتاب وكاتبه بل يحاول أن يكون "تقريظا" لو صدقته لقل أن جبران خليل جبران هو فلتة كل الزمان. لكنني لم أصدقه لأن كل كلمة منه تكذب التي قبلها لشدة ما فيه من الغلو في الإطراء الفارغ, فطرحته من يدي وقلت أن أصحابنا ما زالوا يضربون بذات المطرقة على ذات السندان ما لي ولهم؟

وبعد شهور جاءني البريد "بمصادفة" ثانية في كل كتاب ما مزقت عنه غلافه الخارجي حتى وجدته عددا من مجلة عربية جديدة تصدر في نيويورك, وما ألقيت عليه نظرة سطحية حتى كدت أكذب عيني: يلامسك الذوق السليم في جمال حلته البسيطة, وفي جودة ورقة, وحسن حروفه, ونظافة طبعه, وتنسيق مواده وتشكيلها, وقد انطوى على صور فنية وشعر لا أثر فيه لعقيم الغزل والرثاء وكاذب المديح, ونثر لا يقتلك ببلادته وبلادة موضوعاته, ومنتخبات مترجمة لعدد من أعلام كتاب الفرنجة, واسم المجلة "الفنون" وصاحبها ورئيس تحريرها نسيب عريضة!

وعلى الأثر جاءتني الظروف "بمصادفة" ثالثة في شكل نسخة من "الأجنحة المتكسرة" قدمها إلي مهاجر سوري كان قد ابتاعها على ذمة صاحب المقال الذي ذكرته سابقا. وكان يحسبها من نوع روكامبول أو الأميرة فوستا فوجدها "خيالا في خيال", ويظهر أنه قدمها لي ليجعلني شريكا له في خيبة فأله. قرأت الرواية فاستفزني لكتابة مقال فيها دعوته "فجر الأمل بعد ليل اليأس" وأرسلت به إلى "الفنون", وهو أول مقال نقدي حبرته فكان فاتحة حياتي الأدبية, وقد نددت فيه تنديدا مرا بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة, وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم إلى العوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت, أما الرواية فبعد أن بينت كل ما فيها من نقص فني من حيث تحليل العوامل النفسية وتصوير الأشخاص وتنسيق الحوادث وتطبيقها على الحياة, وجدت في جمال أسلوبها فجر عصر أدبي جديد, ورأيت في مؤلفها الذي أدرك سر الألوان والأنغام, في الكلام, وسر التأليف بين تلك الألوان والأنغام, نسرا فتيا مهيض الجناح, غير أن كسره سيجبر, وجناحيه سيشتدان, وسيسلبهما ويحلق عاليا في جونا الأدبي.

ما وصل المقال إلى نيويورك حتى قرأه نسيب عريضة لبعض الأدباء هناك – ومنهم جبران, ثم كتب إليّ يخبرني عن وقعة منهم وكيف أن جبران هتف عند نهايته: "من هو ميخائيل نعيمة هذا؟ وأين كان مختبئا حتى اليوم؟" وراح يستخبر نسيب عريضة كل ما يعرفه عني.

واشتعلت نار الحرب وحلت "بالفنون" أزمات أوقفتها عن الصدور, وكانت خاتمة بركاتها أن أصدرت كتاب "دمعة وابتسامة" في حلة هي غاية في الجمال لأنها غاية في البساطة. وذكرتني بنسخة منه, ثم عادت فظهرت في سنة ١٩١٦ ورئاسة تحريرها في يد نسيب عريضة وإدارتها في يد أحد أصحابه, والشريكان أخذا يكاتباني ويلحان علي بالمجئ إلى نيويورك للاشتراك معهما في العمل, وكنت قد أنهيت دروسي في الجامعة فأدرت وجهي إلى الشرق, وفي خريف تلك السنة كنت واحدا من الملايين التي كتب لها أن تفتش عن إبرة السعادة في جبال القار والأسفلت والحجر والحديد المعروفة باسم نيويورك, ومع أني لم أنضم إلى إدارة "الفنون", إذ وجدت نفقاتها تفوق دخلها, بقيت في نيويورك.

بعد ظهر النهار الذي وصلت فيه كنت في إدارة "الفنون" وإذا بشاب يدخل, لطيف الملامح, دون الربع من القامة, عليه بذلة رمادية, وبرنيطة من الجوخ الأسود, مستديرة "السقف" مسطحته, وفي يده عصا كروية الرأس معشقة في أعلاها بأسلاك فضية نحيفة, وما أن وقع نظري عليه حتى قلت: هذا جبران! ولم أكن أبصرت له صورة من قبل, وما أن رآني حتى تقدم مني وقال: "هذا ميخائيل نعيمة"! فتصافحنا وتصادرنا كما لو كنا أخوين شتتهما البين ثم عادت الأقدار فجمعتهما.

بعد يومين أو ثلاثة ذهبت ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد لتمضية السهرة عند جبران بدعوة منه وكنت في شوق إلى التفرج على محترفه الذي كان معروفا عند المقربين منه باسم "الصومعة", والصومعة هذه قائمة في الطبقة الثالثة – والأخيرة – من بناية قديمة شعرت عندما دخلتها كأني داخل داير, فقد قادني رفيقاي في ممرات كالسراديب ينيرها مصباح ضئيل من الغاز فيطرح على جدرانها المظلمة أخيلة تكاد تستوقفك، وتسألك عن غرضك منها وتبكتك لأنك أقلقت سكينتها, ثم صعدنا سلالم خشبية تدور دورات لولبية, وتئن تحت أرجلنا حتى نكاد نجفل من أناتها، وأخيرا وقفنا إلى اليسار من رأس السلم أمام باب خشبي قاتم اللون, في وسطه حلقة من الحديد ما طرقنا بها عليه حتى انفتح وبان من ورائه جبران في "جبة" التصوير وهي من

الكتان البني اللون وأشبه بقميص واسع يلبس من فوق الرأس ويصل حتى الركبتين, منها بالجبة, وعلى وسطها منطقة محبوكة كالحبل.

الأربعة سنة ١٩٢٠.. من اليمين لليسار المؤلف, عبد المسيح حداد, جبران, نسيب عريضة

جلست على ديوان "كانابي" قديم وجلس رفيقاي على كرسيين قديمين لم يكن في الصومعة كرأس غيرهما, وجلس جبران على دكة التصوير الخشبية وهي نحو متر مربع يعلو شبرا أو أقل, وأمامنا – في الحائط الشرقي – شبه موقد إفرنجي وفي قلبه وجاق حديدي صغير للتدفئة بالحطب أو بالفحم الحجري, وقد قام هذا الوجاق من الموقد مقام المدخنة, وفوق رف الموقد قنديل من الغاز كان نورنا الأوحد في تلك الليلة.

أخذت أتأمل الصومعة وما فيها: طولها نحو الثمانية أمتار وعرضها نحو الستة, إلى اليسار من الموقد سرير واطئ صغير من الحديد بغير قوائم، عند رأسه وقدميه, وعليه لحاف من صوف ووسادات مختلفة الأشكال والألوان, هو سرير جبران, وبجانبه

خزانة صغيرة عليها كتب وأوراق, وإلى اليمين من الموقد منصب التصوير ووراءه منضدة عليها كتب وأوراق, وإلى يمين المقعد حيث أنا طاولة خشبية مستديرة عليها كذلك كتب وأوراق ودفاتر ومحابر وأقلام, وبالقرب منها محافظ متفاوتة الحجم من الكرتون الأسود, هي محافظ الصور.

في الحائط الشمالي شبابيك ثلاثة عالية عليها ستائر سود ومثلها في الحائط القبلي، وعند متوسط الحائط الشمالي رفوف قد اصطفت عليها نحو المائتين من مختلف الكتب, وفي الجهة الشمالية من السقف العالي نوافذ من زجاج عليها ستائر سود تزاح عند الحاجة لإدخال النور, وعلى الحائط الغربي الأصم قطعة كبيرة من نسيج قديم العهد تمثل يسوع المصلوب, وفي زاوية ذلك الحائط الشمالية باب يؤدي إلى مخدع ضيق, في الجهة الواحدة منه حنفية ماء ومغسلة وبضعة صحون وملاعق وقنان وطاسات خشبية ولوازم القهوة ووجاق صغير للطبخ على الغاز, وفي جهته الأخرى مستودع لثياب جبران وفوقه رف تجمعت عليه جرائد ومجلات قديمة وأشياء كثيرة سواها علاها الغبار وعشش فيها الغار.

تلك هي "الصومعة", وهي صومعة كانت تحدثني عن فقر ساكنها وجده أكثر من حديثها عن تقشفه وتعبده, وعن العواطف اللاعبة بعواطفه وأفكاره أكثر منها عن طمأنينته في جده وارتياحه إلى فقره.

كان جبران في تلك الليلة عنوان اللطف والإنس وحسن الضيافة, فقد أعد لنا قهوة عربية وقدمها في طاسات حمراء من الخشب الصيني مع الكثير من السيجارات والقليل من التفاح, وكان لا ينتهي بنا الحديث إلى محط حتى يبدأ بحديث آخر, فكنا أربعة وكأننا واحد, نمرح حينا في مروج الأدب, ثم نعرج على مستنقعاته, وحينا يسوقنا الحديث إلى نكتة فنضحك, أو إلى فاجعة فنتجهم, وعندما جئنا على ذكر الأدب الروسي أدهشني جبران بقوله أنه من المعجبين به, لا سيما بتروجينيف, وتولستوي, وديستويفسكي, وبالأخير بنوع خاص, مع أن روحه تناقض روح نيتشه على خط

مستقيم, غير أني اشتممت من كلامه الإجمالي عن هؤلاء الكتبة المشاهير أنه قرأ عنهم ولم يقرأهم, ولعله أحب أن يجاملني فيجاريني في إعجابي بديستويفسكي عندما رآني أضعه فوق كل كتاب الزمان الأخير بدون استثناء.

ما كنت أدري ساعة خرجت من تلك الصومعة بعد نصف الليل أنني في خلال خمس عشرة سنة سأعود فأدخلها مرارا تضيق الذاكرة عن إحصائها, وأنني سأشهد فيها ولادة أكثر ما تمخضت به روح ساكنها الخصبة منذ تلك الليلة حتى ليلة ختمت الأقدار على رحمها, وأنني سأحيا لأذكرها كما يذكر المسافر في البحر جزيرة وجد الأمن في مينائها برهة من الزمن ثم ودعها وعاد إلى البحر, ولا كنت أدري أن آلام ساكنها وأفراحه سترسب في أعماقي فتمزج برواسب أفراحي وآلامي.

في الكهوف المظلمة

في تلك الأثناء كتب جبران مقالا بعنوان "المليك السجين" يخاطب فيه أسدا رآه في حديقة الحيوانات فيصف له نيويورك وأهلها هكذا:

"انظر أيها المليك الجبار إلى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن.. انظر فهذا كالخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل, وهذا كالجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع, وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشي على الاثنتين, وذلك كالغراب شؤما ولكنه يبيع نعيبه في الهياكل, وتلك كالطاووس تيها وإعجابا أما ريشها فمستعار.

وانظر أيها السلطان المهيب إلى تلك القصور والمعاهد, فهي أوكار ضيقة يسكنها الإنسان مفاخرا بزخارف سقوفها التي تحجبه عن النجوم, مغتبطا بصلابة جدرانها التي تفصله عن أشعة الشمس, هي كهوف مظلمة تذبل في ظلالها أزاهر الشباب, وتترمد في زواياها جمرة الحب, وتتحول في فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان, هي سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع, وينتصب فيها العروس بقرب نعش الميت"

"وانظر أيها الأمير الجليل إلى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة الضيقة, فهي أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها وتختبئ الخوارج في جنباتها, هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب والرغائب, تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف, وتتصارع متناهشة ولكن بغير الأنياب، بل هي غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر, معطرة الأذناب, مصقولة القرون , لا تقضى شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل والأقوى بل إلى

الأخبث والأكذب, أما ملوكها فليست أسدا نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقر النسور وبراثن الضباع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع"

لكن قائل هذا القول كان يشتغل النهار والليل, ويشتغل كالمحموم, بقلمه وريشته ولسانه ليسترعى انتباه أولئك "المخاليق العجيبة", ولتستمتع تلك "الأودية الخطرة للمعابر" وقع قدميه إذا مشى فيها, ولتنفتح في وجهه أبواب تلك "الأوكار" إذا ما طرقها, وكان لا يتوصل إلى معرفة رجل أو امرأة أو عائلة على أسمائهم شيء من اللمعان الأدبي أو الفني أو المادي أو السياسي أو الاجتماعي إلا أخبرني عن ذلك بلسان من لا يكترث لمثل ذلك اللمعان, ولكن بقلب من يكبر في عين نفسه إذا ما تقرب من الذين يراهم العالم كبارا, وكأنه كان يخشى من أن أعيب عليه التناقض بين نفوره من تقاليد الناس ومفاخرته بها, فكان يطرح على كل علاقاته ستارا من السر وجلبابا من الفن والأدب, كأن يقول لي مثلا: "البارحة كنت مدعوا إلى الشاي عند مسز كورين روبنسن" ثم يضيف بفخر ظاهر: "هي أخت ثيودور روزفلت" ويعقب ذلك بقوله "وهي شاعرة تعجبك يا ميشا" أو أن يخبرني عن سهرة عند مستر فلان "وهو مدير البنك الفلاني, وله ذوق في التصوير جميل, أو عن زيارة لبيت فلان وهو من أخص أصدقاء رئيس الجمهورية, وهو وزوجته من أقدم العائلات الأمريكية وأوفرها ثروة وثقافة.

هكذا كان جبران يصفع الناس بيد ويصافحهم بالأخرى, يثور عليهم عندما يثوب إلى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم, ويسالمهم عندما تثور عليه نفسه الطموحة إلى "المجد والعظمة" والمتوجعة من قبضة الفاقة الماسكة بخناقها يحفر لهم قبورا في الليل, وفي النهار عندما تلحدهم الأقدار في قبور غير التي حفرها لهم, يهتف بقلب دامع : "مات أهلي وأنا على قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي"

وهكذا انقسمت نفسه على نفسه, وانساق جبران المتعطش إلى التفاتهم وعطفهم ومالهم ومجدهم وعظمتهم, فدرج في كهوف نيويورك المظلمة, وكلما انفتح في

وجهه باب أدى به إلى آخر – من حلقات فنية, إلى حلقات أدبية, إلى رجال ونساء ذوي "سلطان" – لكلمتهم وزن, ولصوتهم مدى, ولعطفهم قيمة, ولدعايتهم أثر بعيد, وأخذ يصور بعضهم بقلمه الرصاص بأثمان كانت تتراوح, حسب قوله لي, بين الخمسين والمائتي دولار عن الصورة, ويبيع من بعضهم شيئاً آخر من نتاج ريشته, فكان يراه مضطرا لممالأتهم ومجاملتهم, إذا دعي إلى شاي أو عشاء أو سهرة لا يرفض وإن كان يعلم أن ربة البيت ليست من الفن أو الأدب على شيء, وأن كل قصدها من عودته أن تنوع مدعويها فيكون بينهم شاعر وفنان "شرقي" في كلامه مضغة غير مألوفة وعليه مسحة غريبة, وذاك أقل ما يدفعه طال الشهرة من ثمن شهرته في مدينة بابلية كنيويورك وفي بلاد متسعرة الشهوات كأمريكا.

إلا أن جبران لم يكن قانعا بفتوحاته الفنية البطيئة, وهو يعلم أن في روحه توأمين – الفنان والشاعر، وقد حمل إلى الأمريكيين فنه دون شعره, وإلى أبناء لغته شعره دون فنه, فلا العرب يفهمون شيئًا من فنه, لأنهم لا يفهمون الفن التصويري, ولا الأمريكان يعرفون شيئًا عن شعره, لأنهم لا يعرفون العربية, فعليه – إن هو شاء الجمع بين الاثنين – أن يكتب بالإنكليزية, تلك هي أمنيته من زمان, وأمنية ماري والكثيرين من أصدقائه الأمريكيين, ومن ثم فالعالم الإنكليزي عالم ثقافة, وعالم شاسع وغني أين منه العالم العربي الصغير, الفقير؟ والآن, وقد تحلحلت عن خناقه قبضة العوز بما يدخله من نتاج ريشته, علاوة على الخمسة وسبعين دولارا من ماري في كل شهر, فلا شيء يعيقه عن الكتابة بالإنكليزية إلا الخوف من الخيبة إن هو عرض كتاباته فلم تلق ناشرا ولا "سوقا".

ذات يوم, في أوائل سنة ١٩١٨, دخلت على جبران فاستقبلني بوجه لحظت فيه من الشر أكثر من المعتاد, وما أن تبادلنا السلام حتى قدم إلي عددا هو الأول من مجلة إنكليزية باسم "الفنون السبعة", نظرت في حلته فإذا بها جميلة, وفي أسماء مديري المجلة, فإذا جبران خليل جبران واحد منهم, تصفحته فإذا فيه أمثال وقصيدة منثورة بقلم جبران.

لم أسأل جبران من أين جاء بالمال ليكون شريكا في مجلة كتلك المجلة, ولكنني أبديت له إعجابي بأسلوبه الإنكليزي, فقد وجدت فيه طلاوة ومرونة واتساقا أكثر مما في أسلوبه العربي, وقلت له: "يا شيطان, لماذا خبأت عنى هذه الجواهر حتى الآن؟ إذا كان عندك بعد من هذه البضاعة فأبرزه في الحال"

فأخذ يقرأ لي أمثالا وقصائد دخلت كلها فيما بعد في كتابه "المجنون", ومنها قصيدته المنثورة في "الليل والمجنون" وقصيدته في "الله", وهذه الأخيرة, عندما بلغ ختامها حيث يقول الله: "أنا جذورك في الأرض وأنت زهرتي في السماء ومعا ننمو أمام وجه الشمس" سألته:

- وما هو هذا الإله الذي تنمو وإياه أمام وجه الشمس؟ أو ينمو الله, وكل ما ينمو يشيخ وينحل؟ وكيف ينمو أمام وجه الشمس؟ ألعل الشمس أقدم منه وأثبت؟ أم أنت تعني إدراكك لله ينمو بنموك؟

فأجابني أن له رأيا "خاصا" في الله سيشرحه لي في وقت آخر, لكن ذلك الوقت لم يأت لأن جبران عاد فوجد إلها لا ينمو ولا يشيخ ولا يزيد ولا ينقص, ولا يتغير ولا يتحول.

لم يكتب لمجلة "الفنون السبعة" أن تعيش إلا شهورا قليلة كان منها أنها شجعت جبران على الكتابة بالإنكليزية وأعطته نماذج يعرضها من شعره في الأندية الأدبية ومكنته من الاتصال بجمعية الشعر النيويوركية التي أتاحت له أن يلقي في اجتماع من اجتماعاتها شيئا من نتاج قلمه, فألقى قصيدته "الليل والمجنون", وعاد من الاجتماع ومراجله تغلي ومرارته تكاد تنفجر لأن الحضور استقبلوه واستقبلوها ببرودة في قلبها تصغير ازدراء وهمس وسخرية.

وماذا فعل جبران؟ لم يجزع, ولم يقنط, ولم يلجأ لتفريج كربته إلا إلى مفرج كل كربة ومذيع كل أفراحه إلى قلمه, فكتب قصيدته الانكليزية "الانكسار" وفيها قلب خيبته خيبة لأعدائه, انكساره فوزا لإرادته واندحارا لهم:

"..... انكساري, يا انكساري, يا سيفي البراق ودرعي الصقيل, لقد قرأت في عينيك أن الجلوس على عروش الناس استعباد للناس, والوصول إلى مداركهم انحطاط إلى مستواهم .. أنا وأنت سنضحك مع العاصفة.... وسنقف أمام الشمس بإرادة لا نقهر, فحذار منا حذار!".

هي حقنة من المورفين سكن بها جبران أوجاع كبريائه الجريح, وأنين قلبه المتعطش إلى "المجد والعظمة", ولحاجة فكره الثائر على الناس لغير ما سبب إلا لأنهم على صورته ومثاله, ولو أنه كان يعتقد ما يقول, ويفعل ما يعتقد, لاعتزل الناس كل الاعتزال ولكف عن مخاطبتهم إن بالكلام أو بالرسوم, إذ ما نفعه من مخاطبتهم وهو لا يريد أن يكون مفهوما منهم خشية من أن ينحط إلى مستواهم – إذا فهموه اغتاظ من نفسه, وإن لم يفهموه اغتاظ منهم؟ أو ليس الكلام في مثل هذه الحالة فضولا في فضول والتصوير ضربا من المبالغة؟ أو لم يكتب هو بقلمه مقالا في "الكلام وطوائف المتكلمين"؟ أو لم يقل في ذلك المقال:

"لقد مللت الكلام والمتكلمين"

"لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين"

"لقد ضاعت فكرتي بين الكلام والمتكلمين"

"والآن وقد أبنت بعض اشمئزازي من الكلام والمتكلمين أراني كالطبيب المعتل, أو كمجرم يقف واعظا بين المجرمين, فقد هجوت الكلام بالكلام, وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين, فهل يغفر الله ذنبي قبيل أن يرحمني وينقلني إلى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلمين؟".

فما باله يقرع آذان الناس من حين إلى حين ليعطيهم دستورا للحياة قبل أن يجعله دستورا لحياته؟ وما بال الطبيب لا يطبب نفسه؟.

إلا أن جبران, وإن شبه نفسه – على الورق – بمجرم يعظ مجرمين وبعليل يطبب معتلين, لم يكن في الواقع يرى في نفسه علة أو إثما, بل كان يرى كل العلة وكل الإثم في الناس, ولولا ذلك لما كتب مقاله الإنكليزي "العالم الكامل" فتهكم فيه على عالم الناس تهكما كله مرارة من حيث مقصده, وكله جمال من حيث أسلوبه, وكله حق من حيث معناه, ثم هتف في آخره:

"ولكن لماذا أنا هنا يا إله الأرواح الضائعة, أيها الضائع بين الآلهة؟"

ومعنى هذا الهتاف: "ما شأني أنا الكامل في عالم كله نقصان؟"

وهو هتاف لا أقدر أن رئيس أجناد الملائكة يفوه بمثله إذا هو زج يوما بين الأبالسة!.. لقد خيِّل إلى جبران أنه يحارب عدوا اسمه العالم, ولو أنه تمكن في ذلك الوقت, مثلما تمكن فيما بعد, أن يخرج من نطاق نفسه الضيقة ويشهد المعركة عن كثب لأبصر أنها تدور بين ضدين اسم كليهما جبران خليل جبران – جبران في الصومعة وجبران في العالم.

فجبران في الصومعة كان إذا ما فكر بأمجاد الناس وجدها حقارة, وبغناهم وحده فقرا, وبفضائلهم وجدها عبودية, وبملذاتهم وجدها أعشاش ألم وشناعة, فكان يمتشق سيف النقمة فوق رؤوسهم, وجبران في العالم كان يشتهي أمجاد الناس وغناهم وفضائلهم وملذاتهم, فكان يأتيهم حاملا قصعة المستعطي, ولأن الناقم لا يستعطي والمستعطي لا ينقم نشبت بين جبران الصومعة وجبران العالم حرب عوان تتدفق عليك مرارتها من خلال سطور جبران الشاعر, وتطالعك أوجاعها من بين خطوط جبران الفنان.

ومن ثم فلو أن جبران وقف في ذلك الزمان أمام المرآة وتفحص نفسه لوجد أن الجبة التي استعارها من نيتشه لم تكن "تليق" له، لأنها لم تفصل لكتفين ككتفيه ولا لقامة كقامته, فلا مزاج نيتشه مزاجه, ولا إرادة نيتشه إرادته.

أما القرابة التي وجدها بينه وبين نيتشه فلم تكن تتعدى الخيال والقالب الذي يتخذه الخيال جسدا له, وفيما خلا ذلك فنيتشه في واد وهو في واد, غير أنه حاول أن يزدرد نيتشه بجبته وحذائه, فغص, وفي غصته كان ينبوع مرارته وظلمته وعذابه.

هكذا مشى جبران في كهوف نفسه المظلمة وهو يحسبه ماشيا في كهوف العالم المظلمة. وهكذا راح يجرع المرارة معصورة من قلبه وهو يظنها آتية إليه من قلوب الناس المريرة ولو أن روحه آنئذ كانت نيرة لما طغت عليها الظلمة فهل تكون الظلمة إلا حيث لا يكون النور؟ ولو أن قلبه كان طافحا بالحلاوة لما طفح بالمرارة, وهل يستقطر الحنظل من العسل؟ وقد بلغت هذه المرارة من نفسه مدى أصبح عنده يرى الحياة "امرأة عاهرة, ولكنها جميلة, ومن ير عهرها يكره جمالها" وكاد ينسى كل ما كان يقدسه في أول شبابه, لا سيما الحب – حب المرأة, فقد صار يرضى بالمرأة شريكة له في فراشه ولا يرضاها شريكة في قلبه وفكره وروحه, بل صار إذا ما أحس بحبها يمتد في جوانب قلبه ينتهر قلبه وينتهرها, لأنه يربأ بقلبه أن "يستسلم" للحب وبإرادته أن تخضع لإرادة امرأة, وما "الجنية الساحرة" إلا امرأة أثارت شهوات جبران ثم تملكتها حتى كادت تسلخه عن نفسه, فقام يعلن استقلاله عنها ويعرض عليها شروطه:

"وقد تمسكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه, متناسيا ما بي من الأحلام, محدقاً بما فيك من الجمال متعاميا عن مواكب الأشباح المتطايرة حول رأسي, مجذوبا بالقوة الخفية الكامنة في جسدك. ولكن قفي قليلا أيتها الساحرة فها قد استرجعت قواي وكسرت القيود التي برت قدمي, وسحقت الكأس التي شربت منها السم الذي استطيبته, فماذا تريدين أن نفعل, وعلى أية طريق تريدين أن نسير؟..

"هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديما ويأباه سيدا؟.. هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم, ويشتعل ولكنه لا يذوب؟.. إذًا هذه يدي فهزيها بيدك

الجميلة, وهذا جسدي فضميه بذراعيك الناعمتين, وهذا فمي فقبليه قبلة طويلة عميقة خرساء[٩]

من حين إلى حين كانت تشرق وحدة جبران المظلمة بنور هادئ بعيد يشع عليه من قلب ماري المحب, ومن حين إلى حين كان يقترب منه ذلك النور فيؤنسه ويهديه عندما كانت ماري تزروه في نيويورك فيجعل بيته بيتها, أو عندما كان يزورها في بوسطن فتجعل قلبها الدافئ وكرا لقلبه الشريد, وصدرها المطمئن ملجأ لمطامحه الصاخبة, وأحلامه اللجوجة, وأفكاره الثائرة.

ومن حين إلى حين كان يطرق أذنه في سكينة الليل صوت غريب – قريب, هو صوت ذلك الشاب الذي كان جبران قد أذاع خبر موته ودفنه, "في وادي الأحلام" والذي لم يمت قط بل أدرج في أكفانه قبل أن تغادره الروح, والأكفان التي أدرج فيها لم تكن إلا جبة زرادشت وسراويله.

[٩] – قالت لي سيدة لبنانية في نيويورك أنها "الجنية الساحرة" المقصودة في المقال .

الصوتان

- اسحبها

- لا بل أنت اسحبها!

هو جدال قصير كنا نبدأ به أكثر مقابلاتنا, فلا نتبادل السلام حتى يسأل واحدنا الآخر عما عنده من جديد نظمه أو نثره, ولا يندر أن يمد الواحد يده إلى جيب الآخر طعما باكتشاف قصيدة لم يشق بعد حجابها عن وجهها.

أتيت جبران هذه المرة – وذلك في أواسط مايو سنة ١٩١٨ – وللحال فهمت من شدة إلحاحه عليّ بإبراز قصيدة جديدة أن عنده شيئا جديدا يريد أن يقرأه لي, ولم يخب ظني, فما أن استقر بنا المقام وأشعلنا كل واحد سيجارة وأترعنا كأسا من النبيذ حتى تناول جبران دفترا, وقبل أن يبدأ بالقراءة مهد السبيل بقوله:

"هذه ستعجبك يا ميشا, هي قصيدة ذات صوتين, أو لا ترى أن تعداد الأصوات يزيد في وقع القصيدة ومداها ويسترعى انتباه القارئ أكثر من صوت واحد؟"

ثم أخذ يقرأ مفخما صوته ومحاولا أن يعطيه قوة لم تكن له وخشونة لم تكن تلائمه: "الخير في الناس مصنوع إذا جبروا, والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا"، وهكذا حتى آخر القصيدة

كان جبران يقرأ ويلحن في قراءته إلى حد أنه لو سمعه رجل غريب لا يعرفه ولا يعرف عنه شيئا لقال أن قارئ القصيدة غير الذي نظمها, أما أنا فكنت أسمعه وأعجب بأذنه الموسيقية التي كانت تحافظ على الوزن بالرغم من اللحن, وعندما لحظت في أحد الأبيات خللا فاضحًا في الوزن ونبهته إليه عجبت لأنه لم ينتبه إليه من تلقاء نفسه, وعبثا حاولت أن أفعله له, فهو لم يكن يعرف التفاعيل, وإن كان قد

درسها في المدرسة, وظل يعيد ذلك البيت ولا يرى فيه عيبا إلى أن بدلت له الكلمة المقلقة بكلمة استقام معها الوزن. وحينئذ أدرك الاختلال, مثلما أنى نبهته إلى بعض هفوات نحوية, منها قوله:

"فسارق الزهر مذموم ومحتقر/ وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر"

فلم أتمكن من إقناعه لا بالإعراب ولا بالمنطق, لكنه قال لي أنه إذا توفق إلى قافيه تأتي بذات المعنى أو بأقوى منه بدلها منها[١٠] وإلا ترك البيت على حاله, كذلك قلت له, فيما قلته, إن مطلع القصيدة ضعيف البنية شاحب اللون, لا يليق بما في القصيدة من قوة وجمال, فأجابني أنه يشعر بشعوري وأنه سيغير البيت إذا توفق إلى أفضل منه.

كنت أسمع جبران يقرأ وأقرأ جبران فيما أسمع:

هو ذا جبران "المتقمص في جسد رجل يحب العزم والقوة", ينازل جبران الذي "مات ودفن في وادي الأحلام" والذي , من حيث لا يدري دافنه, مزق أكفانه ودحرج الحجر عن باب قبره وعاد إلى الحياة وفي عينيه نور حقيقة جديدة وفي قلبه جذوة إيمان قديم. يطل الأول على الحياة من كوة لا يبصر منها إلا الإنسان, وبعد أن يتفحصها بمجهر عقله يجسدها حلقات متنافرة متناقضة: هناك الخير والشر, والحق والباطل, والعدل والظلم, والحرية والعبودية, والحب والبغض, والموت والحياة وغيرها من المتناقضات, ويجد الناس في ارتباك مستمر وتشويش أبدي لأنهم يحاولون أن يؤلفوا من تلك الحلقات المبعثرة سلسلة كاملة فلا يستطيعون, وهو، لا يستطيعون لأنهم لا يعرفون كيف يقيسون الحلقات ويزنونها, أما هو فيعرف, لكنه ضنين بمعرفته على قدر ما هو جواد بهزئه, فهو يهزأ بخير الناس وشرهم ولا يقول لهم ما هو خيره وشره, وهو يسخر بدينهم ولا يطلعهم على دينه, ويضحك من عدلهم ولا يتنازل أن

---

[١٠] – بقى البيت على حاله في الطبعة التي أصدرها جبران في نيويورك على نفقته, لكنني رأيته في طبعة مصرية مغيرا هكذا: وسارق الحقل فهو الباسل الخطر.

يبين لهم عدله, ويتهكم على لطفهم من غير أن يعلمهم ما هو اللطف, وبين قذائف التقريع والتبكيت والهزء, تفلت من فمه السوبرماني نتف من معرفته الكاملة, وما كانت لتلفت إلا لتري الناس الهوة الهائلة التي تفصل بينهم وبينه.. من تلك النتف قوله في الحق:

"والحق للعزم, والأرواح إن قويت/ سادت, وإن ضعفت حلت بها الغير"

وقوله في الحب, وكأنه يبكت نفسه فيما يقول:

"والحب إن قادت الأجسام موكبه/ إلى فراش من الأغراض ينتحر"

"والحب في الروح لا في الجسم نعرفه/ كالخمر للوحي لا للسكر ينعصر"

وقوله في العلم:

"وأفضل العلم حلم إن ظفرت به/ وسرت ما بين أبناء الكرى سخروا"

وفي السعادة:

"وما السعادة في الدنيا سوى شبح/ يرجى فإن صار جسما مله البشر"

وفي الموت:

"والموت في الأرض لابن الأرض خاتمة/ وللأثيري فهو البدء والظفر"

وبالإجمال ماذا يقول للناس هذا الواقف على كل أسرار الأرواح والأجساد؟ يقول لهم أن حلقات حياتهم لا تأتلف لأنهم لم يحسنوا صنعها وتسمينها, فلو أنهم مددوا حلقة الحق وسموها عزما لاستقام حقهم, أما كيف تتعانق حلقة العزم وحلقة الضعف من غير أن يكون بينهما نفار فأمر يسكت عنه كل السكوت.

ويقول لهم أنهم لو شربوا خمرة الحب للوحي لا للسكر لعرفوا الحب ولكنه لا يرشدهم كيف يؤلفون بين الحب والبغض لكيلا يكون في سلسلة حياتهم قلق.

ويقول لهم أن الموت هو النهاية لمن كان أرضيا، والبدء والظفر لمن كان أثيرا, أما كيف يمكن ابن الأرض ضد أن يصبح أثيرا لكي يتغلب على الموت فسر لا يكشفه لهم, ولا يكشفه لهم لأنه لا يعرفه, ولا يعرفه لأنه ما زال في عالم المقاييس, مهما طالت وتنوعت, والموازين مهما دقت وثقلت, لا تقيس إلا ماله بداية ونهاية, طولا وعرضا وعمقا وعلوا, ولا تزن إلا ما له وزن, أما الحياة التي لا بداية لها ولا نهاية, والتي ليست طويلة ولا قصيرة, ولا خفيفة ولا ثقيلة, فكيف تقيسها وبماذا تزنها؟

لو أن نيتشه أدرك هذا الأمر لما بذر قوة خيالية الهائلة سدى في التفتيش عن مقاييس وموازين جديدة, وفي محاربة الذين جاءوا ليخلصوا العالم من كابوس المقاييس والموازين, أمثال يسوع القائل: "أنا في الآب، والآب فيّ, وأنا فيكم وأنتم فيّ" فمن كان في "الآب" عنوان الحياة السرمدية كان سرمديا كالآب, وهذا كيف تقيسه وتزنه؟

ذلك حد ما توصل إليه جبران المتقمص في جسد رجل يحب العزم والقوة.

أما جبران الناهض من لحده في وادي الأحلام فينبري على مسرح الحياة خيالا طليقا من قيود المقاييس والموازين وكل أصناف المتناقضات, وما الغاب التي يسرح فيها ويرد كل شيء إليها سوى عنوان الحياة الشاملة لا الطبيعة بمعناها الضيق, وما الناي الذي ينفخ فيه سوى رمز الروح الذي تلتقي فيه كل الأرواح فتؤلف لحنا واحدا كاملا لا نفار فيه ولا تشويش..

يأكل الذئب الحمل فيصيح الناس: هي القساوة بعينها والجور الذي ما بعده جور! إلا أن الغاب – وهي الحياة الشاملة – لا تولول ولا تصيح, لأنها تطعم ذاتها, فلا موت الحمل عندها مأتم, ولا غذاء الذئب وليمة, وسيان عند الشجرة أأكل ثمرتها إنسان أم ثعبان, أم تفيأ ظلها قنفذ أم غزال, أم تدفأ بحطبها ملاك أم شيطان, فالإنسان والثعبان, والقنفذ والغزال, والملاك والشيطان أبناء الغاب الواحدة, للغاب منهم غاية واحدة, ولها فيهم مشيئة واحدة, من عرفها لم يعاندها بل استسلم لها,

وباستسلامه جعلها مشيئة له, ومن جهلها فعاندها سحقته فأشقته, فالاستسلام نوعان: هناك استسلام العارف وهو الحرية ومن هذا النوع استسلام النافخ في الناي والقائل:

لـــــيس في الغـــــاب رجـــا   لا ولا فيـــــــــه الملـــــــل
كيـــف يرجـــو الغـــاب جـــزءا   وعلـــــى الكـــــل حصـــــل
أعطـــــني النـــــاي وغـــــن   فالغـــــــــنا نار ونـــــــور
وأنـــــين النـــــاي شـــــوق   لا يدانيـــــــه الفتـــــور

كأني بجبران بعد أن أصغى إلى الصوتين المتنافرين في داخله وقف يسأل نفسه عن مقرها بينهما – إلى أيهما تميل؟ إلى الجاهل المتمرد, أم إلى العارف المستسلم؟ فأجابته نفسه, ما في جوابها من ريب:

"العيش في الغاب.. والأيام لو نظمت
في قبضتي لغدت.. في الغاب تنتثر"

لكنها, ما أعلنت رغبتها في الانعتاق من عالم المقاييس والموازين, والخير والشر, حتى ثارت عليها رغائبها الأرضية ومطامعها البشرية, فاستسلمت لضعفها من جديد وراحت تقدم عنه أعذارا, وفي اعتذارها مرارة الخيبة وألم الانحدار:

لكن هو الدهر في نفسي له أرب   فكلمـــــا رمـــــت غابـــــا راح
وللمقـــادير ســـبل لا تغيرهـــا   والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا"

بعد أن انتهينا من القصيدة أخذ جبران يعرض على الرسوم التي كان قد أعدها لها فوجدت فيها مواكب من الحياة كانت أشد فعلا في نفسي وأبعد أثرا في خيالي من المواكب التي ساقها أمام عيني في حال من الكلام الموزون, فحيث كنت أصغي إلى أبياته فأشعر بالجهد العنيف الذي بذله في تذليل الكلام والأوزان والقوافي للمعاني,

وأبصر أن النجاح لم يكن نصيبه في كل جهوده, كنت أنظر إلى كل رسومه فأشعر كأنها رسمت ذاتها من غير جهد أو عناء, فكأن عين جبران الفنان كانت أطوع لخياله, ويده أطوع لعينه من قلم جبران الشاعر لشعوره, وفوق ذلك فجبران الشاعر كان شديد الولع بمزج ألوان الكلام ورناته, فكان يكثر من الإدهان والأنغام إلى حد الزركشة والتنميق, حين أن جبران الفنان كان يطلب البساطة المتناهية فتاتيه بسهولة متناهية, هي بساطة كلاسيكية تعرف أصول الفن وتنسى أنها تعرفها, وهي بساطة تخلق لك من خطوط قليلة أشكالا كثيرة وخطوطها ليست حدودا لخيالك, بل هي عيون وأجنحة تمضي به إلى أبعد من الخطوط والحدود.

أول رسم وضعه جبران أمامي على المنصب كان يمثل فتى عاريا, قوي العضل متسق الجسم, خفيفه، يسير بخطوات ثابتة واسعة, وفي يده اليمنى ناي, وعيناه تحدقان بما هو أبعد من مجال البصر, وفي الفضاء من خلفه شكل أثيري سابح في الهواء يمثل امرأة لا ترى منها غير رأسها وكتفيها وبعضا من صدرها وذراعيها الممدودتين كأنهما جناحان يحرسان حامل الناي, وترى في وجهها ما يشبه الحب, لكنه غير ما يعرفه الناس باسم الحب, وترى في عينيها العالقتين بما وراء الأفق لهفة كأنها تقول للفتى: "سر ولا تخش, فأنا معك"، ووراء الفتى قد سار جمهور من الناس يبدون بالنسبة إليه أقزاما.

هو ذا صاحب الخيال الذي أدرك بخياله سر الامتثال فامتثل بإرادته, وكان لذلك حرا, والشكل الأثيري هو خياله الأكبر وحاديه وهاديه, والناس من خلفه قطعان تسير ولا تعلم لماذا وإلى أين تسير, فهم العبيد لأن ليس لهم من خيالهم محرر.

كنت ظننتني أخذت بذلك الرسم حتى برز أمامي غيره فأدركت أنه دون قمة جبران الفنية عندما رأيت رسم الدين والعدل والحرية وسواها, فرسم الدين يمثل شبه برج أعلاه مؤلف من رؤوس ثلاثة: رأس رع إلى اليسار وزرادشت إلى اليمين وبوذا في الوسط, وعلى رأس بوذا, بين قلنسوة رع وزرادشت, قد ارتكزت كرة ترمز إلى

الحقيقة اللا متناهية, وعند منتصف البرج, على صدر بوذا, الناصري المصلوب وقد لمست كفاه كتف رع من جهة وزرادشت من الجهة الأخرى, ومن تحت ذراعي المصلوب حتى أسفل البرج أشكال بشرية تغلغلت بينها أفاعي الخرافات والسخافات والشهوات والمتاجر الرائجة بين الناس باسم الدين في كنف أولئك الجبابرة الأربعة.

والرسم الثاني – رسم العدل – يمثل جبارا مكتمل تقاطيع الجسم, لعله السوبرماني, وقد أمسك بيسراه ميزانا وانحنى إلى اليمين فلمس بأصابعه كفة من كفتي الميزان فهوت إلى تحت وارتفعت الثانية وفيها شكل إنسان صغير ملتو على ذاته, ومن حول حامل الميزان شبه دائرة من البشر المسرعين صعودا وهبوطا يخيل إليك أنه قد وزنهم كلهم فوجدهم ناقصين, كنت أنظر إلى الرسم فلا أرتوي من تفاصيله والتعجب في الألفة الكاملة بين أصغرها وأكبرها والوزن الكامل في تركيبها, حتى ليستحيل عليك أن تغير خطا فيها من غير أن تحدث خللا في توازنها وألفتها.

أما رسم الحرية ففيه من الألفة والاتساق والتوازن مثلما في رسم العدل لكنه يثير فيك شعورا وأفكارا وخيالات تظل تزدحم في روحك زمانا بعد أن يغيب الرسم عن عينيك, فأنت تبصر فيه فتى بجناحين, وقد أسبل جناحيه إلى فوق وانتصب بقامته الطويلة وأفرج رجليه الواحدة عن الأخرى وجمع كل قواه للطيران, ولكنه لا يستطيع أن يرتفع عن الأرض, تحدق في عضلاته المنكمشة من قوة الإجهاد وفي وجهه المنصب بكل معانيه إلى غاية واحدة فتكاد تقفز من مكانك لتساعده عله يرتفع إلى الجو, لكنك, بعد أن ترى الحبال المحبوكة حول رجليه, تدرك أنه لن يطير حتى يقطعها, وأنها لا تقطع بسيف ولا تقرض بمطرقة, هي حبال الرغائب والشهوات الأرضية, وكأني بجبران رسم نفسه بذلك الرسم, وكأني به وصف نفسه عندما قال:

" والحر في الأرض يبنى من منازعه/ سجنا له وهو لا يدرى فيؤتسر"

بعد ذلك بأيام ودعت جبران ونيويورك ومن فيها من قليل الصحاب, وارتديت البزة العسكرية, وتقلدت السنكة والبندقية, وسافرت جنديا مع الجند الأمريكان إلى فرنسا.

وعندما عدت من المجزرة العالمية بعد سنة وشهرين وجدت أن جبران قد أضاف إلى الأدب العربي أثرا جديدا باسم "المواكب" طبعه على نفقته في نيويورك طبعا أنيقا فاخرا, وأنه قد شق لذاته دربا في الأدب الإنكليزي بكتاب صغير سماه "المجنون" ووفق إلى نشره بواسطة شركة للنشر حديثة العهد في نيويورك أسسها رجل يهودي ألماني اسمه "كنوف" عرف كيف يستثمر مواهب الكتاب الحديثين, فكانوا سبب ثروته وكان مساعدا كبيرا في نشر شهرتهم.

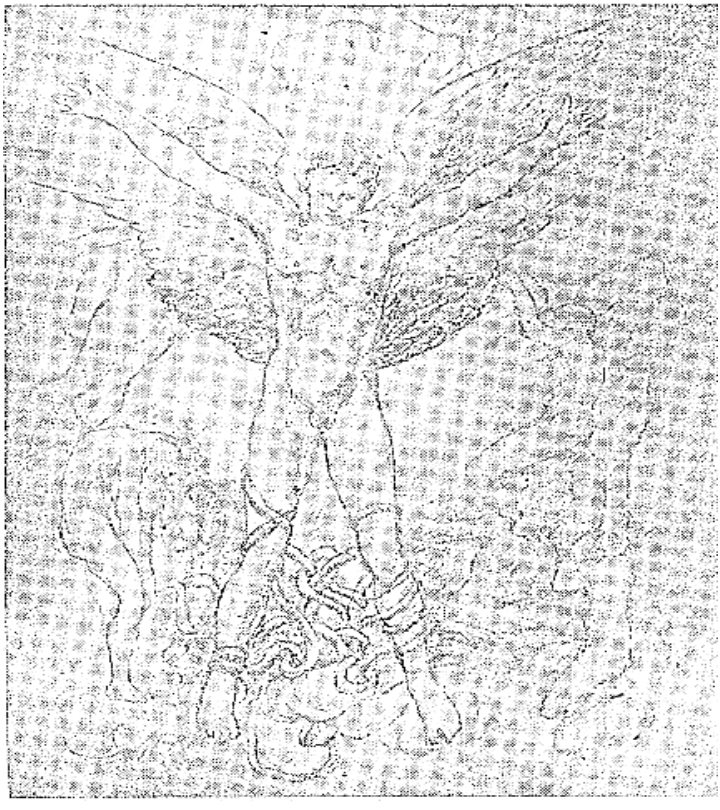

"والحرُّ في الأرض يبني من منازعه

سجنا له وهو لا يدري فيؤتسر"

محت الحرب فيما محته من الأسماء اسم "الفنون" من سجل الصحافة, فقضت على زنبقة هيفاء فواحة في حقلنا الأدبي كنت وجبران نتعشقها ونغار عليها غيرة غارسها وولي أمرها – نسيب عريضة – وأشد, فقد كانت لنا, ولكتلة صغيرة من الأدباء في نيويورك, بوقا صافي الصوت لا نخجل من أن ننفخ فيه من أرواحنا, وكانت يدا جميلة ونظيفة يلذ لنا أن نضع في راحتها نتفا من قلوبنا وأفكارنا لتحملها إلى من تهمهم قلوبنا وأفكارنا, وكانت إدارتها ملجأ لشوارد آرائنا, وجوا فسيحا يمتزج فيه هزلنا بجدنا وتلتقي أحلامنا بآمالنا.

وكنت على أثر رجوعي من فرنسا في صيف سنة ١٩١٩, قد سافرت إلى ولاية واشنطن لأرتاح ولو قليلا من الحرب وويلاتها, ولأنسى الحلو والمر من تذكاراتها, وكأن جبران استطال غيبتي أو خشي أن تطول؛ فكتب يلح عليَّ بالرجوع للسعي في رد الفنون إلى الحياة, ويرسم لي خطة طويلة ويختمها بقوله:

"الخلاصة: أنه على وجودك في نيويورك يتوقف نجاح المشروع وإذا كان جوعك إلى نيويورك يستلزم التضحية فالتضحية في مثل هذه الظروف هي العزيز الموضوع على أقدام الأعز, والمهم الموقوف على مذبح الأهم, وعندي أن الأعز في حياتك هو تحقيق أحلامك, والأهم في حياتك هو استثمار مواهبك.."

عدت إلى نيويورك ولكن "الفنون" لم تعد إلى الحياة, إذ وجدت أن الخطة التي كان قد رسمها جبران ونسيب عريضة كانت خطة يسهل تطبيقها على الورق, ويكاد يستحيل تحقيقها بالعمل, فالذين كانت قلوبهم في "الفنون" كانت جيوبهم في عالم الشكوك والظنون, والذين كانت جيوبهم تعج بالذهب كانت قلوبهم بعيدة عن الأدب, فمن أين تأتي بالمال إذا كنت تأبى التذلل والاحتيال؟.

ماتت "الفنون" ولكن كانت هناك "السائح" جريدة نصف أسبوعية لصاحبها ومؤسسها عبد المسيح حداد, كان قد مضى على تأسيسها نحو الست من السنوات, نعم هي لم تكن من الأدب الصافي بمرتبة "الفنون" لكن عبد المسيح أخ لنا, قلبه قريب من قلوبنا وروحه صديقة لأرواحنا, وهكذا ما درينا إلا و"السائح" بوقنا, وإدارته مكة خطواتنا, ومنبر أفكارنا, وعكاظ قوافينا, ومسرح مهازلنا, هناك كنا نلتقي كلنا لا أقل من مرة في الأسبوع, وبعضنا كل يوم في الأسبوع.. عصبة صغيرة تفاوتت قواها ولكن توحدت نزعاتها ومراميها, فأتلفت قلوبها وصفت نياتها, بينها من كتب في حياته قليلا ثم انقطع عن الكتابة كل الانقطاع وبينها من كان لا يكتب إلا في النادر وبينها من كان لا يقعده عن الكتابة غير قوة فوق قوته, لكنهم كلهم: المقلال منهم والمكثار والذي لا يقل ولا يكثر, قد تقاربوا فيما يستسيغونه ويكرهونه

من الأدب, وبالطبع كان ضمن هذه العصبة أفراد تربطهم ألفة أدبية وفنية وروحية أقوى من التي كانت تربط العصبة بمجموعها.

من تلك العصبة تألفت "الرابطة القلمية", وإليك فقرات من وقائع الجلسات التأسيسية كما دونتها بيدي:

"في خلال ليلة أحياها صاحب "السائح" وإخوانه بينهم – في العشرين من إبريل سنة ١٩٢٠ – ودعوا إليها رهطا من الأدباء السوريين في المهجر للقيام بها لبث روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يصبح قوة فعالة في حياة الأمة ورأى أحدهم أن تكون لأدباء المهجر رابطة تضم قواهم وتوحد مسعاهم في سبيل اللغة العربية وآدابها, فقابلت الفكرة استحسان كل الأدباء الحاضرين وهم: جبران خليل جبران, نسيب عريضة, وليم كاتسفليس, رشيد أيوب, عبد المسيح حداد, ندرة حداد, ميخائيل نعيمة, وأقروا بإجماع الأصوات مباشرة السعي لتحقيق هذا الفكر, وإذا لم يكن من فرصة للبحث في كيفية تأليف الجمعية وقوانينها دعا جبران خليل جبران الأدباء إلى عقد اجتماع في منزله ليلة الثامن والعشرين من إبريل"

"جلسة الثامن والعشرين من إبريل سنة ١٩٢٠ عند جبران خليل جبران: التأم تلك الليلة في منزل جبران الأدباء الآتية أسماؤهم: عبد المسيح حداد, ندرة حداد, وليم كاتسفليس, نسيب عريضة, رشيد أيوب, جبران خليل جبران, ميخائيل نعيمة, وبعد المباحثة أقر الجميع الأمور الآتية:

١– أن تدعى الجمعية "الرابطة القلمية" وبالإنكليزية Arrabitah .

٢– أن يكون لها ثلاثة موظفين وهم: الرئيس "العميد", فكاتم السر ويدعى "المستشار", فأمين الصندوق ويدعى "الخازن"

٣– أن يكون أعضاؤها ثلاث طبقات: عاملون ويدعون "عمالا", فمناصرين ويدعون "أنصارا", فمراسلين.

٤- أن تهتم الرابطة بنشر مؤلفات عمالها ومؤلفات سواهم من كتاب العربية المتحققين, وبترجمة المؤلفات المهمة من الآداب الأجنبية.

٥- أن تعطي الرابطة جوائز مالية في الشعر والنثر والترجمة تشجيعا للأدباء.

ووكل الحضور أمر تنظيم القانون إلى العامل ميخائيل نعيمة, ثم انتخبوا بإجماع الأصوات جبران خليل جبران عميدا, وميخائيل نعيمة مستشارا, ووليم كاتسفليس خازنا"

نظمت القانون ووضعت له مقدمة, وها أنا أقتطف من تلك المقدمة بضع نبذ تبين روح الرابطة ومراميها:

"ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس أدبا, ولا كل من حرر مقالا أو نظم قصيدة موزونة بالأدب, فالأدب الذي نعتبره هو الأدب الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها، والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خص برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها, وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير".. إن هذه الروح الجديدة التي ترمي إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني للحرية في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة, فهي أمل اليوم وركن الغد, كما أن الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى هي في عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا وإن لم تقاوم ستؤدي بها إلى حيث لا نهوض ولا تجدد، بيد أننا, إذا ما عملنا على تنشيط الروح الأدبية الجديدة, لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الأقدمين؛ فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين من ستبقى آثارهم مصدر إلهام لكثيرين غدا وبعد الغد, إلا أننا لسنا نرى في تقليدهم سوى موت لآدابنا, لذلك فالمحافظة على كياننا الأدبي تضطرنا للانصراف عنهم إلى حاجات يومنا ومطالب غدنا, وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا"

ورسم جبران للرابطة شعارا جميلا يمثل في دائرة في وسطها كتاب مفتوح وعلى صفحتيه خطت هذه الآية من الحديث: "لله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء" ومن فوق الكتاب قد أطلت شمس ملأت أشعتها نصف الدائرة الأعلى, وعند أسفل الكتاب سراج شطره الأيمن محبرة قد انغمس فيها قلم فتحول حبرها إلى لسان من نور خارج من طرف السراج الأيسر, ومن تحت الدائرة اسم الرابطة القلمية مخطوط بأحرف مستقيمة الزوايا تشبه بالإنكليزية فعنوانها الذي جعلناه عنوان جبران.

كان ذلك الشعار خاتمة دور الرابطة "التأسيسي" والحد الذي وقفت عنده في مشابهتها جمعية منظمة, فهي من قبل أن تنظم لذاتها قانونا وتتخذ لها شعارا كانت "روحا"، وظلت كذلك كل حياتها, وقط لم تكن "جمعية" بمعنى هذه الكلمة المألوف, بل كان جل ما فعلته من ذلك القبيل إن أعطت تلك الروح اسما تعرف به بين الناس, وأعطت العاملين فيها شبه محجة مشتركة يصوبون إليها خطاهم ومعا يعملون على صيانة حرمتها ورفعها عن التحذلق والابتذال.

على أثر "تنظيم" الرابطة أخذت كتابات عمالها تظهر في أعداد "السائح"، وتحت عنوان كل مقال أو قصيدة اسم صاحبها متبوعا بهذه الكلمات: "العامل في الرابطة القلمية"، وفي صدر كل عام كانت "السائح" تصدر عددا ممتازا يشترك فيه كل عمال الرابطة من التحرير حتى انتقاء الورق والغلاف وتنسيق المواد وتحديد القطع الخ.. وهذا العدد كان يطلع على الأدب العربي كحدث خطير, فتكتب الصحف فيه فصولا وتنقل عنه الشيء الكثير, وهكذا انتشر اسم الرابطة في العالم العربي وكل مهاجره وأقبلت الصحف على آثار عمالها تنقلها وتعلق عليها، وقام البعض يجمعها في مجموعات منها ما يدرس اليوم في كثير من المدارس, ونقم أنصار التقليد والجمود عليها فما كانت نغمتهم إلا لتزيدها قوة وحماسة واندفاعا ولتنمي عدد أنصارها ومريديها ومقلديها والمعجبين بها في كل قطر عربي, حتى حار في أمرها أصحابها وأعداؤها على السواء، فما عادوا يعرفون إلى ماذا يعزون سر قوتها وبعد تأثيرها، فمن قائل أن السر في الأدب الأمريكي الذي تأثر به عمال الرابطة, وهو قول فارغ, ومن

قائل أنه في تهتك عمال الرابطة من حيث اللغة العربية وأصولها, وهو قول أفرغ وأعقم من القولين الأولين, أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الذي جمع عمال الرابطة القلمية في فسحة محدودة من ديار غربتهم ولمحة معلومة من زمان هجتهم ووضع في صدر كل منهم جذوة تختلف عن أختها حرارة وبهاء, ولكنها من موقد واحد وإياها.

أذكر أن صاحب جريدة عربية في نيويورك, لحسد في قلبه, تهجم مرة في جريدته على الرابطة وعلى جبران بنوع خاص, وتناول في تهجمه رجلا جعله من عمال الرابطة ولم يكن منهم واتفق أن التقيت به في ذلك الوقت فقلت له: "فلان يا هذا ليس من الرابطة", وأخبرت جبران عن ذلك على سبيل التفكهة, وشد ما كان عجبي عندما التفت إلى جبران فإذا بعينيه تقدحان شرا وشفتيه ترتجفان غضبا وتقطران سما, وإذا به يقول:

- لو التقيته أنا يا ميشا لفعلت غير ما فعلت أنت

- وماذا كنت تفعل؟

- كنت أبصق في وجهه وأفك رقبته, إن كلبا مثله لا يستأهل إلا العصا.

لم أستغرب ما قاله جبران لأنني كنت أعرف طباعه وأعرف أن كل عامل من عمال الرابطة – لاسيما جبران – كان يغار على سمعتها أكثر مما يغار على سمعته, لكنني شكرت الله لأن جبران لم يوفق إلى "فك" رقبة ذلك المسكين, وأن الرابطة القلمية لم "تفك" حتى اليوم من الرقاب إلا رقبة الصنم الذي كان أكثر أبناء الضاد يبخرون له ويسجدون أمامه ويمجدونه باسم الأدب.

العواصف

على أثر صدور كتاب "العواصف" لجبران في سنة ١٩٣٠ كتبت مقالا توسعت فيه بعض التوسع في درس الكتاب ونفسية صاحبه الأدبية, والمرارة التي كانت تفيض من قلمه في ذلك العهد, والكآبة التي كانت تطفو على مرارته[١١], وكان المقال في جيبي عندما عرجت على جبران بطريقي إلى إدارة "السائح", فسألني – حسب عاداته – إذا كان عندي من جديد أقرؤه له, فأجبته:

- عندي مقال لا أستطيع أن أقرأه لك إلا إذا استطعت أن تسمعه كما لو كنت غير جبران خليل جبران.

- إنك تسألني أمرا شاقا يا ميشا, ألعل مقالك في جبران خليل جبران؟

- في عواصفه.

فقال وكان قوله مزيجا من المزاح والجد:

- حسن يا ميشا, سأحاول أن أفعل الآن ما صرفت حياتي محاولا أن أفعله, وذلك أن أنسى نفسي, لكن بي خوفا منك يا ميشا, فلك عين تنفذ إلى أعماق نفسي, وقلم, ولو شاء لمزق الستائر التي أتستر بها عن أعين الجهلاء والعميان, اقرأ.

أخذت أقرأ وجبران يصغي, فأتيت على شبه توطئة قصيرة أقابل فيها بين ضروريات الحياة وكمالياتها وأقول: "غدا ستغمرنا لجة العدم بأحزاننا وأوصابنا, بجائعنا ومتخومنا, بفقيرنا وموسرنا, بوجيهنا وحقيرنا, وستقوض الأيام أركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية, فلا يبقى إلا الخالد والجميل والحق فينا, ومن ذا الذي يبقى ليخبر عن الخالد والجميل والحق فينا, إن لم يكن ابن الأدب وابن الفن؟".

---

[١١] – المقال مدرج في كتابي "الغربال" تحت عنوان "عواصف العواصف"

ثم أسأل عن أبناء الفن والأدب عندنا الذين سيخلدون هذا الجيل من وجودنا في سفر الأجيال فلا أجدهم في الكثير من "بلابل النيل وشحارير لبنان وحساسي سوريا" بل في فئة قليلة من الذين "قد لمست الحياة أفواههم بجمرة جديدة فاتقدت قلوبهم بنار ما عرفتها قلوب من حولهم من المنتمين إلى مملكة القلم, بعضهم لا يزال في رحم السكينة المولدة, وبعضهم يتنفس الهواء الذي نتنفسه ويطأ الأديم الذي نطؤه ومن هؤلاء, بل في طليعة هؤلاء, شاعر الليل, شاعر العزلة, شاعر الوحشة, شاعر اليقظة الروحية, شاعر البحر, شاعر العواصف.. جبران خليل جبران"

بلغت تلك النقطة من المقال وإذا بي أسمع بكاء, وإذا بدموع جبران تترقرق على يديه, وإذا بجبران يشهق كالطفل في بكائه, فطويت المقال ووضعته في جيبي وجلست صامتا بين الارتباك والدهشة أرقب جبران ولا أشاء, بل لا أقدر, أن أقول كلمة قبل أن أسمع منه كلمة, وأخيرا لملم جبران عباءته بطرف منديله وقال وملح الدموع لا يزال متشفيا في صوته:

- اعذرني يا ميشا, اعذرني يا أخي, اعذرني يا حبيبي, ولا تسلني أن أفسر لك دموعي, فالدموع لا تفسر بالكلام, ولا تفيض إلا حيث يتعذر الكلام, وأنت تفهم دموعي لأن بك وحدة كوحدتي, ووحشة كوحشتي, وحرقة كحرقتي, وأنت تفهم دموعي لأنك مثلما أفرح عندما تعثر على روح تفهم لغة روحك, ما أصعب أن تعاشر الناس وتكلمهم بلغتهم فيحسبون أن لا لغة لك سواها, وعندما تكلمهم بلغتك تجدهم لا يفهمون منها حرفا ونجدك مضطرا إما إلى الصمت وإما إلى تدريسهم الألف والباء من هجاء لغتك, وما أكبر بهجتك عندما تقع على من يعرف لغتك مثلما تعرفها, وأنت تعرف لغتي يا ميشا وأنا أعرف لغتك, تابع القراءة إذا شئت.

فاعتذرت عن متابعة القراءة وقلت:

- أمن العدل يا جبران أن نلوم الناس ولا نلوم أنفسنا ونحن من الناس؟ أم من العدل أن تطلب منهم ما لا تطلبه من نفسك؟ أنت تطلب أن يفهمك الناس, وقد

يكون أنهم لا يفهمونك لأنك لا تفهم نفسك, فهل أنت واثق من فهمك لنفسك؟

- لا, لست واثقا يا ميشا, ومصيبتي في أنني أتكلم كما لو كنت واثقا

- لعل ذلك مصدر العواصف التي تجتاح وحدتك, ومنبع المرآة التي تفيض من قلمك, ومنبت التمرد الذي اتخذته قوسا لك ودرعا, فكم نتمرد على الغير جاهلين أننا لا نتمرد إلا على أنفسنا الجاهلة, وكم تهب في داخلنا عواصف تجلو ما أكمد من آفاق أرواحنا فنحسبها آتية من الخارج لتعكر ما صفا من آفاق أرواحنا, أو لا ترى أن ما نخبر عنه بأقلامنا ليس إلا زبدا يطفو على وجه حياتنا, أما أعماقنا الساكنة فلا تدركها أقلامنا؟

- هذا صحيح يا ميشا, وأنا تمر بي ساعات أرى فيها كل ما كتبته حتى الآن فضولا في فضول, لكنني أشعر أن في فهمي كلمة لم أنطق بها بعد, ولن يرتاح لي بال حتى أنطق بها, لعلني أحاول المستحيل عندما أحاول أن أفرغ زبدة حياتي في كلمة أو في كتاب, لكنني لا بد من أن أغمس قلمي في أعماقي الذي تفكر به لاحقا للسابق؟

- لقد بدأت بأول قطعة منه ولم أنته منها بعد, ولن أقرأها لك حتى تكتمل, ذلك الكتاب يملأ الآن كل حياتي يا ميشا, فأنا أنام وإياه وأقوم وإياه وآكل وأشرب وإياه.

في اليوم التالي سافر جبران إلى بوسطن, وصدر مقالي عن "العواصف" في جريدة السائح, فكتب إلي جبران يقول: "قرأت الساعة مقالتك في العواصف.. فماذا يا ترى أقول لك يا ميخائيل؟

"لقد وضعت بين عينيك صفحات كتابي مكبرة بلورية فظهرت أكبر مما هي حقيقة، وهذا مما يجعلني أخجل من نفسي, لقد التقيت بمقالتك مسئولية كبيرة على عاتقي, فهل أستطيع أن أقوم بها؟ هل أستطيع تحقيق الفكرة الأساسية في نظرياتك؟ أتبينك منشئ هذه المقالة النفيسة وأنت تنظر إلى مستقبلي لا إلى ماضيَّ، لأن ماضيَّ كان خيوطا ولم يكن نسيجا, كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناء,

أتبينك تنظر إلي بعين الأمل لا بعين النقد, فأندم على الكثير من ماضيّ وفي الوقت نفسه أحلم بالمستقبل وفي نفسي حماسة جديدة, فإن كان هذا ما أردت أن تفعله بي ولي عندما كتبت نقدك فقد نجحت يا ميخائيل"

لقد صدق جبران في قوله أني نظرت إلى مستقبله لا إلى ماضيه, فقد أخذت أشعر من محادثاتي الكثيرة معه أنه مشرف على فجر حياة جديدة, وأن العواصف التي أثارها فيه نيتشه فكادت تقتلع جذوره من تربتها الشرقية وتتركه عالقا بين الأرض والسماء قد بدأت تهدأ, وأن جبران الذي انسلخ عن نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها والمستسلمة لمشيئتها السرمدية قد عاد إلى "وادي الأحلام" يبحث عن تلك النفس وينبشها من لحدها ليجدد معها مواثيقه, وعلاوة على ذلك فحجر الرحى – رحى الفاقة – الذي كان يحمله في عنقه منذ فقد أمه وأخاه وأخته أوشك أن يتحول إلى قلادة من ذهب, فقد صار جبران ينام من غير أن يفكر بحاجاته اليومية من أكل وشرب ولباس ومأوى, بل أنه أصبح – في كل شهر تقريبا – يودع قيمة من المال في البنك, والخمسة والسبعون دولارا من مارى هاسكل ما فتئت تأتيه في مواعيدها, فاستعان عن نور الغاز في محترفه بنور الكهرباء, وعن وجاق الحطب بوجاق الغاز, وجاء بتليفون.

أما "المجد والعظمة" اللذان كان جبران يحلم بهما منذ صباه فقد أخذ يتذوق حلاوتهما من ألسنة الناس الذين كانوا يستسيغون كتاباته ورسومه فلم يعد في استطاعته أن يشرب من البئر ويرمي فيها حجرا، أن يتقبل حلاوة الشهرة من ألسنة الناس ثم أن يكوى تلك الألسنة بنار نقمته وسخريته, بل صار يبذل كل جهده, بلسانه وقلمه وريشته, ليكون عند ظن الناس به, وليفوق ظنهم به, وكلما ازداد توفيقا من هذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهرة ونفسه الباطنة, نفسه التي كان يعرضها على الناس ونفسه التي كان يسترها عنهم فلا تراها إلا عين روحه الساهرة.

نبأ كاذب

أفقت من نومي صباح يوم من ربيع سنة ١٩٢١ وأمام عيني بقايا صورة مزعجة رأيتها في الحلم وعبثا كنت أحاول أن أمحوها من فكري, فقد رأيتني واقفا على حافة بئر مستديرة عميقة ولا ماء فيها, ورأيت في قعر البئر شجرة يابسة ذات ساق ضئيل قصير وفروه قليلة لا أغصان لها ولا أثر للورق أو للثمر عليها, ورأيت تحت الشجرة رجلا مضطجعا على جانبه الأيمن وقد توسد ذراعه, ثم رأيت الرجل ينهض متواكلا ويفرك عينيه ويتأمل الشجرة ويتسلق بنظره جدران البئر الملساء كأنه يبحث عن واسطة للنجاة, ورأيت في وجهه الهزيل الأصفر المقنع بالحزن والألم بقعا سوداء وخضراء وصفراء, وتخيلته في كل حركة من حركاته كأنه اليأس بعينه, أو كأنه بقية من الحياة تسرولت بسراويل الموت, فناديته بأعلى صوتي: "جبران!" وأفقت مذعورا من صوتي ومن الصورة التي رأيتها.

ما صدقت أن اجتمعت اليوم بجبران في ذلك اليوم لتكذب عين يقظتي عين منامي, وليمحو وجهه النضر سم وجهه الشاحب من خيالي, ومن غير أن أطلعه على حلمي أخذت أسأله عن صحته حتى أنه تعجب لكثرة أسئلتي وقال:

- تدهشني يا ميشا شدة اهتمامك بصحتي اليوم أكثر من كل يوم, فكأنك تشعر بالخلل الطارئ عليها والذي لم أكشفه بعد لأحد, كنت أظنني من حديد, لكن هذه الآلة العجيبة الصنع والتركيب التي ندعوها الجسد تنتابها علل شأن كل آلة مركبة من أجزاء كثيرة, بل أن عللها بعض من أجزائها, فأنا أخذت أشعر في الأيام الأخيرة برعشة في قلبي ما شعرت بمثلها من قبل, وهذه الرعشة تشتد عليّ في بعض الأحايين إلى حد أن تضيق أنفاسي, فيصعب عليّ أن أصعد الدرج من أسفل البناية حتى منزلي

- هل استشرت بشأنها طبيبا يا جبران؟

- أنا أكره الطب ولا أؤمن بالأطباء, فهم يرون الجسد أجزاء متعددة ويحاولون أن يداووا الجزء جاهلين أن علة الجزء هي علة الكل, وأن مصدرها قد لا يكون في المحسوس بل في غير المحسوس, وكيف تداوي ما ليس محسوسا بالعقاقير والطلاسم الطبية المحسوسة؟! مع ذلك قد اضطر إلى مخابرة طبيب, لعله يعرف جسدي وعلله خيرا مني.

- ليس خفقان قلبك إلا نتيجة جورك عليه يا جبران, أنصفه ينصفك, أنت تنهشه نهشا بقلمك وريشتك, وأنت تنبش منه كل خباياه لتعرضها على الناس, وتسرق كل دقة من دقاته لتجعلها نغمة في كلمة أو خطا في صورة, وأنت تسهر الليل وتقضي جانبا كبيرا من النهار مطاردا قلبك حيثما ارتحل وأنى استقر, وأنت فوق ذلك تجهد ما فيه من لحم ودم بكثرة ما تتناوله من القهوة ودخان التبغ والمشروبات الروحية, فخفف من كل هذه.

- ألم تر أنني انقطعت عن القهوة بتاتا؟ أما الدخان فسأحاول أن أقلله لكنني لن أستغني عنه, وأما المشروبات الروحية فإني أعتقد أنها تنفع قلبي ولا تضره, لكن الداء هو أعمق من كل ذلك يا ميشا, وقد لمست بعضه فيما قلته, فماذا أعمل؟ أأنقطع عن الكتابة والتصوير وهما كل حياتي؟ أأترك "النبي" وهو مازال جنينا – وهو خير ما حبلت به روحي حتى اليوم، بل سأمضى حتى النهاية وإن انتهت حياتي بنهايته, ولكن قل لي يا ميشا: ما الذي جعلك تكثر السؤال عن صحتي اليوم؟ أرأيت شيئا جديدا في وجهي؟

فأخبرته أني رأيت حلما مزعجا ولم أخبره بتفاصيله, وذلك جرنا إلى التحدث عن الأحلام وأصنافها, وكان كلانا يؤمن بأن النفس في النوم تستجلي حالات كثيرة من حالات حياتها على ممر الأجيال, قد يكون بعضها تذكارات سحيقة من ماض سحيق كأحلام الطيران التي تعود بالإنسان إلى زمان كان فيه طائرا قبل أن يصير إنسانا, وقد يكون بعضها أشباح رغائب دفينة لم تظفر بالتحقيق, أو رسوما أو أمورا

آتية مقررة في سفر الزمان حيث يلتقي الماضي والمستقبل في الحاضر الأبدي, أو خليطا مشوشا من الماضي والحاضر والمستقبل، بما فيها من قلق جسدي وروحي, وفي أكثر الأحوال تكون رموزا تحتاج إلى تفسير, ولا يندر أن تأتى جلية كأن يرى إنسان في نومه مدينة لم يرها قط في يقظته, ثم يتفق له بعد حين أن يزور مدينة مثلها بالتمام.

فرويت لجبران حلما رأيته منذ سنين حين كنت طالبا في روسيا, وكان لا يزال جليا في ذاكرتي كأني أبصرته الليلة البارحة, وفسرت رموزه لجبران كما فهمتها وبنيت له كيف أن ذلك الحلم كان بمثابة خريطة لحياتي بمعانيها الواسعة لا بدقائقها الصغيرة, فقال جبران:

- أما أنا فلا أزال أذكر حلما حلمته من زمان, وكلما ذكرته ارتعشت, فقد رأيتني جالسا على صخرة في وسط نهر واسع المخاضة, كثير الرغوة, شديد العربدة, ليس على ضفتيه أثر لإنس أو لجن, ومع أني أحسن السباحة, لم أكن في خوف من طغيان النهر, بل كنت أشكر الله لأني في مأمن من المياه الصاخبة, وأعجب كيف توصلت إلى الصخرة, وأفكر في كيفية العودة إلى اليابسة, وأنا كذلك, وإذا بأفعى عظيمة هائلة تخرج من النهر وتسلق الصخرة التي أنا عليها, فترتعد فرائصي منها, وأحاول أن أرفسها, ثم أمسك بخناقها لأدفعها عني ولكن بغير جدوى, أما هي فتأخذ تلتفت على دورة بعد دورة, ويشتد ضغطها وثقلها على أضلاعي إلى أن تنحبس أنفاسي, فأجمع كل قوادي لأصرخ طالبا الإغاثة وعندها أفيق من نومي وقلبي يقرع أضلاعي قرعا وقطرات العرق البارد تبلل جبهتي.

- وما تفسيرك لمثل هذا الحلم يا جبران؟

- فسره كما شئت, أما أنا فقد رأيت فيه رمزا لحياتي مثلما رأيت أنت في حلمك رمزا لحياتك.

ما أبهت كثيرا للحلم في ذلك الوقت, ولا أخاله عبر بخاطري مرة بعدها في حياة جبران, أما بعد مماته فلا أكاد أذكر جبران وأتفحص معاني حياته إلا ذكرت

ذلك الحلم ورأيت فيه رمزا لتلك الحياة, فالنهر الصاخب هو العالم بأمجاده ومساخره, وملذاته وأوجاعه, ورغائبه وأطماعه, والصخرة هي حقيقة الوجود الثابتة في تيار الحياة العالمية, وقد أدركها جبران بخياله النشيط واطمأن إليها بروحه, والأفعى الخارجة من النهر هي ميول جبران العالمية وتعطشه إلى مجد العالم وعظمته وملذاته, وهي التي أفسدت عليه طمأنينته الروحية ونشوته الخيالية, وقضت على أمنيته الكبرى، أمنية التوفيق بين أعماله وأقواله والتوحيد بين ذاته الظاهرة وذاته الخفية.

في صيف تلك السنة اتفقنا أنا وجبران ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد أن نقضي عطلة قصيرة في البرية, فانطلقنا في أواخر يونيو إلى مزرعة صغيرة تبعد نحو مائة ميل عن نيويورك اسمها كاهونزي, وهي واقعة في قلب غاب تمتد أميالا كثيرة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا, فيها أنهار وجداول وبحيرات ومنخفضات وتلال وأماكن مدغلة قلما تطأها رجل إنسان, في تلك العزلة الطافحة بالسلام المعطرة بالسكينة, المكحلة بالجمال قضينا عشرة أيام مرت كعشر دقائق, فقد كنا كأربعة عصافير أفلتت من أقفاصها, أو كأربعة أحداث انعتقوا من المدرسة ومن تهديد معلميهم وأوامر والديهم, وكنا لا نمشي إلا معا ولا نأكل إلا معا ولا ننام أو نقوم إلا في ساعة واحدة, حتى أن أهل المزرعة والمصطافين فيها أطلقوا علينا لقب "الأربعة الكبار"، وهو لقب كان لا يزال شائعا على ألسنة الناس, وكانوا يعنون به ممثلي الدول الأربع الذين كانت لهم أكبر يد في تنظيم معاهدة فرساي – ولسن ولويد جورج وكليمنصو وأورلاندو, ولا وجه شبه بيننا وبينهم إلا من حيث العدد.

وكان نسيب عريضة قد خبر تلك المزرعة وضواحيها من قبلنا بسنين, فكان دليلنا في تجوالنا وتطوافنا, وذات يوم قادنا إلى شلال يبعد عن المزرعة بضعة أميال, فما بلغناه حتى نسينا كل مشقة تكبدناها في الوصول إليه, إذ وجدنا أنفسنا في قعر واد حجبته الأشجار والأدغال عن الأبصار وكانت تحجبه عن الشمس, كأنه متنسك لا تنقطع صلاته ليل نهار, وفي صلاته دوي الرعد, وهيبة الوحدة, ورهبنة المثول أمام العزة الصمدانية وجها لوجه.

اقتربنا من أسفل الشلال على قدر ما سمح لنا بالاقتراب منه، وهناك وقفنا بضع دقائق كالمسحورين, أشعة الشمس تكوي وجوهنا فيبددها الشلال برشاشه المتطاير في الهواء كمسحوق دقيق من الماس, وأبصارنا تتغلغل في تجاعيد المياه الغزيرة الهاوية من علوها الشاهق فتردها ألوان النور المتكسرة عليها كليلة حائرة, وأصواتنا تحاول أن تنطق بما فينا من دهشة فتخنقها هلهلة القطرات المتسابقة إلى البحر, والأشجار عن جانبينا تنحني ثم تستقيم وتتأود ذات اليسار وذات اليمين, والأعشاب بينها في رعشة دائمة.

وأخيرا أخذنا نفتش عن مكان نجلس فيه فرأينا صخرة في وسط النهر على مصب الشلال كأنها معدة لمن كان مثلنا يطلب منادمة المياه الزاخرة في خلوة من الطبيعة مثل تلك الخلوة, وكان بيننا وبين تلك الصخرة شقة واسعة من المياه المزبدة, لكنها لم تكن لتحرمنا لذة الجلوس على تلك الصخرة, فأخذنا نرمي في النهر حجارة كبيرة وصغيرة إلى أن تيسر لنا أن نجتاز من الضفة إلى الصخرة.

جلسنا على تلك الصخرة ووجهتنا الشلال, ومع أنه لم يكن بيننا ولا واحد يحسن الغناء, ما شعرنا إلا ونحن نغني, ولم نخجل من أنفسنا, أن نخجل من أصواتنا المتهدجة ترتفع في آن واحد ومكان واحد مع صوت ذلك الشلال, لكن هو الشلال جنى على ذاته, فلولاه لما ارتفع لأحدنا صوت, أما أغانينا فكانت كلها من الأغاني القومية القديمة المعروفة في لبنان وسوريا, مثل "العتابا" و"الميجانا" و"أبو الزلف" و"الموالي", ومن بعدها أخذنا نسرد ما نذكره من الشعر العامي القديم, فأنشدنا جبران "موالا" كان شديد الإعجاب به ومطلعه:

يا زين عن درب الهوى ضعنا من كتر ما فيكم تولعنا

مشتاق إليكم والمجال بعيد يا ريتنا كنا تودعنا

والذي زاد في زهونا وأنسانا خشونة أصواتنا قليل من العرق شربناه ممزوجا برشاش الشلال, وعندما نفد ونفدت بضاعتنا الغنائية نزعنا أحذيتنا وانحدرنا إلى النهر

ندغدغه تارة بأيدينا وطورا بأرجلنا, شاعرين كما لو كنا ننزع عنا كل أثقال المعيشة ونطهر أنفسنا من كل أدران الماضي ومخاوف المستقبل.

وآن وقت العودة, فودعنا الشلال حاملين صلاته في أرواحنا وجمال هيكله بين أجفاننا, ورجعنا أدراجنا سالكين إلى المزرعة شعابا تكتنفها الأشجار والأدغال, وسار نسيب وعبد المسيح في المقدمة ومشيت أنا وجبران في المؤخرة, وبيننا وبين رفاقنا مسافة لا يمكنهما معها سماع حديثنا, ولا يمكننا سماع حديثهما, وكنت وجبران نتحدث بالإنجليزية, شأننا في كل أحاديثنا عن الأدب والفن والأمور الروحية, وكان حديثنا في قطعة قرأها لي منذ أمد قريب عن المحبة وقال أنها ستكون الأولى من سلسلة قطع على شاكلتها ينوي تأليفها ونشرها في كتاب سيدعوه "النبي", وكان قد سبق لي أن أبديت له إعجابي بتلك القطعة وارتياحي لانتقاله من "التمرد" على الناس وحياتهم إلى تفهم أسرار تلك الحياة وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلي, وانتهى بنا الكلام إلى الصمت الذي هو أفصح من كل كلام, قطعنا ساعة من الطريق على وقع أفكاره الصامتة, والأشجار عن جانبينا تستقبلنا وتشيعنا صامتة, والطريق تحملنا كأنها بساط من ريح.

ونحن كذلك, وإذا بجبران يقف فجأة ويضرب الطريق بعصاه وينادى "ميشا!" فأقف مثله وألتفت إليه, فأرى بهجة الشلال قد طارت من عينيه وحلت محلها سحابة من الكآبة المريرة, ثم أسمعه ينادي ثانية باسمي ويقول:

- ميشا! أنا نبأ كاذب! I'm a Fasle alarm

ثم يطرق ويعود إلى الصمت

من كل الوقفات التي وقفتها وجبران خلال خمس عشر سنة لست أذكر وقفة كانت أبعد أثرا في نفسي من تلك الوقفة, ومن كل ما قاله لي منذ التقينا حتى افترقنا لم يهزني شئ مثلما هزتني تلك الكلمات الثلاث.

أهي الساعات التي قضيناها في منادمة الشلال؟ أهي روح الكرمة التي شربناها ممزوجة بروحه؟ أم هي هيبة الحقيقة العارية المهيمنة في الغاب دفعت جبران ليقف تلك الوقفة ويفوه بتلك الكلمات؟

لست أدري, غير أنني شعرت بروح رفيقي تعتصر من الألم وتستغيث, ولعل الطبيعة التي لا تعرف التكتم والتستر, فلا تظهر بغير مظهرها ولا تستحيي بحالة من حالاتها, سطت عليه بكل ما فيها من سحر التعري والصدق والامتثال, وبأسرع من لمحة الطرف أثارت كل زوايا قلبه وخزائن نفسه فجعلته يخجل من كل ما تخبأ فيها من ضعف تردى برداء القوة, وتصنع امتسح بمسحة الجمال, وشهوة نهمة بدت كأنها العفة الصائمة, فرأى نفسه نبأ كاذبا وهاله أن يكون ذلك النبأ في حضرة الطبيعة التي لا تعرف الكذب ولا الغش, وهاله أكثر من ذلك أن يكون رفيقه الماشي بجانبه ممن صدقوا النبأ, فلم يتمالك من الاعتراف له, بل لم يجد كالاعتراف لصديقه منقيا لقلبه ومطهرا لنفسه, ولم يجد أفضل من الطبيعة شاهدا على صدق اعترافه.

ومثلما هال جبران أن أكون مخدوعا بظواهر حياته عن بواطنها, هالني أن يمضي في اعترافه أمامي فيجلد نفسه العاتبة المتمردة أمام عيني وينزع عنها دروعها العديدة, ويتركها عريانة وبلا سلاح, ومن ثم فمن أنا لا قتيل اعتراف نفس وإن تكن أختا لنفسي؟ وقد تكون نفسي أحوج إلى الاعتراف منها, لذلك عندما حاول جبران أن يتوغل في تشريح "النبأ الكاذب"، غيّرت مجرى الحديث وأسرعت في السير.

في مساء ذلك اليوم خرجنا نحن الأربعة نتمشى على الطريق العمومية, وكانت الشمس قد غابت وأشباح الغسق قد انتشرت في الغاب, وكنا في جدل وأحاديثنا تتنقل بسرعة خطواتنا, ثم أخذنا نتبارى في تصنيف "القرادي", وعندما مللناه سكتنا هنيهة كأننا في هدنة, وفي أثناء تلك الهدنة خطر لي بيت من الشعر فأنشدته على مسمع الآخرين، وهو:

أسمعيني سكينة الليل لحنا من نشيد السكينة الأبدية

فما كان من أحدهم إلا أن أردف البيت ببيت من عنده على ذات الوزن والقافية, وهكذا رحنا ينظم واحدنا شعرا والآخر يكمله إلى أن تمت لنا قصيدة من ثلاثة عشر بيتا, وها أنا أثبتها, لا لما فيها من كنوز شعرية بل كأثر تاريخي, وعلى سبيل التفكهة, ولو سألني القارئ لمن هذا البيت أو ذلك الشطر لأجبته بالتقريب لا أكثر, لذلك أترك له الحق في رد المصاريع إلى أي من الأربعة, وإليه القصيدة:

أسمعيني سكينة الليل لحنا ... من نشيد السكينة الأبدية

وافتحي يا نجوم عينه علي ... أن أرى بينك الطريق الخفية

واجعلي يا رياح منك بساطا ... واحمليني إلى الرياض العلية

واخطفي يا نسائم الليل روحي ... وخذيها مني إليك هدية

ودعيني هناك أسرح حرا ... إنما العبد يشتهي الحرية

طال سجني وطال الأسر يأسا ... واحتمالي لحالتي البشرية

أنا ما لي وللورى فارفعيني ... ودعيهم في بؤسهم والرزية

ملَّ قلبي بغضاءهم وهواهم ... ملَّ قلبي سبابهم والتحية

ولساني قد صار يخشى لساني ... وجناني أضحى علي بلية

وفراشي شوكا ونومي ارتعاشا ... ويقيني شكا وبري خطية

وشرابي تعللا وأوهاما ... وطعامي مجاعة روحية

ولباس رماد فكري تذريه ... رياح تثيرها الأمنية

تلك حالي – حرب عوان فإن *** أظفر فنفسي قتيلة أو سبية

ودعنا كاهونزي وعاد كل منا إلى نيره, وسافر جبران إلى بوسطن ليقضي ما بقي من الصيف مع أخته ماريانا, وكان من عادته أن يصرف موسم الميلاد ورأس السنة وأيام الصيف معها, وكان آخر ما قلته له عند ما ودعته في ذلك الصيف:

- دار قلبك يا جبران, دار قلبك!!

جبران والمؤلف عن يمينه في غابات كاهونزي

الفصل الثالث

الفجر

الضباب يتبلور

"أخي ميشا.. منذ جئت هذه المدينة وأنا أتنقل من طبيب اختصاصي إلى طبيب اختصاصي, ومن فحص دقيق إلى فحص أدق, كل ذلك لأن هذا القلب قد فقد وزنه وقافيته, أنت تعلم يا ميخائيل أن وزن هذا القلب لم يكن قط مطابقا للأوزان, وقافيته لم تكن البتة مماثلة للقوافي, ولما كان العرض تابعا للجوهر والظل للحقيقة كان من المقرر والمحتوم أن تأتلف هذه الكتلة في صدري مع ذلك الضباب المرتعش في الفضاء.. ذلك الضباب الذي أدعوه "أنا".

"لا بأس يا ميشا, فكل ما قدر يكون غير أنني أشعر بأنني لن أترك لحف هذا الجبل قبل طلوع الفجر, وسيلقي الفجر نقابا من النور والبهاء على كل شيء"

(من رسالة بعث بها جبران إلى بوسطن في أواخر صيف سنة ١٩٢١)

"أنا" – هي ألف الوجود وياؤه – من عرفها عرف كل شيء, ومن جهلها جهل كل شئ, من عرفها عرف لذة الألم, وتذوق الطمأنينة الروحية حتى في أنكد حالاته, ومن جهلها جهل مرارة اللذة ولم يعرف سوى الألم حتى في أسعد أوقاته, والفرق بين الناس ليس على قدر ما يملكه ذاك أو هذا من مال أو عقار أو جاه أو موهبة أو صيت أو سلطة, وما إليها من صنوف التفاوت البشري؛ بل الفرق على قدر ما يضيق الواحد منهم "أنا" ويوسعها الآخر.

ما الفرق بين القائل: "من ضربك على خدك الأيمن حول له الأيسر كذلك" وبين القائل: "عين بعين وسن بسن" إلا الفرق بين من أدرك أن كل "أنا" منبثقة من "أنا" الشاملة, فهي شاملة مثلها, فالضارب والمضروب فيهما واحد, وبين من حصر "أنا" ضمن حظيرة من الأوهام فراح يثأر لها من كل متعد عليها جاهلا أنه المتعدي والمتعدى عليه, وأنه يثأر من ذاته لذاته, وما الوحي إلا انفتاح كوة في الروح تنفذ منها

أشعة "أنا" الشاملة وتبدد ضباب الفردية المحصورة فتبصر الروح ذاتها وإذ ذاك فما "القضاء" إلا مشيئة الكل في الكل وللكل, فهو فوق خيرنا المحصور وشرنا المحدود, ولا "القدر" إلا ما تحتمه النفس على ذاتها ما دامت مصرة على الاحتفاظ بالضباب الذي ندعوه "أنا".

غير أن سواد الناس لا تزال كوى أرواحهم مغلقة دون أشعة "أنا" الشاملة, ولذلك لا يزال ما يدعونه "أنا" ضبابا, ولذلك كان كل ما يصدر منهم ضبابا في ضباب, وكان حياتهم مقايضة مستمرة بين اللذة والألم, أما الذين انفتحت كوى أرواحهم فأبصروا أنفسهم في كل نفس, واتصلت حياتهم بكل حياة, وطبقوا أعمالهم على أفكارهم, فهؤلاء هم رسل الحق وهداة البشرية إليه, ولا عجب لو عبدهم الناس, فهم قد اكتشفوا الإله في الإنسان.

هل عرف جبران الوحي؟ لقد عرفه مثلما عرفه كل ذي خيال طليق, فأنت تلمح له وميضا متقطعا في بعض مقالات "دمعة وابتسامة" ثم يغيب عنك ذلك الوميض من بعد أن استسلم جبران لسحر نيتشه فثأر على الناس وكاد يغرق أحدا من الناس أو يخنق طقسا من طقوسهم, فكأنه في تلك الفترة من حياته الروحية والأدبية كان يثير حربا – بل حروبا – إنما على جبهات مختلفة, فعلى الجبهة الواحدة كان يحارب الفقر, وعلى الجهة الأخرى الأدب والفن لينال منهما القسط الذي كان يحييه من حقه, وعلى الثالثة الناس ليحملهم على إكبار أدبه وفنه, وعلى الرابعة قلبه ومن احتله أو حاول احتلاله من النساء, فكان في شغل عن جوهر "أنا" الشاملة وموحياتها, بل أنه أوصد دونه كوى روحه بما أثارته من حروبه العنيفة من عفير وضباب.

لكنه, بعد أن تحصن من الفقر ولو بعض التحصن, وتمكن من أدبه وفنه, وآنس من الناس ارتياحا إليهما, واستقر قلبه على حب امرأة واحدة, ثاب إلى نفسه يسترشدها ويستفسرها ويفتح كواها لأشعة الوحي, فلم ترذله نفسه ولم تخيبه, بل راحت تعظه وتعلمه وتصوغ له من الضباب الذي كان يدعوه "أنا" جوهرة نورانية تنعكس فيها كل ذات من غير أن تحدث أقل تعكير في صفائها, أو أقل تشويش في جمالها:

"وعظتني نفسي فعلمتني وأثبتت لي أنني لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة, وقبل أن تعظني نفسي كنت أحسب الناس رجلين: رجلا ضعيفا أرق له أو أزدري به, ورجلا قويا أتبعه أو أتمرد عليه, أما الآن فقد علمت أنني كونت فردا مما كون البشر منه جماعة, فعناصري عناصرهم وطويتي طويتهم, ومنازعي منازعهم ومحجتي محجتهم فإن أذنبوا فأنا المذنب, وإن أحسنوا عملا فاخرت بعملهم, وإن نهضوا نهضت وإياهم, وإن تقاعدوا تقاعدت وإياهم"

إن بين هذا القول وقوله: "إنني أكرههم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة" لوهدة عميقة, ولكنهما, على كل ما بينهما من التناقض, موجتان من بحر واحد, فجبران الذي يكره الناس القانعين من حياتهم به غير المجد والعظمة هو نفس جبران الذي يرى ذاته شريكا لكل أثيم في إثمه, ولكل عبد في عبوديته, ولكل ضعيف في ضعفه, ذاك جبران في عالم الظواهر, وهذا جبران في عالم البواطن, ذاك ضباب يعميك عما فيه من نور, وهذا نور ينسيك ما حوله من ضباب, ذاك هو القشرة, وهذا هو اللب.

هكذا خمدت ثورة هذا الثائر الذي كان يدعو نفسه, ويباهي إذا ما دعاه الغير, ثائرا ومتمردا, وهل الثورات بكل أنواعها غير فوران تلهيك رغوته عن صريخه؟

ما اتسعت ذات إنسان فعانقت الذات الجامعة إلا رآه مضطرا إلى نبذ كل محدود ومحصور, ومتى نبذ الإنسان المحصور والمحدود أصبحت عنده كل مقاييس الناس وموازينهم ألاعيب صبيانية, فأصبح لا يرى العلة إلا رأى فيها النتيجة, أو البداية إلا أبصر فيها النهاية, وبكلمة أخرى أصبح لا يرى إلا دوائر وأشكالا كروية حيث يرى غيره خطوطا مستقيمة ومكسرة, ومسطحات ومربعات ومكعبات, فصار لا ينطبق منطقه على منطق الناس, ولا يماشي فكره أفكارهم، هم يخاطبونه بعقولهم واستنتاجاتها وهو يخاطبهم بخياله وومضاته, فإذا ما رأى قاتلا وقتيلا قال في كليهما أنه القاتل والقتيل في وقت واحد, وإذا ما سمع منشدا ونائحا كان الإنشاد والنوح عنده سيان على حد قول المعري:

وشبيه صوت النعى إذا قيس بصوت البشير في كل واد

وقد تعجب, مثلما أعجب, لهذا الخيال الشرقي كيف أنه ينفذ أبدا من البدايات إلى اللا بداية, ومن النهايات إلى اللا نهاية, ومن المحسوس إلى غير المحسوس, فمذاهب الشرق كلها – على وفرتها واختلافها في الظاهر – تلتقي في ذلك الجو الفسيح حيث المسبب والمسبب واحد, وكل ذي خيال طليق لا بد من أن يدرك ذلك الجو بخياله, ولكن الويل كل الويل لمن كان خياله أنشط من إرادته, فهو كالطيارة التي يطلقها الأولاد في الهواء مشدودة بخيط في أيديهم, فلا تتذوق حرية الفضاء حتى يجذبها الخيط إلى عبودية الأرض, ومن كان كذلك لن يتحرر من ربقة المرض ولا بالموت, تلك كانت حال جبران مع خياله وإرادته, والمجد كل المجد لمن كان نشاط إرادتهم كنشاط خيالهم, هؤلاء وإن مشوا بأرجلهم على الأرض, فقلوبهم أبدا في السماء, وهم قد تحرروا من الموت قبل أن يموتوا, وما أقل ما هم في تاريخ البشرية!

"ميشا.. ميشا! نجاني الله وإياك من المدنية والمتمدينين, ومن أمريكا والأمريكيين, ونحن سننجو بإذن الله, وسنعود إلى قمم لبنان الطاهرة, وأوديته الهادئة, وسنأكل من عنبه وبقوله, ونشرب من خمره وزيته, وسننام على بيادره ونسرح مع قطعانه, ونسهر على ربابات رعاته وخير غدراته، ما بالك لا تدخن؟ اشعل سيجارة, ولا تخش من الدخان أن يحجب وجهك عنى – أمل رأسك إلى اليسار قليلا, هكذا هكذا – آه! لقد أصبح لي النور الذي أرغب, وسأنتهي منك بأقل من ساعتين – التصوير كالنظم يا ميشا: إذا تملكك الموضوع واهتديت إلى القالب المناسب نظمت القصيدة بسرعة وبغير عناء, فكأنها نظمت ذاتها كذلك إذا آنست ممن تصوره, أو فيما تصوره, قوة تستفزك إلى التصوير, فالصورة تصور ذاتها فتصبح الريشة في يدك بعضا من يدك, وتصبح أناملك كأن في رأس كل منها عينا, وكأن كل هذه العيون تبصر بحدقة واحدة استرح قليلا إذا كنت قد تعبت".

كنت جالسا في كرسي على دكة التصوير وعلى مقربة مني المنصب, وعلى المنصب لوحة من الكرتون الأبيض بقياس ٤٢×٥٥ سم, وجبران يصورني عليها بقلم من رصاص حسب عادته مع كل من صورهم في حياته من الرجال والنساء, ومنهم رودين, وطاغور, وميسفيلد – شاعر بريطانيا – والمصور الأمريكي ريدر, والكاتب ألاسوجي سترندبرج وسواهم, مكتفيا بتصوير الرأس لا غير.

كنت أرقب حركات جبران وهو يصورني فتدهشني بسهولتها ورشاقتها, فكان بعد أن يحدق في هنيهة يهجم على المنصب بقلمه الرصاصي الذي لم يكن يتجاوز الأربعة القراريط ويعمله في لوحة الكرتون, ثم يأخذ ينقل بصره من اللوحة إلى وجهي ومن وجهي إلى اللوحة, ثم يبتعد قليلا عن المنصب ويأخذ يزورني تارة واللوحة تارة أخرى ثم يعود إلى اللوحة بقلمه أو بالماحي (المحاية) الذي لم يكن أكبر من حبة الفول, وبعد أن يفركه بين إبهامه والسبابة حتى يتكون منه رأس كرأس القلم يأخذ يصلح به بعض الخطوط أو الظلال, وكثيرا ما كان يستعيض عن الماحي بإصبعه – بالسبابة أحيانا وأحيانا بالوسطى – ليخفف من ظل أو ليمد ظلا, كل ذلك ووجهه مشرق بلذة العمل, ولسانه جذل يجاري بالسرعة قلمه وأنا إذا آنست منه تلك الرغبة في الكلام, تركت له الحديث فما كنت أقاطعه إلا لأستزيده.

ليس يتعبني من كل من أصورهم مثل النساء يا ميشا, فقلما ترضى الواحدة منهن بصورتها كما تراها عيني ويبرزها قلمي لأنها, إن تكن عليها مسحة من الجمال, تتوقع مني أن أصورها أجمل من فينيس, وإن تكن خلوا من الجمال, تحسب من واجبي أن أجعلها جميلة, وأنا لا أسخر فني لأحد فالمعاني التي أراها في الوجه الذي أمامي هي التي أصورها, والوجه يعكس كل معاني الروح لمن يعرف كيف يستجلبها, والفن كل الفن في تصويرها, فهي مركبة من دقائق لا تحصى, تبصرها عين الفنان إذا كان أهلا لأن يدعى فنانا وقلما تبصرها حتى عين صاحبها, أما الآلة الفوتوغرافية فعمياء عن الكثير منها ولو لم يكن الأمر كذلك لقامت الآلة الفوتوغرافية مقام الفنان, لكنها لا ولن تقوم مقامه, ومن الآن حتى انقضاء الدهر لن تقوم آلة مقام إنسان.

"لا بد يا ميشا, لا بد لي ولك من الرحيل عن هذه البلاد, فالويل لمن كان مجهولا فيها لأنه ليس أثمن من خرقة, والويل لمن نال فيها ولو بعض الشهرة لأنه يصبح مثل ممسحة, أنا اليوم ممسحة يا ميشا, ونفسي تطالبني بعزتها, وفكري يطالبني بحريته, وجسمي يطالبني براحته, ولن أستعيد عزة نفسي وحرية فكري وراحة جسمي إلا في لبنان, ولو كنت تعرف الصومعة التي اخترتها لي ولك هناك لكنت تجذبني من يدي في هذه الدقيقة وتقول: هيا بنا إليها, هي صومعة أصلية يا ميشا لا تقليدية كصومعتي هذه"

فقلت بلجاجة: هيا أخبرني عنها بالتفصيل.

- هي دير مهجور في ضاحية من ضواحي بشرى اسمه مارسركيس قائم في جبهة وادي قاديشا, في سفح جبل الأرز, أما غرفه القليلة, ومنها كنيسة صغيرة, فمحفورة حفرا في قلب الجبل الكلسي, وأمامه منحدر من الأرض لا تزال فيه بعض أغراس قديمة من الكرمة, هي خلوة يا ميشا لا أظن في السماء أجمل منها, وأنا قد فوضت محاميا في طرابلس ليبتاعها لي لكنني أخشى من الرهبنة – قاتل الله الرهبان والراهبات – أن تمتنع عن بيعها لي, لأنني كما تعلم رجل كافر في نظر الرهبان والراهبات, مع ذلك فلي ثقة كبيرة بصديقي المحامى, فهو لا شك سيدير الأمر بحنكة ودراية. هناك سنعتزل العالم يا ميشا, وسنحلم ما طاب لنا أن نحلم, وسنكتب ما شئنا أن نكتب, وسنقتني مطبعة كاملة المعدات نذيع بواسطتها أحلامنا على الناس, وسنجعل من الطباعة فنا جميلا, وسنعمل في الأرض فنحول اليابس منها أخضر والقاحل خصبا, وستباركنا الرياح, وتفرح بنا الشمس, ويحمل إلينا الوادي أنفاسه الملهمة.

قلت وقد شاقني وصف جبران لتلك الصومعة, وأيقظ في نفسي أمنية قديمة عميقة

- نحن اليوم في نوفمبر من سنة ١٩٢٢, فما قولك لو استقبلنا ربيع السنة القادمة على كتف وادي القديسين؟

فأجابني, وكان في جوابه شيء من التردد, وكان تردده كالماء تصبه على نار متأججة:

- لي علاقات كثيرة هنا لا يمكنني قطعها في شهر أو أشهر, وعندي بعض أشغال لا بد من تتميمها, ومنها نشر كتابي النبي

- ما زلت ها هنا فعلاقاتك تزداد من يوم ليوم, ومادام لك اليوم أشغال لا يمكن إنجازها في لبنان فستبقى تولد لك أشغالا جديدة من نوعها, فلا تسكن مارسركيس إلا في أحلامك.

- لا بل سأسكنه – سنسكنه يا ميشا – بالجسد, إذا كنت قد مللت هذا العالم – عالم الماكينات والخيالات – فأنا قد مللته مثلك وأكثر, وأنت وأنا لم نجد منه ملجأ أجمل وأهنأ وأقدس من مارسركيس, وأنت ستحب تلك الصومعة مثلما أحبها.

- لقد جعلتني أحبها منذ الآن, وستزورها أحلامي مرارا عديدة قبل أن تزورها عيناي وتطأ ترابها قدماي, ألا قربنا الله منها أو قربها منا.

تحدثنا طويلا في مارسركيس, ولا شك في أن الأقدار التي كانت تصغي لحديثنا كانت تضحك منها, لأنها كانت تعلم أن جبران لن يدخل تلك الصومعة إلا محمولا على الأيدي, وفي نعش من صنع تلك الماكينات التي كان يود أن يهرب منها, وأنني لن أزورها لأنقطع فيها إلى التأمل, بل لأطرح سلامي على جثمان رفيقي معطرا بأنفاس طاقة جمعتها بيدي من أزهار جبل الأرز المقدس.

المصطفى

عندما أطل جبران بخياله على عالم الوحدانية الكاملة, حيث الحياة ألفة أبدية, تضاءلت في عينه كل العوالم التي سكنها من قبل والتي كان يحسبها حقيقة ولم تكن إلا وهما, وصار إذا ما ذكرها فكما يذكر الطائر قشة البيضة التي نقف منها, أو كما يذكر النهر الصخور والأدغال والأوحال التي مر بها قبل أن يبلغ البحر, أو كما يذكر من تسلق جبال الأودية والهضاب التي اجتازها قبل أن يدرك القمة, وصار كيفما أطلق خياله في جو عالمه الجديد رأى كل ما فيه يعانق بعضه بعضا عناق محبة لا حواجز فيها ولا حد لها, فراح يمجد الحياة – وقد دعاها من قبل عاهرة – ويهتف من أعماق قلبه: "ما أكرم الحياة وما أسنى هباتها!!" "ليت لي ألف يد منبسطة أمام السماء والأرض بدلا من هذه اليد المستحيية القابضة على حفنة من تراب الشاطئ"

ويشتهي لو كان له ألف عين ليرى كل ما في الحياة من جمال, وألف أذن ليسمع كل أنغامها الساحرة, ولأنه شاعر، وداء الشاعر بث مشاعره وأفكاره بالكلام, ولأنه مصور، ومحنة المصور تصوير ما يراه من الحياة, راح يفكر في "كيف" يخبر الناس بالكلام والخطوط والألوان عن الجمال الذي رآه في عالمه الجديد.

و"كيف" هذه ذات قيمة عظيمة في نظر الشاعر والفنان, اللهم إذا كان الشاعر شاعرا والفنان فنانا, فهي من الشعر والفن بمثابة الجسد من الروح, وهي لا تنحصر في تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والألوان, بل هي القالب الذي يفرغ فيه الكلام من بعد التنسيق, والفنان يعنى بقوالبه عنايته بما يسكبه فيها من روحه, لعلمه أن جمال القالب يزيد في جمال ما يسكب فيه, لذلك عندما تنسم جبران بخياله جمال الروح الكلي, وشاقه أن يخبر الناس عنه, كان همه الأكبر أن يخلق القالب الفني اللائق به, فما هو القالب الذي خلقه؟.

لقد خلق جبران رجلا دعاه "المصطفى" وجعل روحه نيرة إلى حد أن سامعيه كانوا يخاطبونه "يا نبي الله" وفي انتقاء الاسم وحده ما يحمل على التجلة والاحترام, فكلمة تسمعها من فم إنسان عليه وشاح النبوءة لأكبر وقعا بما لا يقاس من الكلمة عينها تسمعها من رجل عادي, وهكذا, بكلمة واحدة رفع جبران الفنان قيمة شعر جبران الشاعر إلى مستوى النبوءة حتى قبل أن يفوه به.

لكن جبران الفنان عرف كيف يخلع على مصطفاه وشاح النبوءة, فهو يبرزه لك رجلا غريبا في مدينة اسمها "أورفليس" صرف فيها اثنتي عشرة سنة في انتظار سفينته التي كانت قادمة لتعود به إلى الجزيرة التي هي مسقط رأسه, ثم يصعد به أكمة خارج المدينة حيث يبصر سفينته مقبلة في الضباب, فيفتح لك قلبه ويريك ما يتمايل فيه من العواطف المتضاربة بين لذة الانعتاق من الغربة وألم الوداع فتفهم إلى أي حد أحب مدينة غربته وأهلها وإلى أي حد أحبوه, ومن بعد ذلك يهبط به المدينة, وإذ يبصره أهلها ويدركون أنه مودع يتركون كل أعمالهم ويتقاطرون إليه ويلحون عليه بالبقاء بينهم, فلا يجيبهم إلا بالصمت والدموع وأخيرا يسير وإياهم إلى الساحة الكبيرة أمام الهيكل, وهناك تخرج من الهيكل رائية اسمها "الميترا" فيرمقها المصطفى بحنان كلي "لأنها كانت أسبق الناس إلى اكتشافه والإيمان به حين لم يكن قد مر عليه في مدينتهم إلا يوم واحد".

الميترا هذه تدرك أن لا مرد لعزم المصطفى لأنها تعرف عظم شوقه إلى "أرض تذكاراته ومسكن أمانيه الكبرى" فتطلب إليه أن يحدثهم قبل الوداع عن أنفسهم وعما عرفه بالوحي من كل ما هو بين الولادة والموت, بادئة بالحب والمحبة, وهكذا تفتح المجال فسيحا للمصطفى ليكشف لسامعيه علائقهم بعضهم مع بعض ومع الحياة, لا كما يرونها بأعينهم المقنعة بالأوهام, بل كما يراها هو بعين روحه الصافية في عالم الروح الصافي, فيمضي في حديثه الطلي, ولا ينتهي من علاقة حتى يسأله بعض السامعين أن يحدثهم في أخرى, وبعد أن يلقي عليهم خمسا وعشرين موعظة في خمس وعشرين جهة من جهات الحياة الإنسانية يودعهم مؤثرا وينصرف عنهم إلى بلاده.

هذا هو القالب الذي اختاره جبران ليسكب فيه خلاصة أفكاره في الناس وحياتهم, وهو – كما ترى – قالب جميل يليق بما يحمله, وما يحمله يليق به, لكنه – ويا للأسف – لم يكن كله من صياغة جبران, فشكله الإجمالي مستعار من نيتشه وزرادشت, فكان جبران الذي تخلص من سطوة أفكار نيتشه لم يتخلص من سطوة أساليبه البيانية والفنية ولم يكن يعلم أنه لم يتخلص.

نيتشه اتخذ زرادشت – وهو نبي – بوقا لأفكاره, وجبران اتخذ نبيا دعاه "المصطفى".

زرادشت نيتشه يسير غريبا بين الناس ناثرا عليهم أفكاره, وعندما تتعب روحه من الغربة بينهم وتحن إلى العزلة الملهمة يتركهم ويعود إلى "جزائره السعيدة", ومصطفى جبران ينثر مواعظه على الناس ثم يعود بعد غربته بينهم إلى "الجزيرة التي هي مسقط رأسه".

زرادشت نيتشه يودع تلاميذه في أخر القسم الأول من الكتاب ويقول لهم فيما يقوله: "وأنا لم أعد إليكم إلا متى أنكرتموني كلكم" ومصطفى جبران يودع أصحابه قائلا في بعض ما يقوله لهم: "أما إذا تلاشى صوتي في آذانكم, وطار حبي من ذاكرتكم, فإني عائد إليكم مرة ثانية".

زرادشت نيتشه, في أول القسم الثالث, يتأهب للعودة من الجزائر السعيدة إلى العالم فيصعد جبلا عاليا وفي صعوده يكشف قلبه وآلامه, ثم يشرف على البحر فيخاطبه هكذا: " وأنت أيها البحر القاتم, الحزين, المنبسط تحتي! أيها القدر وأيها البحر! إليكما أنحدر الآن"، ومصطفى جبران يصعد هضبة خارج أورفليس ويخاطب قلبه طويلا ثم يرى البحر فيخاطبه هكذا: "وأنت أيها البحر الشاسع, أيتها الأم الهاجعة, فيك وحدك السلام والحرية للجدول وللنهر, سيدور هذا الجدول دورة بعد دورة سيهمس بعد همسة في هذه الغاب, ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد إلى محيط لا يحد"

وكما أن زرادشت هو نفس نيتشه, كذلك المصطفى هو نفس جبران, وكما أن نيتشه طرح على زرادشت نفايا من التمويه الرمزي والمجازي يحجبه عن عيون الذين يجهلونه من قارئيه, هكذا طرح جبران على المصطفى نفايا من المجاز والرموز يحجبه عنت ليس يعرفه, أما من عرف جبران كما عفته فلا يصعب عليه أن يراه ويرى بعض ظروف حياته وكل أشواقه في المصطفى وظروفه وأشواقه, فما أورفليس التي كان فيها غريبا يترقب رجوع سفينته إلا نيويورك أو أمريكا, وما "أليترا" التي اكتشفته وآمنت به قبل كل الناس إلا ماري هاسكل, ولا "الجزيرة" التي كان يشتاق العودة إليها غير لبنان ولا وعده لأهل أورفليس بأنه سيعود إليهم سوى إيمانه بعقيدة التناسخ القائلة أن الموتى الذين لم ينهوا دورة الحياة الكاملة يعودون حتما إلى الأرض ليجدوا عليها ويكملوا العلائق التي تركوها عند موتهم ولك إن أنت شئت, أن تتخيل في غربة المصطفى في أورفليس غربة الروح عن ربها أثناء دورتها الأرضية, وأن ترى في عودته إلى "الجزيرة" عودته إلى مصدر الحياة الأسمى, فالشاعر يترك المجال فسيحا لخيالك, وفي ذلك سر من أعظم أسرار فنه..

لئن دفع جبران في كتابه "النبي" جزية كبيرة لنيتشه من حيث القالب فهو من حيث الروح التي سكبها في ذلك القالب لم يدفع جزية إلا لخياله, أما تلك الروح فهي من ينبوع الروح الفياضة الذي تستقي منه كل روح, فإذا ما رأيت تشابها فائق الحد بين ما يبديه جبران من النظرات بلسان المصطفى وبين ما تقرأه من آثار بعض الصوفة, وبالأخص في كرازة بعض الأنبياء والرسل, فلا تتسرع بحكمك على جبران ولا تقل أنه قد نقل ما ليس له, بل قل أنه قد تناوله بخياله من حيث تناوله من قبل, ويتناوله اليوم, كل خيال انعتق من كابوس المقاييس والموازين وجميع ما تقيسه من المحدودات المتناقضة, فهو من هذا القبيل لم يأت بشيء جديد – وهل من جديد تحت الشمس؟ لكنه قال ما قاله بأسلوب يكاد يكون جديدا بنضارته, وانسجامه, وجمال ألوانه واتساقها, ووفرة أنغامه وائتلافها, وقلة كلامه, وقوة الحياة النابضة في كل نبرة من نبراته, وسكتة من سكتاته, حتى أنك لو شئت أن تجد فيه عيبا يستحق

الذكر لما استطعت, إلا إذا قصدت التنكيت والتعنت, أو كنت ممن لا يستسيغون كثرة الطلاء في الكلام, فقد نعيب عليه وفرة المجاز والاستعارة والكناية, وحينئذ ليس أسلوب "النبي" عندك غير طلاسم في طلاسم, لأن جبران في هذا الكتاب, أكثر منه في أي كتاب آخر, بلغ أقصى مقدرته الفنية في انتقاء التشابيه المبتكرة وابتداع الاستعارات والمجازات الناتئة كتماثيل محفورة في صخر, لكنها تماثيل مبهمة لمن لا ميل فيه إلى مثل هذا النوع من الفن, أو لمن حرم التمتع بها في حلتها الإنكليزية, فهي في الترجمة تفقد الكثير من روعتها وطلائها لاسيما إذا كان المترجم قليل الحظ من الذوق الفني وقصير الباع في اللغة التي يترجم منها أو إليها، وماذا الذي قاله جبران بلسان نبيه؟

في "النبي" أشرف جبران بخياله على الحياة فرأى جوهرها لا يتميز واحدهم عن الآخر إلا بقدر ما أدرك الواحد ذلك الجوهر وجهله الآخر, وهذا الجوهر يذيع ذاته لكل الناس على السواء, لكن بعضهم لا يسمعه ولا يبصره, لكثرة ما في أذنيه من أصوات الحس المشوشة, وما على بصره من غشاوات الوهم الكثيفة, أما الذي طهر أذنيه من جلبة الحواس الخارجية ومزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع أو يبصر من الحياة إلا جوهرها الصافي, وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها بل يحبها بكليتها ويمتثل لها فيصبح واحدا وإياها. لذلك يقول المصطفى لأهل أورفليس: "إذا ما أحببتم فلا تقولوا: إن الله في قلوبنا, بل الأحرى بكم أن تقولوا: إننا في قلب الله"

ومن كان في قلب الله هل يرى من فاصل بينه وبين إنسان؟ أو لا يصبح كل إنسان فيه وهو في كل إنسان؟ ومن كان كذلك كيف له أن يقول: أعطيت فلانا أو أخذت من فلان؟ أو ليس هو الآخذ عندما يعطي والمعطي عندما يأخذ؟ وإذ ذاك ففضل من يعطي كفضل من يأخذ – لا أكثر ولا أقل.

ومن كان في قلب الله كيف له أن يدين أثيما بإثمه؟ أفي الله إثم – حاشا.. إنما الإثم في الإنسان الذي لم يتوصل بعد إلى ذاته الإلهية, والناس في الإثم سواء:

"أنتم تقدرون أن تفصلوا بين العادل والظالم, وبين الصالح والشرير, من شاء منكم أن يرفع الفأس على شجرة ليقطعها باسم الصلاح عليه أن يتفقد جذورها أولا, الحق أقول لكم أنه يجد الجذور الصالحة والطالحة, والمثمرة وغير المثمرة, ملتفة معا في قلب الأرض الصامت, وكما أن ورقة واحدة على الشجرة لا تصفر إلا بمعرفة الشجرة كلها, هكذا لا يرتكب أحدكم جريمة إلا بإرادتكم الخفية المشتركة".

ومن كان في قلب الله كيف له أن يقيم حواجز بين شيء وشيء, حتى بين نفسه وبين ما يأكله ويشربه؟

"ليت لكم أن تحيوا بأريج الأرض، ولكنكم ما دمتم مضطرين إلى القتل لتأكلوا, وإلى سلب صغار البهائم حليب أمهاتها لتطفئوا عطشكم, فليكن أكلكم وشربكم نوعا من العبادة ولتكن موائدكم مذابح تقدمون عليها الطاهر والبرئ من مواليد الغاب والسهل ذبائح لكل ما هو أطهر وأكثر براءة منه في الإنسان, وعندما تذبحون بهيمة قولوا لها في قلوبكم, إن القدرة التي تذبحك تذبحنا, وما دمك ودماؤنا إلا العصير الذي يغذي شجرة السماء"

إلى مثل هذا المستوى يرفع المصطفى سامعيه, مستعينا في حديثه بالطبيعة ومظاهرها, وماسحا لهجته بمسحة ظاهره من لهجة بعض أسفار "العهد القديم" ومستعيرا من الإنجيل بعض الرموز والقوالب اللفظية مثل: "لقد قيل لكم كذا وكذا أما أنا فأقول لكم كيت وكيت, والحق الحق أقول لكم" وسواها, إلا أنه يفعل كل ذلك بحذاقة ولباقة وفن تنسيك ما في حديثه من مستعار, وتحملك على أجنحة قوية سريعة إلى حيث تقصد أن تحملك, فلا تودع المصطفى إلا تحس بأنه قد أودع حشاشتك حشاشة السنين التي صرفها في التأمل والألم, وأنه – إن كنت مغمض الروح – قد فتح في روحك كوة واسعة تطل منها على الروح الكلي.

وضع جبران لكتابه "النبي" اثنى عشر رسما, عشرة منها بالأدهان المائية واثنان بالرصاص, وهما رسم المصطفى في أول الكتاب, واليد المبدعة في آخره أما المصطفى فأول ما يستوقفك من وجهه عينان واسعتان ذاهلتان تبدوان كأنهما لا تنظران إلى شيء ولكنهما تبصران ما هو أدق من الأشياء وأقصى من مجال الإبصار, ثم تنظر إلى فمه بشفتيه المتلاصقتين فتكلم تحسبهما متورمتين بحمى الشهوات الجسدية لولا ما فيهما من حزن عميق وصمت يترفع عن الشهوات وكل ما فيها من ضوضاء النزاع والغيرة والاستقتال, وعلى الوجه كله, بما في تقاطيعه من صلابة وقوة, تطفو سحابة شفافة من الكآبة القصوى التي تكاد تلامس الفرح الأقصى, أما الشعر فقد انسدل على جانبي الوجه إلى تحت الذقن بسهولة وخفة ونعومة تنسيك أنه شعر وتجعله يبدو كهالة من نور, هو وجه تحدق إليه طويلا فترى فيه ميدان عراك عنيف بين ما استتر تحته من أهواء الأرض وأشواق السماء وترى الغلبة بجانب السماء, لكنهما غلبة لم تلتئم بعد الجراح التي سببتها, ولم تلحد بعد الأشلاء التي تركتها مبعثرة في ساحة القتال.

وأما "اليد المبدعة" فيد منبسطة تكاد تلمس قوة الفن في كل إصبع من أصابعها, وفي وسط كفها عين مفتوحة تبصر كل شيء, ومن حولها دائرة من الأجنحة المتلاصقة بأطرافها وكأنها في زوبعة من الحركة السريعة, ومن حول الأجنحة سديم أو ضباب تطوقه دائرة من الأجسام البشرية المشتبكة بعضها ببعض, هذه يد الله, في لمسها بصر, وفي بصرها خيال, تتخيل الأشكال قبل أن تكونها, ثم تلمس السديم فتكون الأشكال, ولعل جبران عندما رسم هذه اليد بالذكرى إلى "يد الله" من صنع رودين, لكنه إذا ما أخذ منها الفكرة الأساسية, فقد أعطاها من فنه كيانا استقلت به كل الاستقلال عن يد رودين.

ما بقي من الرسوم قد جاء بمثابة تعليق على المتن, وأحيانا بمثابة متن فوق المتن, فيه رموز بعيدة, وانسجام فني بديع, ولكن في تقاطيع بعضه نعومة تبلغ درجة من الاسترخاء والأنوثة قد تستحبها في فن امرأة إلا أنك تستهجنها في فن رجل, أما

من حيث قوتها الرمزية, والفكرة التي ترمي إليها فلا يسعك إلا أن تجلها وتكبر الخيال واليد التي أبرزتها أمامك أشكالا محسوسة, مثال ذلك رسم الألم, وهو يمثل امرأة مصلوبة على صدري رجلين تحبهما بالسواء أو يحبانها بالسواء, فلا هي تستطيع أن تقسم قلبها بينهما, ولا الواحد منهما يرضى بأقل من قلبها كله, ولعمري هل من ألم أشد من ألم الحب الذي يصبح صليبا للمحب؟ بل أعذب من الحب يقود المحب إلى آلام الصليب, ومن آلام الصليب إلى غبطة المحبة العلوية؟.

قبل أن يسلم جبران "النبي" إلى الناشر بشهر أو شهرين أعطاني نسخة منه مكتوبة على الآلة الكاتبة, وأرسل مثلها إلى ماري هاسكل لتنظر فيها وتهديه إلى كلمات قد يكون أساء استعمالها أو عبارات قد لا يكون قالبها إنجليزيا بحتا, وتلك كانت عادته معها في كل كتاباته الإنجليزية, أما النسخة التي أعطاني إياها فكان قصده منها – وإن لم يكشفه لي بالتمام – أن أدرس الكتاب درسا وافيا وأقول فيه كلمة عند صدوره, وكان قد قرأ لي كل موعظة من مواعظه حال فراغه من تأليفها – ما خلا الفاتحة والخاتمة, لكنني بعد أن قرأت الفاتحة والخاتمة ورأيت جبران يحدث عن نفسه في تلك وهذه استنكرت منه أن يصور نفسه نبيا حتى تحت نقاب من التمويه الفني، فلو أنه اتخذ من المصطفى بوقا لا غير لأفكاره وأشواقه لهان الأمر, ولقلت أن جبران الفنان والشاعر شاء أن يصور نبيا ويكشف عن روح نبي, كما نصور أمرا نرغب فيه ونقصر دون الوصول إليه.

لكن جبران ربط ظروف حياة المصطفى بظروف حياته وصوره كمن بلغ في الواقع الحالة الروحية التي يحدث عنها, فكأنه صور نفسه بالغا تلك الحالة لا بخياله فقط بل في كل أحوال معيشته وأدوارها, ولأنه خلع عليه وشاح النبوءة فكأنه خلعه على ذاته أيضا.

قد يكون أن جبران لم يقصد هذا القصد, لكن ذلك ما تؤديه فاتحة الكتاب وخاتمته, وذلك ما أداه الكتاب كله إلى أذهان الكثير من الناس وبالأخص أولئك

الذين كتبوا فوق ضريحه في مارسركيس هذه الآية: "هنا يرقد نبينا جبران"، وكأنه أقام لهم من يحاسبهم عن الضمير في "نبينا" إلى أين يعود, فغيروا الكلمة إلى "بيننا", وهي التي قرأتها عندما زرت الضريح صيف سنة ١٩٣٢.

حصة في السماء، وحصص في الأرض

رحل "النبي" عن قلب جبران فتسلمته المطابع ولفظته في خريف سنة ١٩٢٣, كتابا صغيرا بسيط الهندام, جميل, وأرسلته في الشعاب التي تدرج عليها مواليد المطابع في هذه الأيام والتي يخفرها تنين النسيان ويطوقها غربال الزمان فلا يبقيان منها إلا على القليل, وكان جبران قد فرش لكتابه الجديد بساطا من الدعاية المستطرفة التي تنسيك أنها دعاية لما فيها من جواذب اللطف والدماثة والفن, ففي نيويورك وحدها من مدن الولايات المتحدة جمعيات وحلقات وأندية وصالونات لا تحصى تدعي علاقة ما بجهة ما من جهات الفن أو الأدب أو الدين وما ينتمي إليها, بعضها للنساء وبعضها للرجال وأكثرها مشترك بين الرجال والنساء, الذين يروقهم أن يسرقوا من ساعات أعمارهم المهدورة في سبيل الجسد ومنازعه بضع ساعات في الأسبوع يتلهون فيها بما يحسبونه أرفع من حاجات الجسد وملذاته, وبذلك يوهمون أنفسهم أنهم من طينة أنقى وأشرف من سائر الناس, وأنهم "يوفون قسطهم للعلي", ولا يخفى ما في ذلك الوهم من لذة التخدير والاغترار بالنفس من عادة تلك الجمعيات والحلقات والأندية والصالونات – على ما بينها من تفاوت في المراتب – أن تتبارى في دعوة الشعراء والكتاب والفانين لإلقاء المحاضرات, أو للقراءة من مؤلفاتهم, وجبران كان لا يرد دعوة للقراءة حتى إذا جاءته من هيئة يستصغرها أو يحتقرها, وإن هو تلكأ في ذلك كان ناشر كتبه يحثه أن لا يهمل فرصة تمكنه من الظهور بين الناس, لأنه يعرف أن اسم الكاتب إذا شاع على ألسنة الناس كان من أقوى العوامل في ترويج كتاباته, والكاتب الذي كثر معارفه راجت مؤلفاته, لا سيما إذا كان معارفه من ذوي النفوذ, لذلك ما صدر "النبي" إلا بعد أن كان جبران قد قرأ فصولا منه في أندية أمريكية عديدة.

أما بين إخوانه المهاجرين في الولايات المتحدة فقد كان لجبران في "السائح" أكبر بوق وأعظم نصير, وجبران كان يعرف كيف ينتقي الأخبار التي كان يقصد

إذاعتها عن نفسه في السائح من غير أن يجعل صاحب السائح يشعر بقصده, وصاحب السائح من فرط حبه لجبران, كان يأخذ عنه الخبر ويبرزه في الجريدة بأسلوب منمق يزيد في أهميته أضعافا, فكان من جراء ذلك أن أقبل السوريون المهاجرون على كتب جبران بالإنكليزية – والنبي بوجه خاص – يبتاعونها لأنفسهم ويهدونها إلى بعض معارفهم من الأمريكان آملين بذلك أن يرفعوا مقامهم في نظر جيرانهم وعملائهم من أهل البلاد, فكأنهم كانوا يقولون لهم "انظروا, فمؤلف هذه الكتب ابن بلدتنا وابن لغتنا, وهو يجيد لغتكم خيرا منكم, فما نحن بالقوم الخاملين كما تتوهمون", وذلك أبدا شأن الضعيف يباهي بعزم ابن عمه أو خاله, وشأن الأقرع يفاخر بشعر أخيه أو جاره, والمفلس يذكرك بما كان عليه من الثروة آباؤه وأجداده.

من الأخبار التي أذاعتها "السائح" عن "النبي" خبر قراءته في كنيسة أمريكية في نيويورك, فقد كان منه, ومن شتى الروايات التي نقلتها الصحف العربية عنه, أن اعتقد الكثير من الناس بأن "النبي" أصبح في أمريكا كتابا كنسيا مقدسا, إلى حد أن البعض في لبنان كان يسألني بكل جد: "أصحيح أن النبي قد حل في كنائس محل الإنجيل؟!" أما حقيقة الخبر فهي أن في نيويورك كنيسة أسقفية (أبيسكوبالية) تدعى كنيسة القديس مرقس في الباوري, وهي من أقدم الكنائس في المدينة, ولها قسيس اسمه وليم غثري, ولهذا القسيس نظر غريب في العبادة وطقوسها وأساليب تحبيبها إلى الناس, فهو يرى أن طقوس الكنيسة لم تعد تفي بغايات الناس في هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع الملاهي, وأن الناس يتوانون في تأدية فروضهم الدينية لأنها متحجرة وقاسية بالنسبة إلى ما في روح العصر من المرونة واللين, لذلك رأى أن يجعل من كنيسته شبه مسرح أو هيكل يوناني قديم فيه الرقص, وفيه الشعر, وفيه التمثيل, حتى ومناجاة الروح, مدعيا أن في ذلك جمالا, وأن الجمال في كل مظاهره يبعث على التخشع والعبادة, فقد شهدت هناك مرة امرأة جاء بها غثري كانت تدعي أن الأرواح توحي إليها الشعر, فكان من شاء من الحضور أو "المصلين" يعطيها "موضوعا", وهذا الموضوع قد يكون كلمة, أو عبارة, أو اسم علم أو أي شيء آخر, فتذهل هنيهة ثم

ترشقك "برباعية" تتسابق مفرداتها من فمها تسابق الرصاص من فم المترالیز, وليس في الرباعية معنى, والشعر منها براء, غير أن الحضور كانوا مبتهجين لمثل هذه الفرحة, وكانت الكنيسة غاصة بهم حتى الأبواب.

لقد نجح غثري نجاحا باهرا من حيث إكثار عدد المصلين في كنيسته لاسيما من بعد أن اصطدم بمطران الأبرشية الذي شجب أعماله, وهدده بالحرم والتجريد من حلله الكهنوتية إن هو لم يقلع عنها, فتناولت الصحف الخلاف ووسعت خرقه, فازدحمت كنيسة غثري "بالمصلين" والمتفرجين وطارت "شهرته" في البلاد من أدناها إلى أقصاها.

ذات أحد دعاني جبران مع نسيب عريضة وعبد المسيح حداد إلى كنيسة القديس مرقس هذه, قائلا أنهم سيقرءون من بعض كتاباته في خلال الخدمة وسيمثلون "النبي" فذهبنا, وكان أول ما سمعناه هناك من كتابات جبران قصيدته المنثورة "الليل والمجنون", وهي قطعة لا صلة بينها على الإطلاق وبين ما اعتاد الناس سماعه في الكنائس, إذ لا علاقة لها بالدين لا بمعناه المحصور ولا بمعناه الواسع, فكان رجل ينشد ما يقوله "المجنون" على توقيع الأرغن, فيجيبه آخر بلسان "الليل", وهكذا حتى آخر القصيدة, وعند انتهاء الخدمة ظهر على المسرح رجل في قميص أبيض عرفنا أنه يمثل المصطفى, وهذا الرجل أخذ يجيل بصره ذات اليمين وذات اليسار, ثم راح يخاطب نفسه بما يخاطب المصطفى نفسه في أول الكتاب وذاك بصوت غير طبيعي وبلهجة تمثيلية خالية من الروح, وبعد قليل أقبل عليه نفر من رجال "أورفليس" ونسائها وفي مقدمتهم امرأة في حلل بيضاء عرفنا أنها النيترا, فألقى المصطفى موعظتين أو ثلاثا من مواعظه, وبها اختتم "الرواية".

عندما خرجنا من الكنيسة أبديت لجبران أسفي على أن الممثلين قد شوهوا ما حاولوا أن يمثلوه فوافقني جبران في ذلك لكنه أضاف:

- ولكن, يا ليتك شهدت يا ميشا تمثيل "النبي" في كلية سمث للبنات, فقد أجادت البنات في تمثيله أيما إجادة, أما هؤلاء فليسوا بممثلين.

إلا أن "النبي", وإن ساعدته الدعاية, ليس من الكتب التي لا تعيش إلا بالدعاية ولا من الكتب التي تموت على دواليب المطابع فلا تحييها لا الدعايات ولا الإعلانات, بل إن فيه من عصير الفكر الصافي ومن وهج الخيال المتوقد ما يكفل له حياة مترامية الأطراف, متعددة الأصداء, موفورة بالسنين, فجبران قد عرف كيف يجعل منه شجرة كاملة بفروعها وأغصانها, وكيف يدفن جذورها في تربية الحياة البشرية حيث تبقى حية ما دامت البشرية حية, فما دام الناس يولدون ويموتون, ويأكلون ويشربون, ويحبون ويتزوجون, ويفرحون ويحزنون, ما دام الناس ناسا سيبقى بينهم من يفتش عن معاني الحب والزواج وسواهما من علائق الحياة, ومن يرتاح إلى تفسيرها كما هي مفسرة في "النبي", وقد يبوخ أسلوب الكتاب الرمزي والمجازي كما باخت من قبله أساليب بيانية كثيرة أما جوهره فلن يبوخ.

وكأني بجبران, بعد أن أسلم "النبي" إلى العالم, تنفس الصعداء وقال في قلبه: "الآن قد لفظتها!" والضمير عائد إلى الكلمة التي كان يحسها في فمه فلا يطلقها إلا بعد أن يتثبت من أنه قد أودعها خلاصة روحه وجوابه الأخير لنفسه عن الحياة وكنهها وزبدتها, فقد عرف أن الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجزئية والفردية والزمانية والمكانية, وأنها في قطرة الماء مثلها في الأوقيانوس, وفي ذرة الرمل مثلها في الجبل, فهي لا تحد حتى في أصغر مظهر من مظاهرها, وكأني به ذكر ما كان من شأنه معها قبل ذلك من تأفف وتفجع وثورة وعصيان فضحك من نفسه وقال:

- عندما طرحني الله حصاة في بحرة الحياة العجيبة أحدثت على سطحها دوائر لا تحصى, لكنني من بعد أن باغت القاع أصبحت هادئا.

لقد كان على جبران, وقد بلغ القاع، أن يهدأ, لكنه لم يهدأ هناك ولم يستكن, لأنه لم يبلغ القاع إلا بخياله, فكان كموسى الذي أشرف على أرض الميعاد فوطئها بعينه لا بقدميه, وذاق طعم لبنها وعسلها بروحه لا بفمه, أو كان كالغواص ينحدر إلى قاع البحر مشدودا بالحبال, فلا يتلمس القاع هنيهة من الزمن حتى تشده

الحبال إلى سطح البحر, والحبال التي كانت تربط جبران بسطح الحياة وما عليه من أمواج صاخبة وزبد متطاير كانت أشد من أن يقطعها خياله, وهذه الحبال ظلت تخز مفاصل أيامه ولياليه وتكبل أجنحة أحلامه وأشواقه, وتحول دون السلام بين نفسه ونفسه حتى آخر حياته.

إن كلمة تطلقها من فمك تصبح شهادة لك أو عليك تجاه الناس, إن خيرا فخير وإن شرا فشر, وليس ينقضها إلا أعمالك, وجبران قد أدى في النبي شهادة في نفسه تكاد تكون الكمال بعينه, فمن يشهد مثل تلك الشهادة عليه أن ينسى ذاته الفردية ليجدها في الذات العامة, فلا يبغض إنسانا لأنه كل الناس, ولا يملك شيئا لأن كل شيء له, ولا يهرب من الألم لأنه الطريق إلى الخلاص, ولا يدين مجرما لأنه يدين نفسه, ولا يطلب مجدا لأن كل مجد باطل, وإن هو لم يفعل كل ذلك كانت شهادته كاذبة.

وجبران كان أدرى الناس بذلك, فهو كان يعرف أن "من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره – كما قال الإمام علي– "وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه, ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم", ولأنه كان يعرف ذلك كان يتألم من نفسه القاصرة دون اللحاق بخياله, ويعزيها بقوله إنها ستعود إلى الأرض لتتغلب في دورات تالية على ما استعصى عليها في دورتها هذه.

كان "النبي" لا يزال مخطوطة في حقيبة جبران عندما طغت على الولايات المتحدة موجة المقامرة بالأطيان والمسقعات, فكنت لا تسمع إلا بمن ابتاع أمس بيتا أو قطعة من الأرض بألف دولار فباعه أو باعها في الغد بألفين أو ثلاثة, فاندفع جبران مع من اندفعوا بذلك التيار, وتشارك مع رجل سوري في بوسطن في شراء بناية هناك, ودفعا نحو عشرة آلاف دولار من أصل ثمنها وبقي نحو أربعة أضعاف تلك القيمة دينا عليها, وتوفق الشريكان على الأثر إلى سيدة استأجرت منهما البناية لتجعلها مركزا لجمعية نسائية, وكانت قيمة الأجر المتفق عليها وافية لدفع الفوائد

واستهلاك الدين في خلال سنين قلائل, إلا أن الشريكين اضطرا أن يحدثا في البناية تحسينات وتبديلات كثيرة لجعلها "لائقة" بتلك الجمعية وغاياتها, والتحسينات هذه كلفتهما من المال قدر القسط الذي دفعاه من الثمن, لكنهما كانا يمنيان نفسيهما بأرباح طائلة, وهكذا راح جبران يرى الثروة على قيد باع منه, وفيها يرى الاستقلال المادي التام الذي كان يحلم به كل حياته.

ولكن سرعان ما انقلب الأمل إلى ألم, فما هي إلا شهور حتى قصرت السيدة المستأجرة عن الدفع مدعية أن جمعيتها لم تنجح, وأن آمالها بنجاح تلك الجمعية كانت كل ما لديها من رأس مال, وإذ أن البناية لم تعد صالحة إلا لجمعية كتلك الجمعية تعذر على جبران وشريكه إيجارها, وإذ لم يبق في أيديهما مال تعذر عليهما دفع الفوائد واستهلاك الرهن, فذهب مالهما وذهبت أتعابهما هباء.

في تلك الأثناء كتب جبران إلى من بوسطن يقول:

"يعلم الله أنني لم أصرف شهرا في غابر حياتي يماثل الشهر الماضي بصعوباته ومصائبه ومشكلاته ومعضلاته, ولقد سألت نفسي مرات ما إذا كانت "جنيتي" أو "تابعتي" أو "قرينتي" قد تحولت إلى عفريت يعاندني ويقاومني ويوصد الأبواب أمامي ويضع العثرات في سبيلي, منذ مجيئي إلى هذه المدينة العوجاء وأنا في جحيم من الدنيويات, ولولا شقيقتي لتركت كل شيء وعدت إلى صومعتي نافضا الدنيا عن قدمي"

"غير أن الأمور التي أبقتني في هذه المدينة والتي تجبرني على البقاء عشرة أيام أخرى, لا تتعلق بما كتبت أو قرأت أو سأقرأ، بل بأشياء جامدة بليدة متعبة تملأ القلب شوكا وعلقما وتقبض على الروح بكف حديدية خشنة كالمبرد"

هي ضربة استنزفت من جبران كل ما جمعه من المال بالجد والتوفير, في خلال سنين طويلة, فضعضعت قواه, وبعثرت أفكاره, وأغلقت عليه أبواب إلهامه, وأثقلت من وطأة مرضه, لكنه تلقاها بصبر جميل وجأش رابط, ورأى أن لا مناص له من

تجديد بنيان استقلاله المادي, فهجر القلم زمانا وعاد إلى ريشته يستعين بها على رد خسارته, وكانت كتبه قد بدأت تدر عليه بعض المال, والخمسة والسبعون دولارا من مارى ما برحت تأتيه كل شهر, وما هي إلا سنتان أو ثلاث حتى انتعش جبينه من جديد, فلملم شعث أفكاره واسترد مفاتيح خياله, وثاب إلى محابره ودفاتره, وكان قد مضى عليه نحو ثلاثة أعوام لم يصدر له في خلالها كتاب, وهي سكته طويلة, في بلاد أمريكا لكاتب لا يرضى أن ينساه الناس وهو حي.

أقبل جبران على شذور كان قد وضعها بالعربية في أدوار مختلفة من أدوار حياته, فترجمها إلى الإنجليزية وزاد عليها وأصدرها في سنة ١٩٢٦ في كتاب سماه "رمل وزبد", وقد قال لي في ذلك الوقت أنه كان يشعر كما شعر الملك داود عندما مات ابنه من بتشابع – امرأة أوريا, فداود انقطع عن الطعام والشراب, واستسلم للحزن في كل مدة مرض الصبي, أما عندما بلغه خبر موته "فاغتسل وأدهن وغير ثيابه" وأمر عبيده فجاءوه بطعام وأكل قائلا: "لما كان الصبي حيا صمت وبكيت لأني قلت من يعلم لعل الرب يرحمني ويحيا الصبي, وأما الآن فقد مات, فلماذا أصوم؟ أفأستطيع أن أرده بعد؟"

وهكذا هو جبران, فقد كان قبل أن تنتهي مشكلة البناية في بوسطن, يعلل نفسه بأن يسترد منها ولو بعض ما دفنه فيها من ماله, لكنه بعد أن انتهت المشكلة ولم يبق له من أمل بأقل تعويض, طرح خسارته من فكره وثاب إلى أدبه وفنه.

لم يمض وقت طويل حتى ابتاع جبران أربعين حصة في البناية التي يسكنها في نيويورك, وهذه المرة كانت صفقته رابحة إلى حد أنها عوضت عليه أضعاف خسارته في بوسطن.

الدبُكّ

"الدبك" بضم الباء وتشديد الكاف، كلمة عامية شائعة في بعض جهات لبنان, وهي تعني حيلة يقصد بها المزح إذا انطلت على الممزوح معه, وأنا مدين بعنوان هذا الفصل لرشيد أيوب الذي نبش هذه الكلمة من خزانة تذكارات صباه فأدخلها على قاموس إخوانه في "الرابطة" والمقربين منهم, وأكثرهم لم يكن سمعها من قبل في حياته, وأنا مدين بالفصل كله لعبد المسيح حداد الذي كان يجيد هذا النوع من المزاح أيما إجادة, لاسيما مع رشيد أيوب الذي دعاه لذلك "شيخ الثعالب" أو "الثعلبان" للمبالغة, وكلاهما خفيف الروح, حاضر النكتة, لطيف المعشر, فكم حالة عابسة بدلاها بحالة ضاحكة, وكم ساعة تدب ثوانيها في أصفاد من الهم والأسى جعلاها دقيقة ترفرف بأجنحة من الزهو والطرب.

كان النهار سبتا, وكان عبد المسيح منهمكا في إصدار عدد ممتاز من السائح فمررت به بعد الغداء ومن لطخ الحبر على يديه عرفت أنه كان في المطبعة وأنه قد باشر الطبع بعد أن اكتملت لديه كل المواد, وكان آخر ما وصله منه أبياتا لرشيد أيوب أطلعني عليها قبل ذلك بيوم فأعجبتني وقرأتها لجبران بالتليفون فأعجبته.

كان عبد المسيح يحدثني عن تعبه المضني وتنسيقه والوقوف على طبعه, وكنت أقلب بعض الصحف على المنضدة أمامي, فوقع في يدي عدد من جريدة "ألف باء" الدمشقية, وفي صفحته الأولى عمود أبيض ضرب قلم المراقبة على ما فيه, تأملت ذلك العمود وأنا أعجب لسخافة المراقبين وأقلامهم, وهنا خطر لي أن في ذلك العمود الأبيض جرثومة صغيرة "دبك" كبير أو أحيولة ينصبها عبد المسيح لرشيد أيوب, فما كدت أبوح لعبد المسيح بما جال في خاطري, حتى أطرق هنيهة, ثم انتصب واقفا, وقد لمعت عيناه بنور الفوز, وبأسرع من لمحة الطرف خطف الجريدة من يدي هاتفا: "عندي!" وهرول خارجا.

بعد دقائق عاد عبد المسيح وفي يده ألف باء وإذا بالعمود الأبيض قد اسود, وإذا بالسواد الذي فيه أبيات رشيد أيوب التي قدمها للسائح الممتاز, وفي أعلاها بأحرف كبيرة هاتان الكلمتان: "ابن المعتز"! .

أدركت في الحال ما فعله عبد المسيح, فقد ذهب توا إلى المطبعة حيث كانت أبيات رشيد لا تزال منضدة, فحذف من أعلاها اسم رشيد أيوب "العامل في الرابطة القلمية" ووضع مكانه اسم ابن المعتز, وطبعها في العمود الأبيض كما تطبع البروفة فجاءت نظيفة, منمنمة, سوداء, لا تميزها عما حواليها من مواد إلا عين خبيرة بأسرار الطباعة وألوان الحبر وأشكال الأحرف.

وكان قد قرب ميعاد قدوم رشيد أيوب إلى الإدارة لينام هناك "دقيقته المعهودة" حسب عادته من بعد كل ظهر كل يوم, فاتفقت وعبد المسيح أن نطرح الجريدة في سلة المهملات, وبعد أن يأتي رشيد نكلف رجلا من غير الرابطة أن يجلس إلى منضدة التحرير ويتظاهر كما لو كان يفتش من غير اكتراث عن صحيفة ما يتسلى بها, فينتشل مصادفة ذلك العدد من ألف باء، ثم يطرحه من يده إلى الأرض ثم يرفعه وقد وقع نظره على أبيات ابن المعتز, فيظهر لها اهتماما كبيرا ويقرأها بصوت عال لائما عبد المسيح لأنه يطرح مثلها في سلة المهملات بدلا من أن ينقلها إلى السائح حين أنه ينقل الكثير مما هو دونها وهكذا كان, فما دخل رشيد واحتل كرسيه وسند رأسه بكفه وراح يغازل إلهة الأحلام حتى بدأ "المساعد" بتمثيل دوره, وما قرأ بيتين أو ثلاثة من أبيات "ابن المعتز" حتى أرهف رشيد أذنيه ورفع نظارته عن عينيه إلى جبهته, ثم هب عن كرسيه وبالرغم من سنه الخمسين وثب وثبة واحدة إلى القارئ واختطف الجريدة من يده, فما وقعت عيناه على العمود الذي فيه أبياته حتى جمد في مكانه وقد جحظت عيناه, وامتقع لونه, واستولت الدهشة على كل عضلاته.

هي لحظة لا توصف, لكنها لم تكن إلا لحظة أشرقت بعدها أسرة رشيد, وعادت نظارتاه من جبهته إلى عينيه, ومشى الدم في عروق وجهه, فالتفت إلى عبد المسيح مقهقها وقال:

- آه يا ثعلبان! هذا دبك... لقد بلغت من فنك لدرجة هي العبقرية بعينها.

ونحن في ذلك وإذا بجبران يخاطب الإدارة بالتليفون قائلا إنه قادم بعد قليل, فاتفقنا بالبداهة أن نلعب الدور معه. وكان من نصيبي أن أمثل الجانب الأكبر من ذلك الدور، وجاء جبران, فلم نبش له كالمعتاد بل استقبلناه بوجوه ارتسم عليها الحزن والهم والارتباك, إلا رشيد فقد تظاهر كما لو كان لا علم له بشيء, وما هي إلا هنيهة حتى بدت الحيرة على وجه جبران كذلك, فأخذني جانبا وسألني بالهمس: "ما الخبر؟" أما أنا فمن غير أن أجيبه بكلمة أخذته من يده ودخلت به غرفة محاذية, ومن بعد أن أغلقت الباب كمن يخشى أن يسمعه أحد ناولته عدد "ألف باء" وأشرت له بإصبعي إلى العمود المعهود وهمست له همسا: "اقرأ", وجلست أرقب حركاته وأدرس التغيرات الطارئة على معاني وجهه فما انتهى من القراءة حتى رفع عينيه وفيهما من الحيرة أخماس وأسداس، وقال:

- أليست هذه الأبيات أبيات رشيد التي قرأها لي أمس بالتليفون؟.

- بلى, حرفا حرفا!

- عجبا يا ميشا كيف ينتحل رشيد مثل هذه الأبيات وقد نظم في حياته ما هو أجمل بكثير, أو ليس من الممكن أنه قد نظمها في زمان وبعث بها إلى ألف وباء؟

- هذا مستحيل يا جبران, فلا علاقة بين رشيد وألف وباء على الإطلاق, وفوق ذلك فهو يعرف مثلما يعرف كل واحد منا أن ما ينشر في السائح الممتاز يجب أن يكون جديدا وخصيصا بالممتاز, ثم أن رشيدا قال لعبد المسيح ولي أنه نظم هذه الأبيات منذ يومين، وقضى ليلة كاملة في نظمها.

- أنقول إذا أنه توارد خواطر؟ أم نقول أن رشيدا حفظ القصيدة في حداثته ونسي أنه حفظها, وعندما جاء لينظم خطرت له معانيها ومع المعاني أكسيتها اللفظية فكتبها وهو يحسب أنه نظمها, وهكذا انخدع من حيث لا يدري ومن حيث لا يقصد أن يخدع؟

- أنت تستخف بنفسك وبي يا جبران عندما تأتيني بمثل هذه التعاليل.

- ما كنت أحسب رشيدا يرتكب مثل هذه الفظيعة.

- أما وقد ارتكبها فما العمل لتلافيها؟ بماذا نجيب الناس غدا بعد أن يصدر الممتاز ويروا أن أحد عمال الرابطة قد اختلس قصيدة برمتها؟ وهل في العالم من الصابون ما يكفي لغسل هذه اللطخة عن اسم الرابطة؟

- لنقل لعبد المسيح أن يهملها من العدد الممتاز.

- ولكنها قد طبعت يا جبران ولا سبيل إلى إسقاطها إلا بإتلاف الملزمة كلها, ومن ثم فماذا نقول لرشيد إذا صدر الممتاز ولم ير فيه أبياته؟ أنقول له أننا عرفناه سارقا فنبذناه؟

- لا, لا وألف لا, بل نقول له أن عبد المسيح أهمل أبياته من غير قصد, ثم ننشرها في عدد عادي, فقد تعود الناس أن لا يقرءوا في الممتاز إلا مواد جديدة أما الأعداد العادية فليس لها من المكانة والتأثير ما للأعداد الممتازة.

- وهكذا نبقى حيث كنا, وتبقى اللطخة على اسم الرابطة, ويبقى رشيد سارقا.. لا, لا يا جبران, هذا عذر أقبح من ذنب.

- إذن لتصدر القصيدة في الممتاز باسم رشيد, وفي أول عدد من السائح يصدر بعده ليعلن عبد المسيح أنه قد ظهرت خطأ في الممتاز قصيدة تحت اسم رشيد أيوب وهي لابن المعتز.

- وبذلك نكون كمن يحاول أن يغسل لطخة من الحبر على ثوبه فيزيدها تفشيا, أما رشيد الذي هو أخونا ومنا وفينا فنكون كأننا غمسناه في مرجل من الزفت, لا يا جبران, جئني برأي غير هذا الرأي.

هنا أطرق جبران طويلا وقد شعرت بأفكاره كأنها الأسماك في شبكة يتراءى لها منفذ فلا تندفع إليه حتى تجده مسدودا, فتعود تتخبط بعضها فوق بعض, وكان عبد المسيح في أثناء هذا المشهد يدخل علينا بين الفترة والفترة, فيفتح الباب بهدوء كلي, ويغلقه بهدوء كلي, كأنه داخل إلى مجلس يترتب مسير الكون على خلاصة مناقشاته, وكان, إذا ما فاه بكلمة, فليزيد بها في هول المصيبة وحراجة الموقف, وأخيرا نفدت حيل جبران, فالتفت إلى التفاته المستغيث وقال:

- ولكن ما حيلتك يا ميشا؟ إنها لمصيبة عمياء.

- لا حيلة عندي غير الصراحة يا جبران, وكل حيلة سواها ستكون عارا علينا حتى وإن نجحت, فمن رأيي أن تصارح رشيدا بالأمر لأنك عميد الرابطة.

فانتفض كالملسوع وقال:

- أنا؟ لا والله! فإن عرفت أن رشيد أيوب عرف أني عرفت لما استطعت بعد ذلك أن أرفع إليه بصري, بل الأحسن أن تصارحه أنت لأنك مستشار الرابطة

- هذا هو الجبن بعينه يا جبران, وما كنت أعهدك جبانا تهرب من أمر واقع وتتخلص من مسئولية على عاتقك بإلقائها على عاتق غيرك, إن يكن رشيد صديقك فهو صديقي أيضا, وعلاوة على ذلك هو ابن بلدتي.

وكان عبد المسيح قد دخل علينا للمرة الرابعة أو الخامسة فاستنجدته بقولي:

- ما رأيك يا عبد المسيح؟ أليس من واجب العميد أن يفاتح رشيدا بأمر هذه القصيدة قبل أن نقع ونوقع رشيدا والرابطة في ورطة لا يعلم مغبتها إلا الله؟

وبالطبع لم يتردد عبد المسيح لحظة واحدة في تثبيت رأيي, وعندها بعد أن طالت مجادلتنا أكثر من نصف الساعة, وبعد أن انسدت كل المسالك أمام جبران, انتشرت على وجهه سحابة من الحيرة والحزن الأبكم, وبرقت في عينيه دمعتان ومن غير أن يقول كلمة, نهض عن كرسيه, وفتح الباب, وخرج إلى الغرفة التي كان فيها رشيد أيوب ونفر من عمال الرابطة ومن يلوذ بهم, وارتدى معطفه وأخذ عصاه وقبعته وهم بالانصراف دون أن يودع أحدا. فلم يتمالك رشيد نفسه عندئذ من الضحك, ومعه ضحك رجل لم يكن يعرفه, فشزره كأنه يريد أن يمزقه بعينيه لأنه غريب عن الرابطة وتجاسر أن يضحك في مثل تلك المأساة, وعلى الأثر خرجت وعلى وجهي ابتسامة وخرج عبد المسيح وهو يقهقه, فوقف جبران لمحة كالمشدود أو كمن خولط في عقله, ثم ألقى نظرة على الجمهور كله فأدرك أن المأساة لم تكن إلا ممازحة, فبسم بسمة صفراوية وضرب الأرض بعصاه وقال:

- يا مناحيس, لقد أنقصتم من عمري عشر سنين, من هو صاحب هذا الدبك الذي هو طرفه من طرف الفن؟ أنا حتى الآن لا أفهم منه شيئا, أين عدد ألف وباء؟ أم أنا أعمى؟ أم أنا بليد؟ هاتوا فسروا لي كيف وصلت أبيات رشيد إلى دمشق منذ أربعين يوما ولم ينظمها إلا منذ يومين؟ ومن هو ابن المعتز ومن أين نبشتموه؟ لله دركم.. لله دركم!!.

السيدة الملتحية

ما برح الإنسان يتكلم عن الحياة منذ تعلم النطق, ويكتب عنها منذ تعلم الكتابة, ويصورها بالأنغام والألوان والحجر منذ تعلم الغناء والتصوير والنحت في الحجر, والحياة لا تزال بلا شواطئ, لا تستوعبها كلمة, ولا يسبرها لحن, ولا تنتقصها صورة, ولا يمثلها تمثال, لكن الذين أدركوا بلاغة الصمت وهيبة السكون في حضرة ما لا يحد لم يولدوا بعد, وأما عرفت هذه الأرض أمثالهم فالبشرية لم تعرفهم لأنهم كانوا صامتين ساكنين.

لعل أقصى درجات المعرفة هي المعرفة بأن سر الحياة يدرك بالروح ولا يذاع باليد واللسان, وأسمى مراتب البلاغة هو الصمت المبطن بتلك المعرفة, وقد يكون أن ذلك الصمت هو المحجة التي نسير إليها عن غير علم منا, فلو كان لواحد من الناس أن يجمع كل ما قاله في حياته لدهش للسانه كيف أنه لم يبر من ترديد بعض الكلمات والعبارات ملايين المرات من غير ما جدوى, ولنفسه كيف لم يرهقها بالثرثرة دون أن يدنيها قيد شعرة من المعرفة التي هي معرفة, ولفكرة كيف لم يرزح تحت جبال من المقاطع والمفردات التي لو غربلها كلها لما بقي منها في غربالة كلمة واحدة يمكنه أن يقول: "هي ذي خلاصتي".

لكن بعض الناس مهنتهم الكلام, ومنهم الكتاب, فواحدهم لا يكاد ينتهي من فصل أو كتاب حتى يفكر بآخر, وعذره في أن عنده أفكارا وآراء جديدة يعرضها على الناس, والناس يحملونه على ذلك إذا هو لم يحمل نفسه عليه, فهم يتوقعون منه أن يكون شجرة فاكهة على الطريق وأن يكون عليها ثمر جديد كلما مرورا بها, وكما أن الشجرة المثمرة لا تعرف في أي فصل من الفصول, وفي أية سنة من السنين تأتي بثمرة تكون أجمل وأشهى كل أثمارها, هكذا الكاتب المثمر قد يأتيك اليوم بكتاب

يبلغ فيه أقصى مداه فلا ينفك يكتب جاهلا أنه لن يقول غير ما قال ولا أجمل مما قال..

كتب جبران "النبي", وهو يشعر أنه قد أفرغ فيه كل قلبه وكل فكره وكل فنه, لكنه ما درج الكتاب في سبيله حتى راح يفكر بسواه, فكأنه من بعد أن ظن أنه قد لفظ "الكلمة" التي كانت في فمه عاد فوجد أنه لم يلفظ منها سوى مقطع واحد, فعاد يفكر بما بقي من مقاطعها وهو لا يشك في أن بإمكانه أن يلفظها كلها, وما كان يدري أنه يحاول المستحيل ولا كان يدري أن العمر ينقضي, والبشرية تنقرض وتبقى الحياة كلمة يفهما الوجدان ويعجز عن النطق بها اللسان, لذلك قال لي بعد صدور "رمل وزبد":

هذا لسد الفراغ في حياتي الكتابية ما بين "النبي" والكتاب الذي سيتلوه, فقد مرت بي ثلاث سنوات لم يصدر لي فيها كتاب, أما "النبي" فكتاب غريب يا ميشا, وما أكثر الذين يغبطونني عليه, لكنه مقدمة لا غير, فأنا فيه أتحدث عن علاقة الإنسان بالإنسان, وبفكري اليوم كتاب آخر أتحدث فيه عن علاقة الإنسان بالطبيعة, وسأدعوه "حديقة النبي", وكتاب ثالث أبين فيه علاقة الإنسان بالله, وسأدعوه "موت النبي", وهكذا تتكون من هذه الكتب الثلاثة حلقة كاملة فما رأيك.

لكنه ما عتم أن فاجأني بخير جديد, فقد جئته يوما أسأله أين أصبح من "حديقة النبي" فإذا به يجيبني:

الحديقة ما برحت في خاطري, ومثلها موت النبي, ولكن ما قولك في كتاب عن يسوع؟ يسوع يساور أفكاري من زمان, وقد سئمت الذين يؤمنون به يا ميشا يتحدثون فيه ويكتبون عنه ويصورونه كما لو كان سيدة بلحية, فهو جميل لكنه مسكين وضعيف وفقير ووديع ومتواضع وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذا وساحرا, وسئمت "العلماء" يأتونك بالأبحاث الطويلة والبراهين العميقة ليثبتوا أو ليدحضوا وجوده, وهو أكبر حقيقة في حياة البشرية, وسئمت اللاهوتيين

يحيكون له من مماحكاتهم السخيفة أكفانا تحجبه عن الفكر والقلب فلا هو بشر مثلك فتقتدي به, ولا هو إله فتعبده, ويسوعي بش مثلي ومثلك, وقد بلغت قحة أحد الكويتيين الأمريكان أن صور يسوع تاجرا محنكا يرمي بكل تعاليمه إلى غاية مادية بحتة, فتأمل!..

وعندي أنه كان رجل العزم مثلما كان رجل الرأفة, وأنه قط لم يكن مسكينا أو متمسكنا وأنا أكره المسكنة وأرى التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف؛ فقلت من غير أن أجادله في رأيه:

- يسوع موضوع لا ينضب مهما تناولته الألسن والأقلام, ومهما كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد, ولكن كيف تنوي أن تكتب عنه يا جبران؟

- لقد اهتديت إلى قالب يعجبك يا ميشا, وبعد أن اهتديت إلى القالب أصبح الكتاب في فكري كأنه قد كتب, فسأجعل معاصري يسوع يتحدثون عنه، كل حسب منازعه ومداركه, ومن أحاديثهم تتكون صورة يسوع كما أراه أنا, وهو قالب يناسب أسلوبي كل المناسبة.

وراح جبران أن يستنطق الأموات عن يسوع, وهو في الواقع لا يستنطق إلا قلبه ولا يحكم إلا فكره, فقد كان يجهد ذاك وهذا في الليل والنهار, وكم ليلة سهرها حتى الفجر متغلغلا في روح يهوذا الإسخربوطي, أو قيافا أو بيلاطس النبطي أو مريم المجدلية, أو مريم أم يسوع, أو من كل الرسل وسواهم وهو لا يأتي على شهادة واحد منهم إلا بعد أن يتقمص فيه وينتقل بالفكر إلى عصره, فكان وهو في صومعته في نيويورك, أو عند أخته في بوسطن, يرود جبال الجليل, وبطاح اليهودية وغور الأردن, وشواطئ بحيرة طبية متتبعا خطوات يسوعية ومصغيا إلى كرازته في الجماهير وفي الهياكل وفي التلاميذ على انفراد, ومحاولا أن يأتي بخلاصة تلك الكرازة والقوة التي جعلتها أحرفا من نار على جباه عشرين من القرون.

كل ذلك والداء يمكن قبضته من قلبه يوما بعد يوم, وهو لا يعي أو يبالي, بل كأنه كان والداء في سباق, وكان يخشى أن يسبقه الداء قبل أن ينتهي من كتابه الجديد, لكن الأقدار كانت لا تزال بجانبه, فقد مكنته من السبق, فانتهى من كتابه في صيف سنة ١٩٢٨ وسلمه للنشر, فصدر في خريف تلك السنة وجبران في بوسطن, وقد كتب إليّ في أول أكتوبر يقول:

كتاب يسوع تناول صفتيه مريضا وصحيحا, ولا أكتمك أن قلبي ما برح فيه رغم أنه قد صدر "وطار من هذا القفص" على أثر صدور "يسوع ابن الإنسان" كتبت فيه كلمة بعنوان "يسوع جبران" لست أرى بأسا من إثباتها هنا لأن رأيي اليوم في الكتاب لا يزال كما كان منذ عدة سنوات وجه جميل ونبيل, يعلوه غشاء من الشحوب التام عن شفقة ممسكة بالقلب, لا عن أسى رابض في النفس.

في فمه الحساس صلابة تفهم اللين فلا تجرح, ورفعة تعرف ذاتها فلا تتضع وفي أنفه رقة الشعر, ودقة الفن, واتساق الهندسة. أما عيناه فتنظران إلى أبعد مما تبصران, فيهما رهبة الوحي دون طمأنينته, واليقين بالنصر دون النصر, ووحدة لا تلطفها المحبة, وعزلة لا يؤنسها نورها. في حاجبيه تقطب خفي, كأنه يجهد فكرة للوصول إلى سر عميق, وكأنه بلغ عتبة ذاك السر, أما بابه فلا يزال موصدا في وجهه. في جبينه الواسع العالي إباء وعظمة, وفي شعره الناعم المرتد عن جبينه وصدغيه, والمسترسل فوق كتفيه، طهارة لا تعرف الدنس, هو وجه معانيه كثيرة, وأظهرها إرادة تحاول أن تتغلب على ذاتها أو أن تستر ضعفها ريثما يتم لها النصر.

هذا هو يسوع بريشة جبران وهو أول ما يقع بصرك عليه, في كتابه الجديد "يسوع ابن الإنسان" ذاك ما رأيته فيه, ولعلك ترى غير ما رأيت أو عكس ما رأيت.

أما يسوع من قلم جبران فلن تحظى به في صفحة أو صفحتين, بل تتناول صفاته الحسية والروحية من سبعة وسبعين فما (وفم جبران أحدها) بينها فم التلميذ وفم الجار وفم الصديق وفم العدو، وفم العالق بالأرض, وفم الطامح إلى السماء,

فجبران يحدثك عن يسوعه بألسنة معاصريه, بعضهم مذكور في الإنجيل وبعضهم اختلقته مخيلة المؤلف. وعندما تشبع نفسك, وتشنف أذنك بأقوال هؤلاء كلهم – وأقوالهم منسقة بقلم جبران فهي قصائد منثورة – قابل بين يسوع الذي انطبع في خيالك من مطالعة سطور الإنجيل القليلة ويسوع الذي علق بذهنك من ألسنة معاصريه كما أنطقها جبران, ترى أن بين الاثنين فرقا ليس طفيفا.

يسوع الإنجيل ولد في بيت لحم من عذراء, أما يسوع جبران فولد في الناصرة من رجل وامرأة.. يسوع الإنجيل يبكي ويتألم, أما يسوع جبران فيضحك وهو فوق الألم.. يسوع الإنجيل يطوّب المساكين بالروح والفقراء, أما يسوع جبران فلا يعرف مسكنة ولا يرى غبطة في الفقر.. يسوع الإنجيل أدرك منتهى الرفعة الروحية, لذلك كان "وديعا ومتواضع القلب", أما يسوع جبران فلا دعة فيه ولا تواضع.. يسوع الإنجيل لا يخجل من أن يهتف على الصليب: "إلهي إلهي.. لماذا تركتني؟" لأنه لم يكن قد تغلب بعد على كل ضعف في بشريته, أما يسوع جبران فلا ضعف فيه, أو أنه يخجل من إظهار ضعفه فيهتف: "لماذا تركتنا؟".

ولعلك تذهل, مثلما ذهلت أنا, عندما تتمادى في قراءة الكتاب فترى أن المؤلف, رغبة في إظهار شخصية يسوع كما يراها بعين روحه, يجيئك بإنجيل يكاد يكون جديدا لولا أنه يتقيد ببعض حوادث الإنجيل وأشخاصه وهيكل أقواله, فهو يأتيك بموعظة على الجبل من فم متى منسوجة على نسق الموعظة الإنجيلية الشهيرة لكنها تغايرها مبنى وروحا, ويسرد بعضا من عجائب يسوع وحوادث حياته وأقواله فيسقط منها أو يضيف إليها طبقا لما يتصور أنه كان من واجب الإنجيليين أن يسقطوه, أو يضيفوه.

لعل لجبران عذرا في ذلك, فهو لا يكتب كمؤرخ, لأنه لم يكن مؤرخا ولن يكون, بل هو الشاعر والفنان أولا وآخرا لقد تلجم قلم المؤرخ أما خيال الشاعر

وريشة الفنان فكيف وبماذا تلجمهما؟ ومن ثم فجبران يكتب عن يسوعه بقلب طافح بالإعجاب والمحبة والعبادة, فهو في نظره مثل البشرية الأعلى وأقصى محجاتها.

مع ذلك أقول أن جبران كان في غنى عن التصدي لما جاء في الإنجيل أو التصرف به, فقد ورد في آخر إنجيل يوحنا أن هناك "أشياء أخي كثيرة صنعها يسوع لو أنها كتبت واحدة فواحدة لما ظننت أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة", أليس أن في هذه الأشياء لم تدون مجالا واسعا لخيال كخيال جبران؟ فليختلق من الحوادث ما أراد, ولينظم من المواعظ ما شاء وشاء رب إلهامه.

أما ما دون في الإنجيل فلسبب قد دون بتلك الألفاظ لا بغيرها, ولسبب قد احتفظت به البشرية بأحرفه تسعة عشر قرنا, من ليس يفهمه أو يقبله كما هو فليقل في نفسه أنه لم يعط فهمه بالتمام, ومن ليس يفهمه إلا إذا حرفه وتصرف به فهو في الواقع غير فاهم له, لنا أن نفسر الإنجيل, ولكل أن يصور لنفسه يسوعه, مثلما يصور لنفسه ربه, لكن ليس لنا أن نأخذ يسوعنا من الإنجيل ومن ثم أن نحرف الإنجيل لينطبق على يسوعنا.

والآن فلنعد إلى جبران الشاعر المأخوذ بمجالي الروح في الكون, لاسيما بأسمى مجاليها في البشرية، يسوع ابن الإنسان، فما أجمل ما يقوله بلسان ملاخي الفلكي البابلي: "في يسوع اجتمعت كل عناصر أجسادنا وأحلامنا طبقا للناموس, وكل ما كان من قلبه سابقا لأوانه وجد فيه أوانه"

ثم اسمع تعليله الجميل لبعض عجائب الناصري:

"يقولون أنه كان يعطي العميان بصرا, والمقعدين مقدرة على المشي, وأنه كان يخرج الشياطين من المجانين"

"قد لا يكون العمى إلا فكرة مظلمة يمكن التغلب عليها بفكرة ملتهبة, وقد لا يكون العضو المشلول إلا سكونا يمكن تنبيهه بالقوة المحركة, وقد يكون أن

الشياطين – تلك العناصر القلقة في حياتنا – تخرجهم منا ملائكة السلامة والطمأنينة"

وهاك ما يقوله بلسان إندراوس في قضية الزانية التي طلقها يسوع قائلا – وأنا لا أدينك – :

"عجبت آنذاك مما إذا كان يسوع قال ذاك للزانية لأنه هو كذلك لم يكن بغير خطيئة, أما الآن فاعرف أن نقي القلب فقط يغفر العطش الذي يقود صاحبه إلى مياه آسنة".

إن جبران في كتابه الجديد, شأنه في كل كتبه, ينشر بسخاء جواهر من التشابيه المبتكرة, وينقش رسوما من الفن تقف عندها جذلا مهللا, ولا بد لي من نقل بعضها:

"الريب ألم أنسته ووحشيته أنه والإيمان توأمان"

"وعند الفجر بقيت واقفة بيننا (الكلام عن أم يسوع) كأنها علم يخفق في قفز لا جحافل فيه"

"ستبقى المرأة أبدا رحما ومهدا وقط لن تكون رمسا"

"لا تمشي النساء إلا مقودات بأبنائهن"

"غسل بيلاطس يديه ولا يزال يغسلهما, وحتى اليوم تحمل أورشليم الطست وورومة الإبريق"

وإليك بعضا من التقاريع الجبرانية, وجبران إذا ما قرع وأنت متبرم أتاك بأقصى مقدرته البيانية, وكأنه في الكلام الآتي لا يدفع تهمة عن يسوع فحسب, بل عن نفسه كذلك, فقد قال البعض في يسوع أنه لم يكن عالما في نفسه, ولذاك كان مشوش الفكر:

"كم بومة لا تعرف من الأغاني غير ما شابه نعيبها, أنا وأنت نعرف مشعوذي الكلام الذين لا يحترمون إلا من كان أكبر شعوذة منهم, هؤلاء هم الذين يحملون رؤوسهم في سلال إلى السوق ويبيعونها بأول ثمن يعرض عليهم, نحن نعرف الأقزام المتحاملين على من تلمس رؤوسهم السماء, ونعرف ما يقول العوسج عن السنديانة والأرزة".

خذ كذلك هذه الفقرة من كلام يسوع ليهوذا الإسخربوطي:

"مملكتي ليست من هذه الأرض, وعرشي ليس قائما على جماجم أسلافكم, إذا كنتم تطلبون غير مملكة الروح فخير لكم الأمس المتوجه تعقد مجالسها في قبورها, ولعلها حتى اليوم تجود بالألقاب والمكارم على عظام أجدادكم"

كذلك تهكمه على الأغنياء بلسان واحد منهم, وعلى أولياء الأمور والمحافظين على كل سلطة وتقليد بلسان قيافا, فهو يسود وجوههم بما يضعه من الكلام في أفواههم.

ومن الغريب أن جبران يتناول بتهكمه حتى الرسول بولس, فهو لا يعترف له بفضل, بل يعتقد أنه أفسد تعاليم الناصري بما أدخله عليها من تعاليمه, وفي اعتقادي أنها تهمة ظالمة.

ليس ما ينقشه جبران بريشته أقل فعلا في النفس مما يسطره بقلمه, وهو كعادته في كتبه السابقة قد زين كتابه الجديد بطائفة من الرسوم تقف أمامها مستجليا رموزها, مأخوذا بتناسق خطوطها, منها وجه يسوع وقد ذكرته, ووجه مريم المجدلية الذي تكاد تقرأ فيه ما قاله يسوع (حسب رواية جبران) "أما أنا فإني أرى فيك جمالا لن يذوي, وعندما تدركين خريف أيامك لن يخشى ذلك الجمال من أن ينظر ذاته في المرآة, ولن يهان"

هناك وجه لبطرس وآخر ليوحنا الحبيب, ورسوم أخرى رمزية أذكر منها اثنين ملونين، أحدهما يمثل إنسانا راكعا على سحابة وقد أحاطت به سلسلة حلقاتها أجسام

بشرية, والآخر يمثل "شجرة الحياة" جذورها بشرية وساقها بشري, وأغصانها مجنحة, وأثمارها دانية, إن في هذين الرسمين ألوانا موسيقية, بل ألحانا ملونة, بل شعرا فياضا

لقد قيل في نبي الجليل منذ بدا حتى اليوم ما ليس يحصى, فأنكر البعض وجوده, والذين سلموا بوجوده رماه بعضهم بالشعوذة, وبعضهم قال أنه كان مخدوعا, وجعله البعض إلها, والآخر إنسانا, والبعض إلها وإنسانا معا, ولعمري أن في ذلك دليلا بينا على أن هذا الرجل كان مظهرا رائعا من مظاهر الكونية الشاملة, فهو أكبر من أن ينحصر بين دفتي كتاب, وليس يدخل "ملكوته" من فهم أقواله فحسب, بل من عمل مشيئة "أبيه" الذي في السموات, على أننا وإن قصرنا عن العمل بمشيئة "الأب" نكفر بعض التكفير عن تقصيرنا بكشف ما في وجداننا من الشوق والتعطش إلى مجاراة "ابنه", وكتاب جبران الجديد هو المحرقة التي يقدمها قلبه لأخيه الأكبر "يسوع ابن الإنسان".

مريم المجدلية بريشة جبران نقلا عن (يسوع ابن الانسان)

الصلح

قال بعضهم في الدنيا أنها إن أقبلت بلت وإن أدبرت بدت, فهي مقبلة حين تراها مدبرة, ومدبرة حين تحسبها مقبلة, وجبران من بعد "النبي" و"يسوع ابن الإنسان", أدبرت دنياه وهو يظنها مقبلة بجحافلها وبيارقها وطبلها وزمرها, فقد أخذ عدد المعجبين به يزداد من يوم إلى يوم, وأكثرهم من النساء, واتسعت موارد رزقه حتى أن صديقا له من أصحاب المصارف اسمه إدجار يباير أخذ يهتم "بتوظيف" أمواله, وأقبل البعض على ترجمة كتابه "النبي" إلى لغات أجنبية, وعرضت عليه شركة أن يتجول في البلاد ويقرأ من كتاباته في مختلف الأندية, ونقل أخته من بيت قديم في حي الصينيين في بوسطن إلى بيت جديد ابتاعه في ضاحية جميلة من ضواحي المدينة, وأقام له إخوانه في نيويورك مأدبة تكريمية احتفلوا فيها بيوبيله الفضي, وأصبح لا يكاد يمر به يوم إلا جاءه البريد أو التليفون بشهادة إعجاب أو تقدير من أناس يعرفهم وأناس يجهلهم ما بين أعراب وأعجام, فقد قال لي مرة بفخر كلي, متظاهرا بعدم الاكتراث الكلي أن ملكة رومانيا السابقة – ماري – كتبت إلى إحدى صديقاتها في نيويورك التي كانت قد أهدت إليها نسخة من "النبي" تقول أنها طالعت الكتاب بلذة فائقة, وتكلف صديقتها إهداء سلامها إلى المؤلف, وأطلعني مرة على رسالة من رئيس كلية في ولاية كولورادو يستأذنه فيها بحفر آية صغيرة من آيات "النبي" على الجرس الكبير من سلسلة أجراس صداحة (chimes) في قبة كابيلا المدرسة, أما الآية فهذه: "ما اليوم إلا ذكرى الأمس, ولا الغد إلا حلم اليوم"، لكن للدنيا شؤونا مع الذين يركنون إليها أشبه بشؤون الهر مع فأرة يلاعبها, فهي أقرب ما تكون من الهلاك عندما يطلق الهر سبيلا فتحسب أنها نجت, ثم لا تلبث أن تجد ذاتها بين شدقي الهر.

لعل أفظع الفقر فقر يعضك بأنياب من ماس في لثة من ذهب, وأشد الضنك ضنك يرفل بالخز والبرفير, وأقسى الوحدة وحدة تخاطبك بألسنة المعجبين والمكرمين, وجبران من بعد أن تفتقت الأيام عن الكثير من أحلام صباه وشبابه, فتغلب على الفاقة, واتسعت دنياه, وكثر مكرموه والمعجبون به, أحس بفقر أحد نابا من الفقر الذي عرفه من قبل, وبضيق أشد وطأة من الضيق الذي كان فيه, وبوحدة أقسى ملامسة من تلك التي كانت تساور أيامه ولياليه, فقد أقفر قلبه من الحب في حين أن النساء كن يحمن حوله حوم الفراش حول السراج, والشهرة وما فيها من بخور الإعجاب والتكريم قد تخدر القلب يوما – قد تخدره شهرا – لكنها لا تطفئ عطشه, ولا تسكن جوعه, ولا تؤنس وحشته إذا ما أفاق من تخدره في سكينة الليل, وضوضاء النهار, فكيف به إذا كان قلب شاعر وقلب فنان, وكان علاوة على ذلك قلبا عليلا في صدر عليل؟.

لقد ظل جبران أعواما يماطل الداء، والداء يماطله, وهو يحسبه رجفة في القلب تزول بالحماية والوقاية, لكنها ما كانت لتزول, بل كانت كلما تقادم بها العهد تكاثرت نوباتها, وتنوعت أشكالها, وتصلبت أوجاعها, فكانت تارة تفتك في مفاصله فيظنها النقرس, وأخرى في أجهزة التنفس فيخالها نزلة قوية, وطورا تشد على قلبه بأصابع من حديد فيحسبها علة في القلب, والأطباء كانوا يصفون له المداواة حينا بالحماية والراحة وآخر بالكهرباء وحينا بالراديوم وأحيانا بالعقاقير؛ فكان يتداوى بكل ذلك, وكان المرض يهادنه بين النوبة والنوبة هدنا متفاوتة المدى, فتنتعش قواه وتتجدد آماله, وتبرأ همته من فتورها, فيعود في الحال إلى قلمه وريشته ليقتنص الخيالات والأفكار التي تحاصره في سريره, وتجالسه وتماشيه في مجالس الناس ومعابرهم.

وأخيرا كشفت "الأشعة" لجبران مكمن الداء في أحشائه, فكتمته عني وعن كل أصحابه, ولو كان بإمكانه لكتمته حتى عن نفسه, وأشار عليه طبيب في بوسطن بإجراء عملية جراحية, فامتثل لإشارته, واستعد لاستقبال القدر المحتوم في الميعاد

الذي ضربه له الطبيب, وارتدى ثيابه وخرج من بيت أخته قاصدا المستشفى, لكنه ما بلغ أسفل الدرج حتى عاد وقال أنه قد عدل عن عزمه فلتفعل الأقدار ما تشاء, وكأن في عدوله صلابة, وفي استسلامه عتو, فهو لم يتذمر قط من مرضه, ولم يشك دهره, ولم يقنط من حياته, ولم يشل الوجع يده, ولا كبل خوف الموت خياله.

إلا أنه عندما عاد إلى "حديقة النبي" ليخبر عما فيها وجدها غير ما كان قد تخيلها, فقد رآها من قبل بعين خياله حديقة تآخت فيها النبتة والحشرة, واندغم النور بالظلمة, واستوى الإنسان والحيوان في ميزان الوحدانية الصمدانية, فكانت كلها جمالا وسلاما ومحبة, ذلك في الفترات التي كان فيها صافي الذهن, قرير الفكر, وفي هدنة مع الألم, وقد صور بعض ما رآه منها في بضع صفحات لم تنشر بعد.. أما الآن وقد توالت عليه غارات الوجع, فأصبح كيفما تفقد تلك الحديقة رأى الألم يعبث في غرسها, ويعكر صفاء جوها, ويفسد سلامها, فمال عنها وهو يمني نفسه بالعودة إليها حالما تعود إليه نشوته الروحية التي عرفها في النبي, لكن تلك النشوة لم تعد, وهو مع ذلك لا ينفك يكتب ويصور.

كم من مرة في تلك الأثناء لاذ جبران بقلمه من الألم, فسمع قلمه يهتف إليه: دعني وشأني وعُد إلى قلبك, ففيه وحدة نور الهداية والخلاص: "طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله!".

وكم مرة عاد قلبه فهتف إليه: "ألا رحمة يا جبران, كم شكوت إليك الجوع فأطعمتني ما ليس يشبع, والعطش فسقيتني ما ليس يروي, وها أنا ما أزال جائعا إلى طعام لا يبلى, وعطشا إلى شراب لا ينفد, وها أنا في خلوة هذه الصومعة أتكوى بالأوجاع ولا قلب يخفف أوجاعي, ولا عين تسهر فوقي, ولا يد تجس نبضاتي".

ذات يوم تسلم جبران رسالة إعجاب وتقدير من فتاة ما كان يعرف عنها شيئا, لكنه آنس في رسالتها روحا تفوق بإخلاصها, وجمالها, وشدة شغفها بما هو خلف المحسوسات كل ما جاءه من رسائل الإعجاب والتقدير, وكان في الرسالة عنوان

الفتاة ورقم تليفونها, فأخذ في الحال التليفون وخاطبها وشكر لها جميل رسالتها, وعندما أبدت رغبة في زيارته رحب بها كل الترحيب, فزارته, وكانت لم تقرأ من كتبه إلا "النبي", وبلسان يتعثر بشتى الانفعالات, ولكن بروح تفيض حماسة وطهارة, راحت تصف له تأثير الكتاب في نفسها وكيف أنها لاقت فيه أقوى نصير لأفكارها وأوفى صديق لأشواقها ومعتقداتها, وانصرفت من عنده ثملة بخمر حديثة, وكأنها وجدت فيه الكمال الروحي في جسد بشري.

وتلت تلك الزيارة زيارات, وكان جبران قد أجدب قلبه من الحب وأخذ يشعر بحاجته إلى امرأة تقاسمه حلو الحياة ومرها, فقد كان قبل أن يشتد المرض يخشى على عزلته من أن تعبث بها امرأة أو رجل, وعزلته كانت مبعث إلهامه ومهد مواليد فكره وخياله, أما بعد أن ثقلت عليه وطأة الداء أصبح يخشى العزلة في المرض والمرض في العزلة, وكان إذا ما عرض أمام نفسه كل النساء المقربات منه لا يجد بينهن واحدة تطمئن إليها روحه إلا ماري هاسكل, ومارى فاتحها مرة بأمر الزواج فكان بينهما ما كان, وهي لا تزال كوكبا نيرا في سماء حياته الروحية, وماري قد تزوجت منذ سنوات من نسيب لها غني, لكنه مسن في مدينة سافانا من ولاية جورجيا, وقد استشارته في زواجها فأشار عليها بالزواج وبارك ما فعلت.

والآن جاءت هذه الفتاة الغريبة, أيكون أن الحياة قد بعثت بها إليه لتؤنس وحشته, وتخفف من أوجاعه, وترافق أشواقه وآلامه؟ أيكون أنها المرأة "المكتوبة" له في سجلات الأرض الغامضة؟ كيفما كان الأمر, ها هي ذي – شعاع دافئ ومؤنس, وهي صحيحة الجسم, نشيطته, وفي قلبها من الإخلاص له والتفاني في سبيله ما يقارب العبادة. ولكن هي البشرية – وما أضعفها! ولكن هي الشهوة – وما أقواها! فقد نسي جبران هذه المرة كذلك بيته الجميل في "المواكب":

والحب إن قادت الأجسام موكبه إلى فراش من الأغراض ينتحر

وكان عذره في ذلك لنفسه وللفتاة: "تلك هي حياتي" لكنه عذر, إن كان مقبولا عند جبران, لم يكن مقبولا عند الفتاة التي كانت روحها مشبعة بروح النبي والتي أخذت الندامة تنهش قلبها وتعصر فكرها, فأحست كأن جوهرة ثمينة كانت في يدها وتحولت إلى تراب, أو كأن الأرض قد خسفت بها, فكتبت بعد ذلك إلى جبران تبكته وتبكت نفسها وتندب إيمانا جميلا طار من قلبها, فقد ظنت عندما اهتدت إلى صاحب "النبي" أنها قد اهتدت إلى مثل الرجل الأعلى, إلى الرجل الذي يكفر بجمال روحه وجمال حياته هن كل ما في أرواح الرجال وحياتهم من شناعة, إلا أنها وجدته كسائر الرجال, ووجدته يفعل غير ما يقول, ويقول غير ما يفعل..

أفي الحياة بعد ذلك ما يستحق الاعتبار؟ أليس الإيمان بالكمال وهما والمحافظة على الطهارة ضربا من البلادة؟

لقد كان من تلك الرسالة أنها دفعت جبران الدفعة القاضية على محاسبة نفسه المحاسبة الأخيرة وتعريتها من كل أكسية الغش التي تحوكها الرغائب والمنى الأرضية, وإذا مثلت لجية نفسه عريانة أقبل عليها يغسلها بكل ما في وجدانه من ماء الحق, ويضمخها بكل ما في روحه من عطر الجمال, ويدفن عند قدميها أوزار حياته وزرا وزرا, فأحس بأنها كانت قصية عنه فدنت منه, وكأنها كانت غريبة فأصبحت قريبة, وكأنها كانت له خصما فانقلبت صديقا, فعانقها وعانقته وعقد معها الصلح الذي كان ينشده كل حياته, وعندها استدعى إليه الفتاة واستغفرها وتوسل إليها أن تستعيد إيمانها بالحياة وجمالها, وألا تدين الله بهفوة إنسان, وإن يكن ذلك الإنسان جبران خليل جبران, وقال لها نظير ما قاله مرة لماري هاسكل: "تعالي نقطع الطريق سوية". وما كان يدري, ولم يكن قد بقي من عمره إلا بضعة شهور, أن طريقه أوشكت أن تنتهي وأنه سيقطعها وحيدا حتى آخر خطوة.

أشعة في الغمام

استسلم جبران لمشيئة الحياة, ولكنه ما كان يحسبه مستسلما للموت, فقد ظل يحاربه حتى آخر نحب من أنحابه, وكأني به كان يعتقد من كل قلبه ما قاله لي في إحدى رسائله الأخيرة:

"أما العلة فهي في مكان أعمق من الأعصاب والعظام, ولقد فكرت مرات فيما إذا كانت علة أو صحة, هي حالة يا ميشا, صحة كانت أم علة.. هو فصل من فصول حياتي, وفي حياتك وحياتي شتاء وربيع, وأنت وأنا بالحقيقة لا ندري أيهما أفضل"

لذلك, ولأنه كان يكره كل مظاهر الضعف, ما سمعته يوما يقول "آخ" أو "أواه", فقد كان يقضي الليل بعد الليل, والنهار تلو النهار يحارب وحده الوجع, فيندر أن يستدعي إليه صديقا إلا إذا اشتد عليه الألم أو عضت الوحدة قلبه إلى حد لا يطاق, ومما لا ريب فيه أيضا أن اعتقاده بقوة الألم المطهرة كان يدعم جميل صبره عليه.

مرة – في أوائل سنة ١٩٣١ – خاطبته بالتليفون أسأله عن صحته, فأجابني: "تعال وانظر"، وعندما دخلت عليه وجدته في فراشه, وعلى وجهه وفي حركاته علامات ضعف ما رأيتها فيه من قبل, إلا أنه طمأن بالي وأكد لي أن ما ألم به لم يكن إلا وافدة قوية وأنه قد تعافى منها أو كاد, فلمته أشد اللوم لإهماله في أمر صحته, وقلت له أن بقاءه وحده في صومعته أصبح ضربا من المجازفة القريبة من الحماقة, فإما أن يرضى بي أو بسواي من أصحابه ينام عنده ويخدمه عند الحاجة, وإما أن يأتي بأخته من بوسطن لتسكن معه, فأقنعني أن لا ضرورة لشيء من ذلك فزوجة حارس البناية تخدمه بكل أمانة, أما أخته فالأفضل أن تبقى في بوسطن فلا تحمل من همه أكثر مما تحمل حيث هي, ومن ثم فلو جاء بها إلى نيويورك لاضطر أن يفتح بيتا آخر

مع الاحتفاظ بالصومعة, وبالتالي فهو لا يرضى عن الصومعة بديلا, ولا يفضل على تشويشها بيتا مهما توافرت فيه معدات الراحة والرفاهية واكتمل إتقانه وترتيبه.

- ومارسركيس يا جبران.. أما آن أن تفي بنذرك؟.. صدق أنه لو كان بإمكاني لكبلتك الآن وشحنتك إلى لبنان حتى في هذا النهار, إن بقاءك في هذه البلاد وانكبابك على الكتابة والتصوير في حالتك هذه هما الانتحار بعينه.

- مارسركيس لا بد منه, وقريبا إن شاء الله, أما الكتابة والتصوير فلا معنى لحياتي بدونهما, وهما تعزيتي الوحيدة, وإني لأعجب لك من بين كل الناس, تنهاني عنهما, أأنت تنهاني عن الكتابة والتصوير يا ميشا؟ أأنت تقول مثل هذا القول؟ لا أكاد أصدق أذني, أنقضي أذن على الفن – أنقضي على الشعر؟.

- ليس الفن ما نصوره, ولا الشعر ما ننظمه يا جبران, بل الفن أن ندرك بأرواحنا ألفة الحياة فنؤلف ما بين أفكارنا ومنازعنا وأقوالنا وأعمالنا حتى لا يبقى فينا من نقيض يناهض نقيضنا, والشعر أن نجد لأيامنا وزنا ولياليا قافية, وما دمنا تمر بنا حالات تعتصر لها قلوبنا, وتعتم أبصارنا, ويتحول الشهد في أفواهنا علقما, والشدة في مفاصلنا رخاوة, فما نفعنا من صورة جميلة نرسمها أو من قصيدة "عصماء" ننظمها؛ أنصور الجمال قبل أن يصورنا الجمال؟ أنلفظ الحق قبل أن يلفظنا الحق؟ ونحن لو حيينا حياة جميلة لما استطعنا أن نصور غير الجمال, وإذ ذاك كنا في غنى عن التصوير, ونحن لو كان الحق سلطان أفكارنا لما استطعنا أن نفوه بغير الحق, وعندئذ كنا في غنى عن الكرازة بالحق.

- أليس يا ميشا أننا كلما صورنا الجمال اقتربنا من الجمال, وكلما نظمنا الحق اتحدنا مع الحق؟.. أم أنت تشاء أن تحتم الصمت على الفنانين والأدباء؟ والإفصاح عن مكنونات النفس حاجة من حاجات النفس.

- لا بد للنفس من أن تشبع بمكنوناتها, ومن تلقاء ذاتها, لكننا حالما نحاول تصوير تلك المكنونات للناس نشوهها وننقلها إلى غير حالها, فإما نزيد فيها أو ننقص

منها, وكثيرا ما نستر الذي نحسبه شنيعا فيها ونبرز الذي نعده جميلا. والجمال الذي يحتاج إلى يد تخرجه من بيت الشناعة ليس جميلا, والشناعة التي تسكن والجمال في بيت واحد ليست شنيعة, والإنسان الذي لا ينفك يغربل الكون ليفرز جميله عن شنيعه أحرى به أن يقول لرب الكون: "لقد أسأت سياسة خلقك, وقد اختلط عليك حقه وباطله, وجميله وشنيعه, فانزل عن عرشك وأنا أريك كيف أجمع الجميل من كونك إلى الجميل, والشنيع إلى الشنيع, والحق إلى الحق, والباطل إلى الباطل", أو ليس الله أبعد من جمالنا وشناعتنا وفوق حقنا وباطلنا؟

- هو كذلك يا ميشا, هو كذلك, وقد يكون أننا نهتدي إليه كلما حاولنا أن نقسمه فوجدناه لا ينقسم, وأنا لا أزال أقول أن الفن, وإن ميّز بين الجمال والشناعة, هو من أقرب السبل إلى الله, أما التأمل البحت الذي أنت ترمى إليه فسبيل آخر, لكنه يؤدي إلى الصمت وكتم سر النفس ضمن النفس, والصمت أرهب من الكلام وأصدق, أنت محق في ذلك, ولكن ستأتينا ساعة نصمت فيها, فلماذا نصمت قبل أن تدق الساعة؟ هو ذا صاحبك لاوتسو لاذ بالصمت ولكن بعد أن أعطى الناس بالكلام خلاصة إيمانه, سنصمت يا ميشا, سنصمت, ولكن لنتكلم الآن, وإليك طائفة من الكلام.. اقرأها وقل لي رأيك فيها.

ودفع جبران إلي مخطوطه "آلهة الأرض" وطلب إلي أن أقرأها بصوت عال.

أخذت أقرأ ما بيدي فإذا به قصيدة منثورة ذات ثلاثية أصوات تمثل ثلاثة أرواح أو آلهة, لكل منهم نزعته الخاصة ونظرته في الناس وحياتهم, فالأول إله عبوس كؤود, مل الناس وسياسة الناس, ومل جبروته وألوهيته إلى حد أنه أصبح ينشد العدم:

"لقد سئمت روحي كل ما هو كائن, وأنا أربأ بيدي أن أحركها لأخلق عالما أو لأمحو عالما, وأنا أؤثر الموت على الحياة لو كان في استطاعتي أن أموت, فقد أثقلت كاهلي دهور لا تحصى, وأنين البحور المستمر يسلبني لذة النوم".

والثاني إله يطيب له اللعب بالأرض وما عليها من حياة, لاسيما بالإنسان وحياته, فيقول لرفيقه الأول إنه ليس نظيره يطلب العدم, لكنه يختار طريقا أصهب من طريقه, وهي:

"أن أبعث الإنسان من الظلمة الخفية وأترك جذوره عالقة بالأرض"

"أن أعطيه العطش إلى الحياة وأجعل ساقيه الموت"

"أن أمنحه الحب الذي ينمو بالألم, ويتسامى بالشهوة, ويزداد بالشوق ثم يذوي لدى أول قبلة"

"أن أمنطق لياليه بأحلام أيام مشعشعة بالفرح, وألقح أيامه بخيالات ليال مترعة بالغبطة, وأن أقيد لياليه وأيامه فتبقى أبدا متشابهة"

"أن أجعل خياله كنسر الجبال, وأفكاره كعواصف البحار, ومن ثم أعطيه يدين تترددان في العمل, ورجلين يثقلهما التأمل"

"أن أرفع نفسه فوق السماء كيما يذوق طعم غدنا, وأن أدع جسده يتمرغ في حماة الأرض كيما ينسى أمسه الدابر"

أما الإله الثالث فيصغي إلى رفيقه, وبصره تائه في الوادي يرقب فتى وفتاة يرقصان للحب ويرنمان له, وفيهما يرى كل سر الحياة, ولكنه عبثا يحاول أن يجذب إليهما أبصار رفيقيه وأفكارهما, فهما لا ينتبهان في البدء إلى ما يقول, إلا أنه يفوز في النهاية فيستميل الإله الثاني إلى رأيه بأن الحب هو السر كل السر والحق الذي ما بعده حق, ويبقى الأول حائرا ما بين النور والظلمة, ويختتم الإله الثالث المحاورة قائلا في بعض ما يقوله: "نحن سيكتنفنا الغسق, وقد نستيقظ لنرى فجر عالم غير هذا العالم, أما الحب فسيبقى, وآثار أصابعه لن تمحى إلى الأبد"

كنت في قراءتي كلما وقفت عند عبارة بارعة, أو تشبيه بديع, أو فكر جذاب أنظر إلى جبران فأرى وجهه مشرقا بنور كأنه أذيال الشمس عند المغيب وقد نشبت

في غمامة, والغمامة هي ذلك الألم الذي أنزلته به الحياة وحاول أن يصفه بلسان الإله الثاني, ومع أني كنت منذ دقائق أنهاه عن الكتابة, لم يسعني إلا أن أبدي له إعجابي بأسلوب القصيدة النضر وخيالها الواسع, وأسفي لأنها من معدن غير معدن "النبي" الصافي, ولأن نفسه التي كانت قد التأمت في "النبي" عادت فتشبعت في "آلهة الأرض", وأنا أعلم في داخلي أن الألم كان مبعث التشعب, أما لساني فما كان يطاوعني لأفوه بذلك.

بعد أن انتهينا من قراءة القصيدة والتحدث فيها قام جبران من فراشه وهو في ثياب النوم وأخذ يعرض علي الرسوم التي أعدها لها – وعددها اثنا عشر – فيكاد ينسيني نفسه ونفسي والقصيدة التي ما برحت أنغامها ترن في أذني, فقد أدهشتني من تلك الرسوم – علاوة على ما فيها من رشاقة وانسجام وألفة ألوان – قوة كنت ألمحها في فن جبران ولكن ما رأيتها قط مجسمة إلى هذا الحد وأدهشني كيف أن كفة جبران الفنان أخذت ترجح على كفة جبران الشاعر كلما تمادت بذاك وهذا السنون, فحين أن جبران الشاعر لم يبق عنده ما يقوله من بعد النبي إلا إعادة ما قاله, كان جبران الفنان يزداد براعة وجرأة وقوة في فنه

- كل هذه من شغل الصيف الماضي يا ميشا, فقد كان صيفا مثمرا!.

وبعد فترة من السكوت:

- ميشا, لقد ذكرتك في وصيتي

سقطت هذه الكلمات علي سقوط البرد من غمامة في الصيف, فأجفلت من سكوتي وشعرت كأن قلبي تحول فجأة إلى جرة من دموع, وكادت الجرة تفرغ كل ما فيها من عيني لو لم يسد فوهتها خوفي على الجالس بجانبي ومعرفتي أن دمعة من عيني في مثل هذه الساعة تنفجر لها ساقية دموع من عينيه, فقلت له وفي صوتي غصة:

- ما كنت أحب أن أسمع ذلك منك يا جبران لا اليوم ولا بعد اليوم, فأنت لو فتشت عن أمر توصي لي به – من بعد عمر طويل – لما وجدت أعز من نفسك, وتلك أنا حاصل عليها من غير وصية, فأنت معي في كل حين مثلما أنا معك في كل حين.

بعد ذلك بأسابيع أخبرت نسيب عريضة عما كان بيني وبين جبران بشأن وصيته, فأجابني أن جبران قال له عين ما قاله لي: "لقد ذكرتك في وصيتي يا نسيب" وعلى أثر وفاة جبران حدثني عبد المسيح حداد عن زيارته له قبل وفاته بأربعة أيام.

دخلت عليه وكان النهار ممطرا, وكان قد طلب إلي أن آتيه ببعض الصحف العربية ليتسلى بها, فأخذت له رزمة كبيرة منها, وكان في فراشه فنهض وجلس بجانبي, وللمرة الأولى سمعت الموت في صوته ورأيته على وجهه, غير أني حاولت مقدرتي ألا أظهر له شيئا مما سمعت ورأيت, تحدثنا في أمور كثيرة, ولكن أكثر حديثة كان عن "الرابطة" وإخوانه فيها, فقد أخذهم واحدا واحدا، وراح يكشف فكره وقلبه نحو كل منهم كأنه يقصد أن يجمعهم حواليه ولو بفكره وأن يودعهم الوداع الأخير.

وعندما سألني عن عائلتي ذك كل واحد من أولادي وأعطاني بضعة دولارات وكلفني أن أشتري بها طاقة من الزهر أقدمها كسلام منه إلى أمهم, ثم التفت إلي وقال: "لا تخف على مستقبل أولادك يا عبد المسيح, إذا مد الله بعمري فأنا سأهتم بأمر تعليمهم, وإلا فإني قد تركت لهم في وصيتي ما يكفيهم, ووصيتي في تلك الخزانة" وأشار إلى الخزانة الصغيرة بجانب سريره".

ولكن لا عبد المسيح ولا نسيب ولا أنا كنا نعرف مرض جبران الحقيقي, فكان يودعنا ونحن غافلون عن أنه مودع, وكانت الأقدار تلملم خيوط حياته الأرضية ونحن نحسبها ما تزال ماضية في نسجها.

الاحتضار

الغرغرة تغور في الصدر ويبعد قرارها, كأنها بقايا شريدة من عاصفة في قعر واد, والأنات تتواهى وتتقطع وتتباعد, ومعاون الطبيب يجس النبض من حين إلى حين في انتظار النبضة الأخيرة.

وأنا – بجانب السرير – أفكر في القلب المحتضر أمامي ودقاته من الأولى حتى الأخيرة – أين هي؟ فيتراءى لي أن في الفضاء حافظة تعي كل دقة من كل قلب, وكل شهوة, وكل فكر, وكل عمل, وكل طرفة عين, وكل حلم, وكل نبرة, وكل نفس, وأن كل إنسان سيأتيه يوم تتمزق فيه أغشية الحس عن عينيه وتنفض عصائب الوهم عن أذنيه, فيبصر ويسمع كل ما كان من أمره منذ صدوره من مصدره الحياة حتى عودته إليه, بل كان يخيل إلي أن تلك الحافظة كامنة في أعماق الإنسان نفسه, وأن الإنسان – من حيث لا يدري – يحفر حياته فيها مثلما يحفر الصوت في صفيحة الفونوغراف, وأذكر قول يسوع "ليس خفي إلا سيظهر", فأحس برهبة الدينونة وعدلها وأرى أن يوم الدين هو اليوم الذي نسمع فيه فونوغراف حياتنا يردد علينا كل ما كان منا على ممر الدهر, فأستغفر الحياة عن كل ما نسبته أو ينسبه إليها الناس من جور وخشونة وقساوة وأقول لنفسي: مثلما تغنين يغنى لك, والذي تزرعين تحصدين, ما ظلمت إلا لأنك ظلمت, ولا توجعت إلا لأنك أوجعت, ولا بكيت إلا لأنك أبكيت, كما أنت كذلك حياتك.

والموت؟ – أتكون حافة السرير بجانبي الحد الذي تنتهي إليه حياة من في السرير؟ أيكون هذا السرير الصغير أوسع من الله الذي انبثقت منه تلك الحياة, فكانت أزلية مثله, والذي يستحيل عليها أن تخرج عن نطاقه فتبقى أبدية مثله؟

وعلاقتي برفيقي؟ أتنقطع بانقطاع أنحابه؟ وأفكارنا التي تقاربت فتلاصقت في بعض مناحيها, وروحانا اللذان تعارفا فتآخيا – أتفصل بينهما وهدة الموت إلى الأبد؟

أين هي المقدرة التي في وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسلة مفككة مقطعة؟.. أليس أن علاقتي برفيقي حلقة في تلك السلسلة, فهي لا تنفك ما دام الزمان زمانا؟ أليست كل حلقة في سلسلة لا بدء لها ولا نهاية حلقة لا بدء لها ولا نهاية كتلك السلسلة؟ أليس أن حلقتين متصلتين في مثل تلك السلسلة تبقيان كذلك إلى الأبد, فإذا ما اختفيتا في ناحية من نواحي الزمان برزتا في غيرها, كالشمس تغيب عنا في بقعة من الأرض فتشرق في سواها؟ لا.. ليس على الأرض ولا في السماء قدرة تستطيع أن تفصم عروة مكنتها الحياة بين إنسان وإنسان, أو بين شيء وشيء, وهل في الكون ذرة ليست مربوطة بكل ما في الكون؟.

رباه ما أوسعك! رباه ما أجملك! رباه ما أعدلك! وما أجهلنا نفصل أنفسنا عنك بكل ما نفعل ونقول ونفكر ونشتهي, فنشقى ونحزن ثم ننتحب عندما تضمنا إليك, وما أغبانا نحرق العمر طالبين معرفة غير معرفتك, وحقا غير حقك, وسلاما غير سلامك, وما أفقرنا ندخر من دنيانا كل أصناف الزاد إلا زاد المحبة الذي لا يفنى, وما أضعفنا نتحصن من هذه الساعة بكل أنواع الحصون إلا حصن الإيمان الذي لا يدك. وما أشد عمانا نفتش عنك في غير أنفسنا!.

ولكن, لماذا كتب لي من بين كل رفاق جبران وإخوانه أن أشهد عراكه مع الموت وحدي؟.. لقد حاولت مرارا وبغير جدوى أن أتصل بالتليفون بنسيب وعبد المسيح, فقد كان يحبهما محبة جمة, فلأحاول مرة بعد. أنهض عن كرسي فأسمع خارج الباب نحيبا, وأفتح الباب فأعرف أن ماريانا قد قدمت من بوسطن فور تسلمها برقية تستدعيها إلى نيويورك, ولم تكن حتى ذلك اليوم تعرف أن أخاها في خطر الموت, وأرى النسوة يقدنها إلى غرفة محاذية لغرفة أخيها, وهي تشهق بدموعها, وتنتحب وتستغيث, وكانت تعرفني عندما زرت جبران مرة في بوسطن وتعرف الكثير عني من جبران, فلا يقع نظرها علي حتى تختنق بعبراتها مستجيرة بي كأن في قدرتي رفع القدر المحتوم:

- دخيلك! إني أشم فيك رائحة جبران, دخيلك! أنت أخوه وأخي, أيموت؟ أمات جبران؟ دخيلك! أنتركه يموت؟.

أعود إلى غرفة جبران وفي قلبي نحيب مثلما في أذني, فأسمع الغرغرة تكاد تتلاشى والأنات يهبط قرارها حتى لا يكاد يسمع, فتهرب مني أفكاري, وتشتت خيالاتي, وتسألني نفسي ألف سؤال فأجيبها بألف لون من ألوان الصمت, وتختلط علي مشاعري فلا أدرى أأحزن أم أتجلد, أأفرح لانعتاق أخي من متاعب الأرض, أم أتفجع لحياته الملأى بالعواصف والخيالات والأشواق والأماني والظلال والأنوار تلملم أذيالها عن الأرض قبل أن تشبع من الأرض أو تشبع الأرض منها, لكنني أشعر برهبة الساعة وهيبة السر الذي تتممه الحياة أمام عيني, وتخطر ببالي كلمات المصطفى للبحر: "سيدور هذا الجدول دورة بعد, سيهمس بعد همسة في هذه الغاب, ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد إلى محيط لا يحد" وكلماته الأخيرة لأهل أورفليس: "عما قليل, بعد هجعة قصيرة على أجنحة الريح, ستحبل بي امرأة أخرى"

وعندما ينسل آخر نفس من صدر جبران, نحو الساعة الحادية عشرة من الليل, أحس بقوة تجذبني إلى الأرض, فأهبط على ركبتي بجانب السرير وأدفن وجهي في ثنايا الملاءة البيضاء عليه، ومن كل الأصوات التي تتسابق إلى أذني لا أسمع في داخلي إلا صوتا واحدا, أسمعه متقطع النبرات, وفي بعض نبراته صلاة قلب منسحق, وفي بعضها ترنيمة إيمان ظافر, هو صوت داود النبي: "ارحمني يا الله بحسب رحمتك وبحسب كثرة رأفتك امح معاصي.. إنني في الإثم ولدت وفي الخطيئة حبلت بي أمي, تنضحني بالزوفي فأطهر, تغسلني فأبيض أكثر من الثلج, قلبا طاهرا أأخلق في يا الله وروحا مستقيما جدد في داخلي" وتغمرني شبه غيبوبة أفيق منها مخاطبا نبي الجليل ومرددا كلماته الوداعية لتلاميذه:

"وها أنا ذا معكم كل الأيام إلى منتهى الدهر"

الفصل الرابع

ملحق

جثمان جبران

يحكى عن الفيلسوف الصيني تشوانج تسو الذي عاش في القرن الرابع ق. م. أنه, عندما كان على فراش الموت, جاءه تلاميذه ليطلعوه على رغبتهم في الاحتفال بدفنه احتفالا باهرا فقال لهم: "مادام لي من الأرض نعش ومن السماء كفن ومن الشمس والقمر والنجوم أوسمة, وما دامت الخليقة بأسرها ستشيعني إلى القبر – أو ليست كل معدات دفني جاهزة؟".

فرد عليه تلاميذه: "لكننا نخشى كواسر الجو من أن تمزق جثمان معلمنا", فكان جوابه لهم: "أنا على التراب سأكون طعاما للكواسر, وفي التراب سأكون طعاما للدود, فلماذا نجيع تلك لنطعم هذه؟"

لكن "للمدينة المنورة" تقاليد عمياء أنى لها أن تبصر حكمة "تشوانج تسو"! فهي تجل التراب من بعد أن تفارقه نسمه الحياة أكثر من إجلالها إياه ونسمة الحياة ما تزال فيه, وكم خلقت للأحياء من متاعب فوق نكبتهم بموت أمواتهم.

قضيت ما تبقى من ليلتي – بعد أن تركت المستشفي وشيعت ماريانا ومن معها إلى النزل – ولم يغمض لي جفن, وفي صباح اليوم التالي – السبت – قصدت محترف جبران فوجدت ماريانا ومن كان معها قد سبقوني إليه, ورحت أهتم مع بعض الأصحاب بإذاعة خبر الوفاة في الجرائد, وبالتفتيش عن محنط وعن نعش, وعن قاعة لائقة ومناسبة عند أحد الدفانين تعرض فيها الجثة, فقد رأينا أن يعرض الجثمان كل نهار الأحد في نيويورك ليودعه من شاء من الأصحاب والمعجبين قبل أن ننقله إلى بوسطن, وهكذا كان, وتقاطر المودعون من سوريين وأمريكيين ليلقوا النظرة الأخيرة على جبران وهو مسجى في نعشه المحفوف بالرياحين والأزهار.

في تلك الأثناء جاءني من يقول أن كاهن الكنيسة المارونية في نيويورك لا يرضى أن يعطي تصريحا لكاهن الكنيسة المارونية في بوسطن بالصلاة على جثمان جبران, لأنه زار جبران في المستشفى وعرف من الراهبة ما قاله لها عندما سألته إذا كان كاثوليكيا, ولم يتمكن من مخاطبته ليعرف ما إذا كان يرغب في الاعتراف ومناولة الأسرار الإلهية بعد أن انقطع عنها نحو ثلاثين سنة, فقلت لمخبري – وكان مارونيا وذا نفوذ كبير في طائفته، أن يستعمل نفوذه مع الكاهن ليحصل على ورقة تصريح, لا إكراما لجبران الذي لم يكن يحفل بمثل هذه الأمور, بل رحمة بشقيقته التي ما كانت تكف عن البكاء والنحيب دقيقة واحدة؛ فلم يخيب طلبي..

صباح الإثنين نقلنا الجثمان بالقطار إلى بوسطن, وقد رافقه غيري وغير ماريانا ونسيبين من أنسابها عدد من إخوان جبران في الرابطة القلمية وسيدتان أمريكيتان من اللواتي لقيتهن في المستشفى, وفي بوسطن بقي الجثمان مسجى في قاعة جمعية المساعدة للسيدات السوريات حتى صباح الثلاثاء, وهناك – في تلك القاعة – تعرفت بماري هاسكل التي قدمت من سافانا البعيدة لتحضر الدفن, فرأيت الرصانة والبساطة والدعة ورحابة الصدر في كل ملامحها – حتى في ثيابها, ولم أقرأ في وجهها حزنا ولا سمعت في صوتها غصة, بل حدثتني حينئذ – ومرارا بعدئذ – عن جبران كما لو كان ما يزال حيا, وأنا مدين لها بالكثير مما صورته في هذا الكتاب من علائق جبران معها ومع ميشلين.

صباح الثلاثاء نقل الجثمان إلى كنيسة سيدة الأرز المارونية, ومن بعد الصلاة عليه سير به في موكب حافل إلى المقبرة حيث أودع مدفنا مؤقتا ريثما تفتح وصية جبران فنرى إذا كان يبدي رغبة ما في دفنه إما في أمريكا أو في لبنان.

بعد أشهر قرَّ رأي ماريانا أن تنقل جثمان أخيها إلى لبنان الذي كان يحن إليه حنينا دائما, فبلغ الجثمان بيروت في ٢١ أغسطس حيث جرى له استقبال ما عرفت بيروت نظيره, وفي اليوم التالي سار في موكب رهيب إلى بلدته المحبوبة – بشرى،

وهناك استقر, بعد مناورات كثيرة, في الخلوة التي كان جبران يمني نفسه ويمنيني بها – في مارسركيس, وقد توفق داوود إلى ابتياع ذلك الدير.

زرت مارسركيس في صيف سنة ١٩٣٢, ولست أعرف ما يصف جمال موقعه وهيبة سكينته أبلغ من الآية المخطوطة باللاتينية فوق بوابته بأحرف تكاد الأعاصير تعبث بها:

Oh Beata Solitudo

Oh Sola Beatitudo

أيتها الوحدة المغبوطة

أيتها الغبطة الوحيدة

وصية جبران

إن الوصية التي قال جبران لي ولنسيب عريضة ولعبد المسيح حداد وعدد من السيدات الأمريكيات اللواتي عرفت منهن سبعا أنه ذكرنا فيها لم يظهر لها أثر, أتراها ما برحت في ذمة جبران؟ لا أظن ذلك البتة, فجبران أخبرنا عنها كأمر ناجز, حتى أنه دل عبد المسيح على الخزانة التي وضعها فيها وما كان من داع له أن يذكرها قبل موته بثلاثة أيام إلا رغبته في تثبيت وجودها, أهي في ذمة الزمان, أهي في ذمة بعض الناس؟ الله اعلم, أما الوصية التي ظهرت وتقدمت إلى المحكمة فتاريخها في ١٣ مارس سنة ١٩٣٠, أي ما قبل وفاة صاحبها بما يقارب السنة, وقد وجدت نسخة منها عند ماريانا في بوسطن, والأصل عند إدغار سباير في نيويورك, وإليك ترجمتها:

"كل ما لي من دراهم وسندات مالية عند المستر إدغار سبابر, الذي تلطف واحتفظ لي بها, أريد أن يكون بعد مماتي من نصيب شقيقتي ماريانا خليل جبران الساكنة حاليا تحت رقم ٧٦ شارع تيلر في مدينة بوسطن من ولاية ماساتشوستس.. هناك أيضا ٤٠ (أربعون) حصة من حصص شركة بناية المحترف رقم ٥١ من الشارع العاشر غربا, وهي موجودة في صندوقي للودائع في بنك منهاتان ترست كومباني, رقم ٣١ يونيون سكوير, مدينة نيويورك, وهذه الحصص أوصي بها لشقيقتي كذلك. وهناك علاوة على ما تقدم, دفتران للتوفير في وست سيدسايفينغس بنك, رقم ٤٢٢ من الآفينيو السادس في مدينة نيويورك, وهذان الدفتران عندي في المحترف, وأنا أريد من شقيقتي أن تأخذ هذا المال إلى بلدتي بشرى وتنفقه هناك على الإحسان.

كذلك أوصي لبشرى بريع كتبي التي – حسبما أعرف – يمكن ورثتي أن يطلبوا تجديد الاحتفاظ بحقوق طبعها لثمان وعشرين سنة بعد مماتي. كل ما هو في محترفي من رسوم وكتب وسلع فنية الخ, أوصي به بعد مماتي لمسز ماري هاسكل مينس, الساكنة حاليًا تحت رقم ٢٤ شارع غاستون في مدينة سافانا من ولاية

جورجيا, لكني أرغب إلى مسز مينس, إذا هي استنسبت ذلك, أن تبعث بكل هذه الأشياء أو ببعضها, إلى بلدتي".

بلغ مجمل تركة جبران ٥٢١٩٦ دولارا, أما قبل حلول الأزمة وهبوط أسعار العقارات والأسهم المالية فكانت ثروته تقدر بين الثمانين والتسعين ألفًا.

الفهرس

اعتذار ٥

الفصل الأول: الشفق

الاحتضار.. حشرجة الموت! ٩

خيالات بشرى ١٩

خيالات بوسطن ٣١

يوم مولد ويوم حساب ٨١

فصلٌ يبتدئ وفصلٌ ينتهي ٩١

نحن بالتفكير ١٠٤

الفصل الثاني: الغسق

تمخضت الفارة فولدت جبلا ١١١

حفَّار القبور ١١٨

وقد يجمع الله الشتيتين ١٢٩

في الكهوف المظلمة ١٣٥

الصوتان ١٤٣

العواصف ١٥٧

نبأ كاذب ١٦١

الفصل الثالث: الفجر

الضباب يتبلور ١٧١

المصطفى ١٧٨

حصة في السماء، وحصص في الأرض ١٨٧

الدبُكّ ١٩٤

السيدة الملتحية ٢٠٠

الصلح ٢١٠
أشعة في الغمام ٢١٥
الاحتضار ٢٢١

الفصل الرابع: ملحق

جثمان جبران ٢٢٥
وصية جبران ٢٢٨